سلسلة
التربية الإسلامية في القرآن الكريم
(٢)

التربية الإسلامية في سورة النور

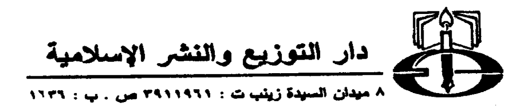
الدكتور
علي عبد الحليم محمود
من علماء الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

التربية الإسلامية
في سورة النور



دار التوزيع والنشر الإسلامية

٨ ميدان السيدة زينب ت : ٣٩١١٩٦١ ص . ب : ١٦٣٦

إهـــداء

إلى الراغبين في أن يربّوا أنفسهم وأبناءهم وغيرهم من الناس تربية إسلامية نابعة من مصدري الإسلام الأساسيين: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وإلى المؤمنات المسلمات الصالحات اللائي يعانين في تربية أنفسهن وغيرهن تربية إسلامية.

وإلى كل من يحاول معرفة أبعاد التربية الإسلامية معرفة مؤصلة تعتمد الكتاب والسنة مرجعين رئيسين.

إلى هؤلاء أقدم هذا الكتاب، سائلاً الله تبارك وتعالى لي ولهم العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

علي عبد الحليم محمود

بين يدي هذا الكتاب

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات، والصلاة والسلام على أنبيائه ورسله الذين بلغوا عن ربهم، فهدوا الناس إلى الصراط المستقيم صراط الله، وعلى خاتمهم محمد بن عبد الله، المبعوث هدى ورحمة للعالمين، ومعلماً وهاديا للبشرية كلها في كل زمان ومكان، فلقد آثر ﷺ أن يجلس في حلقة ذِكر، قائلاً: «إنما بعثت معلماً»(١)، ولقد نفى عن نفسه العنت والإعنات واصفاً هديه بالتعليم والتيسير على الناس إذ يقول: «إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»(٢).

وبعد:

فلقد كانت الحلقة الأولى من هذه السلسلة: **التربية الإسلامية في القرآن الكريم هي: «التربية الإسلامية في سورة المائدة»** التي صدرت في عام ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ولقد حاولت ما وسعني أن ألقي الأضواء على المعاني التربوية العامة، والمواقف التربوية من مجالي الدعوة إلى الله، والحركة الإسلامية، متخذا من سورة المائدة مجالاً أصل من خلاله إلى توضيح تلك المعاني والمواقف، مستهدفا أن أضع بين أيدي العاملين في مجال الدعوة إلى الله، والمهمومين بما تتطلبه الحركة الإسلامية من أعباء مادية ومعنوية، بعض المواقف التي تعينهم وتهديهم فيما هم فيه من عمل وأمل.

وأظنني قد بلغت من ذلك ما أعانني الله تعالى عليه، ووفقني إليه، مما أرجو به مثوبة ربي ورحمته، ونفع رجال الدعوة إلى الله، والعاملين في الحركة الإسلامية فيما يعرض لهم أثناء العمل من مواقف ومشكلات.

---

(١) رواه ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) رواه الإمام مسلم بسنده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

ولست أجد حرجاً - وأنا أقدم لهذه الحلقة الثانية من تلك السلسلة حلقة «التربية الإسلامية في سورة النور» - في أن أشير إشارات خاطفة إلى مجمل ما فصلته في الحلقة الأولى: «التربية الإسلامية في سورة المائدة» مما جاء هناك تحت عنوان: بين يدي هذه السلسلة، حيث قلت هناك:

«ولقد اشتركت جميع الشرائع التي جاءت من عند الله في إرساء دعامتين أساسيتين يقوم عليهما بناء التعليم والتربية، أو صياغة الإنسان المؤمن الذي يرضى به سبحانه وتعالى، هاتان الدعامتان هما:

● توحيد الله تبارك وتعالى إلهاً وربًّا، وعبادته سبحانه وفق ما شرع، ودليل ذلك أن كل نبي أو رسول قال لقومه: «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره»[1].

● وطاعة الله سبحانه وتعالى في كل ما أمر به، وطاعته في الانتهاء من كل ما نهى عنه، ودليل ذلك أنه ما من نبي أو رسول إلا طالب قومه بطاعة الله ورسوله، فقال لهم تعبيرا قرآنيا يحمل الأمر بطاعة الله ورسوله، فبعض الرسل قال لقومه: ﴿أطيعوا الله والرسول﴾ وبعضهم قال: ﴿وأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أو ﴿وأطيعوا الرسول واحذروا﴾ وبعضهم قال: ﴿فاتقوا الله واطيعون﴾[2].

وما طالب الأنبياء والرسل أقوامهم بذلك التوحيد وتلك الطاعة إلا لما لهما من أهمية بالغة في تربية الإنسان تربية صحيحة، تقربه من ربه وتحقق له سعادة الدارين.

وإذا كانت مفردات التربية للإنسان - كما أوضحت هناك - مما اهتم بها

---

(١) وردت هذه الآية الكريمة بنصها في سورة «الأعراف» أربع مرات، وفي سورة «هود» ثلاث مرات، وفي سورة «المؤمنون» مرتين.

(٢) وردت هذه الآيات وأمثالها في: سورة آل عمران: ٣٢، والأنفال: ٤٦، والأنفال: ٢٠، والمائدة ٩٢، والشعراء: ١٥١. كما وردت في سور النساء، وطه، والنور، والأحزاب، والزخرف، ومحمد، والفتح، والحجرات، والمجادلة، والتغابن، ونوح وغيرهما.

الإسلام ودلت عليها نصوصه هي أنواع استطعنا بفضل الله أن نحصي منها عشرة هي:

- التربية الروحية.
- والتربية الخلقية.
- والتربية العقلية.
- والتربية الجسمية.
- والتربية الدينية.
- والتربية الاجتماعية.
- والتربية السياسية.
- والتربية الاقتصادية.
- والتربية الجهادية.
- والتربية الجمالية.

وذكرنا هناك من مفردات كل نوع من أنواع هذه التربية الإنسانية سبع مفردات، وأوضحنا كيف لقيت هذه الأنواع العشرة من الإسلام «الكتاب والسنة» العناية والاهتمام[1].

ومن أجل أن نحصل على التربية الصحيحة للإنسان، التربية المتكاملة كان اتجاهنا إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة إذ هما معين لا ينضب، على اعتبار أن السنة النبوية هي شارحة القرآن ومفسرته ومفصلة مجمله، إذ يستحيل فهم القرآن فهما علميا تفصيليا إلا بسنة النبي ﷺ.

---

(١) وقد شرحنا هذا في كتابنا «المدخل إلى التربية الإسلامية» الذي نرجو أن ندفع به إلى الطباعة قريباً إن أذن الله تعالى.

وقد أكدّ مكانة السنة النبوية من القرآن الكريم الرسول ﷺ نفسه في عدد من الأحاديث النبوية الصحيحة التي نذكر منها ما يلي:

● روى الإمام أحمد وأبو داود بسنديهما عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغنى عنها صاحبها...».

● وروى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم بأسانيدهم عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يقعد الرجل متكئا على أريكته يُحدِّث بحديث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإنَّ ما حَرَّمَ رسولُ الله مثل ما حرَّم الله».

● وروى الطبراني في الكبير، والبيهقي في شعب الإيمان بسنديهما عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت مكان التوراة السبع الطوال[1]، وأعطيت مكان الزبور المئين[2]، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني[3]، وفضِّلتُ بالمفصل[4]».

ولعل هذه الأحاديث النبوية الصحيحة ترد على أولئك الأغرار الذين تحدَّث عنهم النبي ﷺ قبل أربعة عشر قرنا فوصفهم بأنهم جلوس على أرائكهم يرفضون السنة النبوية المطهرة مكتفين بالقرآن الكريم، ويطلق بعضهم عل أنفسهم اسم «القرآنيين»!!!.

---

(١) السبع الطوال هي: البقرة آل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس.

(٢) المئين هن: كل سورة من القرآن الكريم تزيد آياتها على المائة آية.

(٣) المثاني هن: كل سورة تقل عن مائة آية - ما عد المفصل - وتطلق المثاني على سورة الفاتحة.

(٤) المفصل هو: السور من أول سورة الحشر إلى آخر سورة الناس.

● ومن أجل انتقاء أحسن المناهج وأكملها في التربية الإسلامية.

● ومن أجل تربية المسلمين جميعا صغارهم وكبارهم، أفرادهم وجماعاتهم على منهج الإسلام في التربية.

● ومن أجل التأكيد على تميز المسلمين في التربية عن سواهم من الناس كان اتجاهنا إلى الكتاب والسنة نستنبطهما عن التربية الإسلامية: أبعادها وأنواعها وخصائصها، وأهدافها ووسائلها.

● ومن أجل بناء المجتمع المسلم فالدولة المسلمة، كان من المحتم أن يتربى المسلمون ويتعلموا من خلال الكتاب والسنة، ليستوعبوا الأهداف والنظريات، وليعرفوا القيم الخلقية الثابتة، ثم ينطلقوا في مجالات العلم والمعرفة ليعمروا الأرض بالإيمان والعلم، كما أمرهم الله تبارك وتعالى.

● ولقد كانت بداية عملنا في هذا المجال تفسير سورة المائدة تحت عنوان: «التربية الإسلامية في سورة المائدة» وكان ذلك من توفيق الله تبارك وتعالى.

● وها نحن نثني بتفسير سورة النور تحت عنوان: «التربية الإسلامية في سورة النور».

● ثم نواصل هذا العمل بما يفتح الله به علينا ويوفقنا إليه من تفسير بعض سور القرآن الكريم لتوضيح المواقف التربوية فيها.

● وإنما كان البدء بهاتين السورتين الكريمتين لما رواه البيهقي في شعب الإيمان بسنده عن مجاهد رحمه الله (٢١ - ١٠٤هـ) مُرْسلاً[١]: «علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور» وكذلك رواه سعيد بن منصور في «سننه».

● ولا يستطيع المسلمون أن يتعلموا من مصدر أو مرجع للعلم والثقافة كما

---

(١) الحديث المرسل: هو ما رواه التابعي الكبير الذي أدرك جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، الذين جالسهم وأخذ عنهم.

يتعلمون من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فلقد أورد أبو بكر الأنباري (٢٧١- ٣٢٨هـ)[١] صاحب غريب الحديث - بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم» وفي رواية: «فاقبلوا» بدل «فتعلموا» وقد قال العلماء في تفسير هذا الحديث وتأويله: إنه مَثل، شبَّه القرآن بصنيع صنعه الله عز وجل للناس، لهم فيه خير ومنافع ثم دعاهم إليه.

● وأهم ما يحتاج إليه الإنسان من التعليم في معاشه ومعاده هو ما يصحح به عقيدته وعبادته لربه، وما يتعامل به في نفسه ومع الناس، وقد أجمل أسلافنا من علماء المسلمين ذلك كله في أمرين هما:

– علم التوحيد.

– وعلم أفعال العبيد.

ويدخل في هذين العلمين جميع العلوم والمعارف مما له صلة بحياة الإنسان في الدنيا أو الآخرة.

والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد تكفلا ببيان ذلك بما لم يُبيَّن مثله في كتاب أو منهج سابق أو لاحق، وهذا من فضل الله على الأمة الإسلامية التي أورثها الكتاب وجعله خاتم الكتب وأتمها وأكملها.

● وللقرآن الكريم والسنة النبوية منهج في التربية يتسم بسمات تجعله متفردا عن سائر المناهج، ومن أبرزها وأهمها ما نشير إلى مجمله فيما يلي[٢]:

– أنه من عند الله تبارك وتعالى.

– وأنه شامل متكامل.

(١) هو محمد بن القاسم بن بشار الأنباري من علماء اللغة المشهورين.

(٢) أوضحنا هذه السمات بالتفصيل في كتابنا «التربية الإسلامية في سورة المائدة» نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

– وأنه متوازن.

– وأنه إيجابي.

– وأنه يجمع بين المثالية والواقعية.

– وأنه يربي الفرد والمجتمع المسلم والمجتمع الإنساني كله، ويتخذ من هذه الثلاثة ميادينه في التربية والتعليم، والإرشاد والتسديد فيما يتصل بالدنيا والآخرة.

● ولقد أوضحنا في كتابنا الأول من هذه السلسلة: «التربية الإسلامية في سورة المائدة» لماذا كان البدء بسورة المائدة ثم بسورة النور. وأود أن أوضح هنا أن هاتين السورتين هما البدء فقط، وأن النية منعقدة على مواصلة العمل في توضيح المفاهيم والقيم التربوية في كثير من سور القرآن الكريم، إذا أذن الله وأعان وأمَدَّ بالتوفيق.

* * *

هذا الكتاب

إن هذا الكتاب: «التربية الإسلامية في سورة النور» مُوَجَّه إلى النساء، كما توجه الكتاب الذي سبقه إلى الرجال، والأصل في النساء المسلمات أنهن مطالبات بما طولب به الرجال من العمل من أجل الإسلام في مجال الدعوة والحركة والتربية(١).

● وليس معنى توجُّه سورة إلى الرجال ان النساء لا يستفدن مها، او توجه سورة إلي النساء ان الرجال لا يستفيدون منها، وإنما كان ذلك التوجه بالنظر إلى مجموع الموضوعات التي تحدثت عنها كل سورة منهما، إذ أغلب الموضوعات في سورة المائدة يحتاج إليها وإلى معرفة الأحكام الواردة فيها الرجال أكثر من النساء، كما أن أغلب الموضوعات التي تحدثت عنها سورة النور يحتاج إليها النساء أكثر مما يحتاج إليها الرجال.

● ومن المسلَّم به أن كل ما في السورتين الكريمتين ـ بل القرآن الكريم كله ـ يحتاج إليه وإلى أحكامه وآدابه جميع المسلمين من الرجال والنساء، ما يختلف على ذلك أحد من المسلمين.

● إن القرآن الكريم كله والسنة النبوية التي فصلته له مقاصد عامة لا يستغني عن فهمها مسلم أو مسلمة، كما أن للقرآن الكريم طريقته في إحاطة المجتمع المسلم بالنظم والأحكام والآداب التي تضمن له الطهارة الحسية والمعنوية، والعفة والفضائل، وله طريقته في محاربة الرذائل والدنايا والسفاسف.

● وللقرآن الكريم أسلوبه الذي يدعو فيه الناس إلى التأمل والتدبر والسير في

---

(١) أوضحنا مكان المرأة المسلمة ومكانتها في هذه المجالات من العمل الإسلامي في كتاب لنا بعنوان: «المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله» نشر دار الوفاء ١٤١١هـ ١٩٩١م.

الأرض، والإفادة من سير الأولين، بحيث يستطيع بذلك أن يشق طريقه نحو التقدم وممارسة الحياة الإنسانية التي كرمها الله تبارك وتعالى، لتنتشر بذلك الدعوة إلى الله في كل بقاع الأرض ولتقوم حياة الناس باسم الإسلام على الإيمان والعلم، ولينعموا في تلك الحياة بالعدل والشورى، وليبنوا الحضارة الإنسانية بناء صحيحاً.

● إن سورة النور كغيرها من سور القرآن الكريم تهدي الناس جميعا إلى الحق وإلى طريق مستقيم، ولكن لها خاصية أخرى بالإضافة إلى ذلك هي: أنها اشتملت على كثير من الأحكام والآداب التي تخص النساء، وإن أفاد منها الرجال.

● إن هذا القرآن الكريم كما وصفه منزله سبحانه وتعالى: ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] أي للطريقة التي هي أقوم وأحسن على وجه الإطلاق في الهداية، وعلى وجه الإطلاق في المهتدين به. أمَّا إطلاق الهداية فإن القرآن الكريم يهدي إلى كل خير وإلى كل حق في الدنيا والآخرة، فهو يهدي روح الإنسان وخلقه وعقله ودينه وبدنه ونظامه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والجهادي والجمالي، يهدي به كل الناس في كل زمان ومكان، يهدي الرجال والنساء، ويهدي كل أصحاب الأديان أو الأهواء إلى الحق وإلى الطريق المستقيم إذا أخذوا بما جاء في القرآن الكريم من منهج ونظام وأحكام وآداب.

هذا ممَّا لا خلاف عليه بين علماء المسلمين، بل المنصفين العقلاء من غير المسلمين، كما صرح بذلك عدد غير قليل منهم.

● ولكنّ يبقى أمام المتدبر للقرآن الكريم أن سورة من سور القرآن الكريم، وإن كانت تهدي بمجموع آياتها لكل ما هو أقوم وأحسن، وتخاطب كل أحد في كل مكان وزمان، إلا أنها بما تتحدث عنه من موضوعات وقضايا، قد تشد اهتمام الرجال أكثر مما ينجذب إليها النساء.

ولعل ذلك هو الذي جعل التوصية النبوية الكريمة «علموا رجالكم سورة المائدة، وعلموا نساءكم سورة النور» توضح أن أبرز القضايا في سورة المائدة مما

ينبغي أن يتعلمه ويهتم به الرجال، وأن أبرز القضايا في سورة النور مما ينبغي أن يتعلمه ويهتم به النساء.

وفي كلتا السورتين الكريمتين ما يهم الرجال والنساء جميعا كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

* * *

سورة النور..
والقيم التربوية التي تستفاد منها

● النور: الضياء والسناء الذي يعين علي الإبصار، وذلك ضربان: دنيوي وأُخروي.

● فالدنيوي ضربان: معقول بعين البصيرة وهو ما انتشر من الأنوار الإلهية كنور العقل ونور القرآن. ومحسوس بعين البصر وهو ما انتشر من الأجسام المنيرة كالقمر والنجوم النيرات...

فمن النور الإلهي قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]

● ومن النور المحسوس الذي يرى بعين البصر نحو قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]

● ومن النور الأخروي، قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

[الحديد: ١٢]

● سورة النور نزلت بالمدينة المنورة، فهي مدنية باتفاق العلماء، وعدد آياتها أربع وستون آية.

وترتيب نزولها بين سور القرآن الكريم هو: المائة أي نزل قبلها تسع وتسعون سورة، ونزل بعدها أربع عشرة سورة، فيما رواه جابر بن زيد[1] (٢١- ٩٣هـ)

---

(١) هو جابر بن زيد الأزدي البصري أبو الشعثاء: تابعي فقيه من الأئمة، من أهل البصرة، صحب ابن عباس رضي الله عنهما وروى عنه، وكان جابر من بحور العلم كما وصفه العلماء. وقد نفاه الحجاج بن يوسف إلى عُمان، وجاء في كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله لما مات جابر بن زيد قال قتادة: اليوم مات أعلم أهل العراق.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وقد ذكر ترتيب نزول سور القرآن كلها، أنها نزلت بعد سورة: «إذا جاء نصر الله والفتح» وقبل سورة الحج[1]: وقد نزلت هذه السورة الكريمة في حدود السنة الثانية من الهجرة النبوية.

وقد سميت هذه السورة: سورة النور منذ عهد النبي ﷺ، فقد روى مجاهد ـ كما أسلفنا ـ: «... وعلموا نساءكم سورة النور» وروى مثله عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: «وعلموهن سورة النور والمغزل».

وروى حارثة بن مُضَرِّب العبدي الكوفي[2] قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور».

ولا يعرف للسورة اسم آخر فتسميتها «النور» توقيفية.

● وقد اشتملت هذ السورة الكريمة على أغراض عديدة نذكرها فيما يلي مستهدين فيها بما قاله عدد كبير من العلماء والله المستعان.

● أمَّا إجمال ما اشتملت عليه السورة الكريمة فهو أحكام معاشرة الرجال للنساء وآداب الخلطة والزيارة.

● وأما تفصيل ما اشتملت عليه السورة الكريمة فهو على النحو التالي والله أعلم:

١ـ بيان ان هذه السورة الكريمة محكمة فرضها الله فرضا بكل ما فيها وذلك في الآية ذات الرقم ١.

٢ـ وتوضيح عقوبة الزانية والزاني إذا كانا غير محصنين، وذلك في الآية ٢.

---

(١) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن: ١ـ ٢٥ ط الثانية مطبعة ومكتبة الحلبي القاهرة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

(٢) روى عن عمر وعلي وابن مسعود وخباب وسلمان وأبو موسى رضي الله عنهم، وهو من الثقات.

٣– وبيان حكم التزوج من المرأة التي اشتهرت بممارسة الزنا، وذلك في الآية ٣.

٤– وتوضيح عقوبة الذين يقذفون المحصنات، في الآيات من ٤ – ٦.

٥– وبيان حكم اللعان، وذلك في الآيات من ٦ – ١٠.

٦– وتاكيد براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فيما ألصق بها من حديث الإفك، وتوضيح عقاب أهل الإفك ومن شاركوهم، والنهي عن إشاعته بين المؤمنين والمؤمنات وذلك في الآيات من: ١١ – ٢٠.

٧– والتحذير من اتباع خطوات الشيطان لما يأمر به من الفحشاء والمنكر وذلك في الآية: ٢١.

٨– والأمر بالصفح والعفو ومواصلة العطاء. وذلك في الآية: ٢٢.

٩– وبيان العقوبة الأخروية للذين يقذفون المحصنات وذلك في الآيات من: ٢٣– ٢٦.

١٠– وبيان أحكام استئذان الاجانب بعضهم علي بعض في دخول البيوت مسكونة أو غير مسكونة وذلك في الآيات من: ٢٧ – ٢٩.

١١– وبيان آداب المسلمين والمسلمات في المخالطة، وذلك في الآيتين: ٣٠ – ٣١.

١٢– والتحريض على التزوج والتزويج بالنسبة للأيامى والصالحين، وذلك في الآية: ٣٢.

١٣– والدعوة إلى العفة والإعفاف، وتشجيع مكاتبة العبيد والإماء إلى ان ينالوا الحرية، وذلك في الآية: ٣٤.

١٤– الله سبحانه وآياته نور السموات والأرض وذلك في الآية: ٣٥.

١٥– بيان عمل المؤمنين وبيان جزائهم وبيان عمل الكفار وجزائهم، وذلك

في الآيات: من ٣٦ – ٤٠.

١٦– الإخبار بأن جميع المخلوقات تسبح الله، وبيان مظاهر قدرته، وهدايته لمن شاء من عباده، وذلك في الآيات من: ٤١ – ٤٦.

١٧– وتوضيح سمات المنافقين، وذلك في الآيات: من ٤٧ – ٥٠.

١٨– وتوضيح سمات المؤمنين، وذلك في الآيتين: ٥١ – ٥٢.

١٩– ومن علامات المنافقين الحلف وتغليظه وذلك في الآيتين: ٥٣ – ٥٤.

٢٠– ووعد الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات بالاستخلاف في الأرض والتمكين، وتبديل خوفهم أمنا، وذلك في الآيات من: ٥٥ – ٥٧.

٢١– وبيان حكم استئذان العبيد والإماء على سادتهم وحكم استئذان الأبناء الصغار على آبائهم، وذلك في وذلك في الآيتين: ٥٨ – ٥٩.

٢٢– وبيان حكم القواعد من النساء في الملبس والزينة وذلك في الآية: ٦٠.

٢٣– وبيان حكم من وُكل من أصحاب الأعذار في رعاية بيت أو مال، وماذا يحل به أن يأكل منه، وذلك في الآية: ٦١.

٢٤– وبيان صفات المؤمنين في الأمور الجامعة مع النبي ﷺ أو مع الحكام المسلمين، وذلك في الآية: ٦٢.

٢٥– وبيان أدب مناداة الرسول ﷺ والتعامل معه، وذلك في الآية: ٦٣.

٢٦– وتأكيد أن الله تبارك وتعالى له ملك السموات والأرض وهو عليم بما يفعل عباده، ومجازيهم عليه يوم القيامة، وذلك في الآية: ٦٤ وهي آخر آيات السورة الكريمة.

وبعد: فإلى التفسير التربوي لهذه السورة الكريمة والله المستعان.

الآية الأولى

في : مكانة هذه السورة الكريمة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾.

■ من مكانة هذه السورة وأهمية ما جاء فيها من أحكام يؤدي الأخذ بها إلى أمن المجتمع واستقراره أن الله تعالى فرض هذه السورة وأحكامها فرضا، وضمنها الدلائل الواضحة على قدرته ووحدانيته سبحانه وتعالى، وحكمة تشريعاته التي لا يستغني عنها الناس بحال؛ لأن هذه التشريعات هي التي تحفظ للمجتمع حقوق أفراده المادية والمعنوية، وتفرض العقوبات على من يخل بشيء من هذه التشريعات، وتحافظ على القيم الخلقية التي لا يكون الإنسان إنسانا مكرما إلا إذا أخذ بها، وذلك أن القيمة الخلقية هي التي تحرك الإنسان نحو العمل الصالح، فإذا عطلت هذه القيمة أو أغفلت فسد عمل الإنسان فاضر بنفسه وبغيره من الناس.

من أجل ذلك أنزل الله سبحانه هذه السورة وفرض ما فيها من أحكام، وأيد هذه الأحكام بالدلائل الواضحة لعل الناس يتذكرون ويتدبرون ويعملون بهذه الأحكام.

■ وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عدد من الأخبار، أخبر بها ربنا سبحانه وتعالى وأسندها إلى نفسه جل وعلا بضمير المعظم نفسه: «نا» ﴿ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ﴾ ونستطيع أن نوضح هذه الأخبار خبرا خبرا مؤكدين أهميتها في بناء المجتمع على النحو التالي:

— أخبر الله سبحانه ورسوله الكريم وكل مخاطب بهذا القرآن العظيم بأنه أنزل هذه السورة بنفسه، ليدفع بذلك وهم من يتوهم أن القرآن الكريم عموما أو هذه السورة على وجه الخصوص من عند أحد غيره سبحانه وتعالى، وضمير المعظم نفسه

هنا يوحي بعظمة الله سبحانه وأنه المالك القادر، المشرع للناس ما يصلح أحوالهم في الدنيا والآخرة. ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ ويقتضي ذلك أن تكون هذه السورة بما تضمنت من أحكام هي التي تنظم المجتمع وترشده إلى الطريق المستقيم.

– وأخبر سبحانه وتعالى بأنه فرض هذه السورة وأحكامها فرضا و﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ هذا التعبير يوحي بأن ما تضمنته هذه السورة من الأحكام لا يجوز أن يؤخذ على أنه توصيات يُخير الإنسان بين أن يأخذ بها أو لا يأخذ، وإنما هي أحكام قاطعة يجب على المجتمع المسلم أن يأخذ بها، لما فيها وفي الأخذ بها من صالح الفرد والجماعة من يوم نزلت هذه السورة وإلى يوم القيامة.

– وأخبر جل ذكره أنه أنزل في هذه السورة دلائل واضحات لا لبس فيها ولا خفاء ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ حيث وضَّحت الحلال والحرام وكل ما هو مطلوب من المسلمين أن يمتثلوا له، توضيحا لا يدع لأحد أن يتعلل بعدم الفهم أو بصعوبته، ومن تمام وضوح هذه الآيات أو الدلائل أنها أحكام قاطعة، لا لبس فيها ولا إيهام، وذلك من علامات أنها بيانات.

– وأخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل هذه السورة وفرضها وأنزل فيها الآيات البينات على رجاء أن يتذكر الناس هذه الأحكام والآداب النافعة لهم، أن جعلنا لكم كل ذلك ليتولد لديكم الرجاء والأمل في الاستجابة لما جاء فيها، وتكون كلمة «لعلَّ» على بابها أي دالة على الرجاء، وبهذا قال علماء اللغة الأثبات كسيبويه وأضرابه من العلماء.

وقد تكون «لعلَّ» بمعنى التعرّض للشيء، أن أنزلنا هذه السورة وفرضناها لتكونوا متعرضين لأن تتذكروا نعم الله عليكم في هذه التشريعات التي تنفعكم في دينكم ودنياكم.

قال علماء التأويل: كل «لعلّ» في القرآن الكريم لا تخرج عن واحد من هذه المعاني الثلاثة.

وبعد: فإن من كانت أمامه هذه السورة المنزلة من عند الله فرضا وما تضمنته من آيات بينات، واستعمل عقله ففكر وتدبر، واستعمل قلبه فخاف ربه ورجا أن تكون هذه الآيات تذكيرا بما يجب، من فعل ذلك لا يسعه إلا طاعة الله تبارك وتعالى وامتثال كل ما جاء في هذه السورة الكريمة من أوامر وأحكام، واجتناب كل ما جاء فيها من نواهٍ وزواجر.

وسورة النور من بين سور القرآن الكريم كله تفردت بهذ البداية ﴿أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ بما يوحي بجلال الأحكام التي تضمنتها وخطرها في تنقية المجتمع المسلم من الآفات التي تعصف بالمجتمعات الأخرى، ويوحي برحمة الله لهذا المجتمع إذ يشرع له هذه التشريعات.

■ المواقف التربوية العامة التي تستفاد من هذه الآية الكريم كثيرة، يفتح الله بها على من يشاء من عباده، ونحن نذكر منها ما يلي:

١- أن ما أنزله الله على رسوله الخاتم من قرآن كريم، ومنه هذه السورة الكريمة إنما أنزله رحمة بالناس ليصلح به أمور دينهم ودنياهم، وذلك تشريف من الله للناس وتكريم.

وهذا التشريف والتكريم يقتضي من الناس أن يحرصوا على التمسك بما أنزل الله عليهم، والعمل على تطبيق أحكامه وآدابه لو أرادوا أن يعدوا أنفسهم مؤمنين إذ لا إيمان بالله إلا أن تصاحبه طاعة له سبحانه.

● والموقف التربوي هنا هو التلقي عن الله والأخذ بما شرع مع اليقين بأنه سبحانه لا ينزل على الناس في القرآن إلا ما ينفعهم في الدين والدنيا، ومن هنا وجب عليهم طرح كل تشريع غير تشريع الله سبحان وتعالى.

٢- وأن هذه الأحكام التي سوف ترد في هذه السورة الكريمة إذا أخذ بها الناس فقد أخذو بأقوى الأسباب في إقامة المجتمع المسلم الآمن الراشد المستقر، الذي يتمتع كل فرد فيه بكل حقوقه، ويلتزم فيه بأداء واجباته.

وحسب ما نزل في هذه السورة من أحكام وآداب وأنظمة من الشرف والقدرة على الإصلاح أن الله تعالى فرضه فرضا، وما كان الله سبحانه ليفرض على عباده إلا ما ينفعهم، ولا يشق عليهم أو يعنتهم في شيء، فلقد قال الله تعالى في توضيح ما جاء به خاتم رسله محمد ﷺ.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال عز من قائل: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٧].

لقد أنزل الله القرآن كله وهذ السورة الكريمة ليتبع الناس هديه دون عنت أو مشقة.

● والموقف التربوي هنا هو التسليم، بل الاستسلام لكل ما جاء من عند الله من آيات.

٣- وأن من رحمة الله بعباده أن كانت آياته إليهم بينات واضحات مصحوبة بأدلة صدقها، وعلامات نفعها للناس، مشتملة على دلائل توحيده سبحانه ومظاهر قدرته، لأن أدلة التوحيد كانت كالمعلومة لهم حتى اهتدى بعضهم إليها بفطرته، قال الله تعالى عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨] ، قال علماء التأويل: «...إن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض، وفي عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة، وفي عجائب بدن الإنسان، وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم».

● والموقف التربوي هنا أن التعامي عن الدلائل الواضحة إنما هو إلغاء العقل وتضليل للقلب عن الحق والهدى، وأن توحيد الله تبارك وتعالى أمر مركوز في الفطرة قد لا يحتاج إلى دليل، فما بال الإنسان وقد جاءته على توحيد الله آيات بينات.

٤- وأن الله تبارك وتعالى إنما أنزل هذه السورة وفرضها وأنزل فيها الآيات البينات لكي يتذكر من نسي ، ويهتدي من ضل ويؤمن من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فلقد أحاط الله عباده بكل ما يدعوهم إلى الإيمان به رحمة منه لهم وحرصا على ما يصلحهم في الدين والدنيا .

● والموقف التربوي هنا أن يتعلم الإنسان كيف يثق في كل ماجاء من عند الله، وكيف يوحد الله ويعبده ويطيعه من خلال التأمل والتدبر لما في هذه السورة الكريمة من آيات بنيات، سوف توضحها السورة الكريمة في كل ما تضمنته من تشريعات وأحكام وآداب.

■ والمواقف التربوية في مجال الدعوة والحركة الإسلامية التي تستفاد من هذه الآية الكريمة، كثيرة نذكر منها ما يلي :

١- على الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يبينوا للناس بما لا لبس فيه ولا غموض ـ متأسين بمنهج القرآن الكريم في الدلائل الواضحة ـ طريق الدعوة إلى الله، وطبيعة العمل فيها، ومراحلها ومتطلبات كل مرحلة، وأهدافها ووسائلها، وأن الدعوة إلى الله واجبة على كل مسلم ومسلمة ما دام يدعو إلى الله على بصيرة، يوضحون لهم ذلك مؤكدين على انصراف المسلمين عن ممارسة الدعوة إلى الله هو أحد الأسباب التي مكنت أعداء المسلمين من المسلمين، وجعلت من المسلمين مزقا، وأحالتهم إلى ضعف بعد قوة، وأن بداية استعادة القوة هي ممارسة الدعوة إلى الله، والانخراط في سلك العاملين في حقل الحركة الإسلامية.

إن ذلك يحتاج من الدعاة والحركيين إلى دلائل واضحات، ولا عذر لهم أمام

الله إن هم لم يقدموا على ذلك الأدلة والبراهين.

٢- ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآية الكريمة أن هدف الدعوة والحركة إنما هو في الأساس الرغبة في هداية الناس إلى الله، وتبصيرهم بأحكام شريعته، وصواب أحكامه، وجميل آدابه، لعلهم بتوضيح ذلك يتذكرون ما يمكن أن يكونوا قد نسوه مما أمرهم الله به أو نهاهم عنه.

وإذا كان الله تعالى ينزل السورة ويفرضها ويجعل فيها الدلائل الواضحة لكي يتذكر الناس فيهتدوا فيؤمنوا فتخبت قلوبهم لما نزل من عند الله من الحق، أفلا يفعل الدعاة والحركيون في مجال توضيح أبعاد الدعوة والحركة ما يذكّر الناس بالحق وبالطريق المستقيم؟

إن هذا أوجب واجبات الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية، تأسيا بهدي القرآن الكريم.

٣- وأن يوقن الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية بأن الهدى هدى الله وذلك يتطلب منهم أمرين:

- ألا يَدَعوا العمل أو يتراخوا فيه.

- وألا ييأسوا من هداية أحد من الناس.

وعلى الرغم من ذلك، فليس لأحد من الدعاة إلى الله، ولا لأحد من العاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يسرع إلى تكوين فكرة عن بعض الناس بأنهم لم يستجيبوا لما يدعون إليه فيصيبهم الفتور في دعوتهم والتحرك فيهم، وإنما الأصل - كما توحي بذلك الآية الكريمة - أن يستمر في دعوته وحركته واضعا أمام عقله وقلبه وبصره قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وأنه موجه إلى المسلمين المخاطبين بهذه السورة، وهم قد آمنوا بالله ورسوله وبكل ما جاءهم من عند الله تبارك وتعالى، ومع ذلك يخاطبهم القرآن الكريم بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾.

ومعنى ذلك أن النسيان والتقصير يردان على كل أحد من المسلمين باستثناء المعصوم ﷺ.

وهذا من شأنه أن يحمل الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية، على أن يترفقوا بالناس، وأن يدركوا أن الناس قد ينسون وقد يُقصرون ويهملون ولعلهم يتذكرون إذا داوم الدعاة على جهودهم.

* * *

الآية الثانية

في: تحديد عقوبة الزنا لغير المحصنين والمحصنات

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

■ هذه الآية الكريمة تحدد العقوبة الدنيوية التي يجب أن توقع على من ارتكب جريمة الزنا من الرجال والنساء، الذين لم يتزوجوا اي لم يتحصنوا بالحلال، وتجعل هذه العقوبة من شيئين:

الأول: جلد كل واحد منهما مائة جلدة.

والآخر: أن يشهد هذا الجلد طائفة من المؤمنين، بحيث يفعل المجتمع المسلم أو الحكومة هذا إذا كانت حكومة تؤمن بالله واليوم الآخر، ومعنى ذلك أنها إذا لم تطبق حدود الله فقد انتفت عنها صفة الإيمان بالله واليوم الآخر.

■ وقد تضمنت الآية الكريمة خبراً وأمرين، ونهياً وشرطا مما نوضحه فيما يلي:

- أما الخبر فهو: الآية كلها إجمالا، حيث يخبر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ والمؤمنين والمؤمنات أن عقوبة الزناة غير المحصنين ـ بشرط أن يكون كل منهما حرًّا بالغاً عاقلاً ـ هي الجلد مائة جلدة كما هو واضح في الآية الكريمة والتغريب عن البلد التي قورف فيها الزنا مدة عام كما ثبت في السنة النبوية ـ على خلاف في هذا التغريب بين العلماء.

فإذا اختل أحد هذه الشروط اختلفت العقوبة:

فإذا كانا محصنين كانت العقوبة الرجم حتى الموت.

وإذا اختلت الحرية كانت العقوبة خمسين جلدة لا مائة.

وإذا اختل شرط البلوغ والعقل فلا عقوبة مطلقا.

ومن شروط إقامة هذه الحدود وآدابها ألا تأخذ الحكام بهذين الزانيين رأفة. حرصا على أحكام الدين ومهابتها في الناس.

وأن يشهد إقامة الحد وعذاب الزناة به طائفة من المؤمنين توبيخا للزناة بحضرة الناس، وردعا لسواهم وعظة عامة، كل هذا يعد خبرا أخبرنا الله تعالى به في هذه الآية.

– وأما الأمران:

● فأحدهما: الأمر بالجلد لكل واحد من الزانيين مائة جلدة. والمخاطب بذلك الأمر: (فاجلدوا) هو الإمام أو من ناب عنه والأصل في الخطاب أنه موجه للمسلمين عموما والإمام ينوب عنهم في تنفيذ حدود الله.

- والجلد يكون بسوط وسط، وضرب وسط غير مبرح ولا هين.

- ويقوم بتنفيذه رجل عدل تقي حتى لا يجور أو يتساهل.

- والمجلود الرجل يجرد من ثيابه إلا ما ستر عورته، وأما المرأة فلا تجرد من ثيابها.

- والجلد مكانه ظهر المجلود.

● والآخر من الأمرين: هو وجوب أن يشهد هذا الجلد طائفة من المؤمنين، وأقل عدد لهم أربعة، وقيل ثلاثة وهو أقل الجمع، وهذا الحضور والشهود تأكيد للجدية في إقامة الحدود ومشاركة معنوية في تطبيق حد من حدود الله - وتطبيق الحدود عبادة - وردع لغير الزناة.

– وأما النهي: فهو نهي عن تعطيل الحدود أو تهوينا شفقة على المحدودين،

لأن تعطيل الحدود كبيرة من الكبائر يسأل عنها كل من تسبب في تعطيلها، وتهوينها بجعلها غير موجعة تفويت لفائدتها، وكلا الأمرين نهت عنه الآية في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ والمعنى أن إقامة الحدود من دين الله الذي شرع وتعطيلها أو تخفيفها مخالفة لهذا الدين الذي شرعه الله لصالح الناس.

– وأما الشرط فهو: أن الإيمان بالله واليوم الآخر شرط في تطبيق الحد وعدم الرأفة في أخذ الزناة به.

وتفصيل ذلك ما يلي:

(إن) أداة الشرط.

« وكنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر »: فعل الشروط.

وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه والتقدير: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله. والله أعلم.

■ والمواقف التربوية العامة في هذه الآية الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلي:

١– نتعلم من هذه الآية الكريمة أن الزنا ـ وهو العلاقة الجنسية ـ الجماع ـ بين رجل وامرأة من غير أن يكون بينهما علاقة الزوجية التي شرعها الله ـ رذيلة من أقبح الرذائل أخلاقيا، وجريمة من أقبح الجرائم اجتماعيا، وعمل يستحق العقاب في كل دين من عند الله لم ينله تحريف أو تبديل.

والمجتمعات الإنسانية كلها ذات الفطرة السليمة مجمعة على تحريم الزنا وتجريمه، إلا من انحرفت فطرتهم عن الإنسانية الصحيحة أو حرفوا في كتاب من كتب الله.

٢– ونتعلم منه أن إقامة الحدود على العصاة عبادة لله يتقرب بها إليه الحاكم

والمجتمع المسلم كله الذي تطبق فيه حدود الله، ومعنى ذلك ان الحدود لا يجوز أن تعطل عندما يكون المرتكب ذا منصب أو مال، لأن ذلك كان شان بني إسرائيل فلعنهم الله في محكم كتابه وعلى لسان نبيه محمد ﷺ، فقد روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ عندما كلمه أسامة في امرأة: «...إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها».

ومما يؤكد بشاعة جريمة الزنا، ما رواه الديلمي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اشتد غضب الله على الزناة»[١].

٣- ونتعلم من الآية الكريمة أن من لم يقم حدود الله فإنه يفقد الإيمان بالله واليوم الآخر، ذلك أن إقامة حدود الله على المستحقين من عباده جزء من شرعه سبحانه وتعالى.

ولا يؤمن أحد بالله واليوم الآخر حتى يطبق شرع الله كله دون تعطيل أي جزء منه، وإلا كان مؤمنا ببعض الكتاب كافرا ببعضه.

وهكذا يجب أن يتعامل كل مسلم مع شرع الله سبحانه يأخذ به كله دون تعطيل لأي جزء من أجزائه.

هذا مع وجوب إدراك أن تطبيق الحد على المرتكب في الدنيا يعفيه من عذاب الله في الآخرة، وذلك من رحمة الله بعباده.

٤- ونتعلم من الآية الكريمة أن حضور جماعة من المؤمنين ليشهدوا إقامة الحد، فيه فوائد جليلة كلها تربي المجتمع المسلم وتعلمه نذكر منها ما يلي:

- فيها تحقق وتأكد من إقامة حدود الله.

---

(١) الديلمي: مسنده.

● وتتضمن تحذيرا للحاكم إذا عطل شيئا من الحدود، أو تساهل فيها أو خفف عن المرتكب، أو أخفى إقامة الحد لأن في إخفائه ذريعة لتأجيله أو تعطيله.

● وفي شهودهم ردع لكل من تحدثه نفسه بارتكاب أي جريمة حرمها الله تبارك وتعالى.

● وشهودهم إقامة الحدود تيئس من تحدثه نفسه بأن يعطل الحد بالنسبة له أو يؤجل أو يخفف. إذ إن الطائفة المؤمنة التي تشهد إقامة الحدود تشهد على العصاة وعلى الحكام.

٥- ويتعلم من هذه الآية أن هذا الحد والجلد مائة جلدة هو حد الزناة من غير المحصنين والمحصنات، أما هؤلاء الذين أحصنوا بالزواج الشرعي فعقوبتهم لو قارفوا الزنا هي الرجم حتى الموت، كما ثبت ذلك في كتب السنة النبوية الصحيحة من أن رسول الله ﷺ رجم المرأة الغامدية وزوجة الرجل الذي استأجر أجيرا ـ وكان الأجير غير محصن ـ فزنا بزوجة الرجل، فرجم الرسول ﷺ الزوجة لأنها أحصنت بالزواج، وجلد الأجير وغرّبه عاما.

■ والمواقف التربوية في مجال الدعوة والحركة في الآية الكريمة كثيرة ندرك منها ما يلي:

١- تحذير الناس من الزنا ودواعيه وأسبابه، إذ هو من أبشع ما حرم الله على عباده، وحسب الزنا شرا وبشاعة أن الله تعالى وصفه بأنه فاحشة، وأنه سبيل سيئ لمن يسلكه ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] أي لا تقربوا منه لأنه عظيم القبح عقلا وشرعا، وهو طريق إلى نار جهنم.

وليتذكر الدعاة والحركيون وليذكروا الناس في مجال قبح الزنا وتقبيحه ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه أن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ، مَهْ، فقال رسول الله ﷺ: «ادنُه» فدنا منه قريبا فقال: «اجلس» فجلس، فقال: «أتحبه لأمك» قال:

لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لامهاتم» قال: «افتحبه لابنتك» قال: لا يا رسول الله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم» قال: افتحبه لأختك» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: أفتحبه لعمتك» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال: «أفتحبه لخالتك» قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم» قال: فوضع رسول الله ﷺ يديه عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وأحصن فرجه» قال فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

هذا الحديث النبوي الشريف درس عملي للدعاة ليتعاملوا مع المدعوين بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، إنه هدي النبوة في الإقناع.

٢- وعلى الدعاة إلى الله أن يحذروا من الأعمال التي تشبه الزنا وتدخل في حكمه مثل: اللواط وإتيان البهائم ونحوهما، لأن كل ذلك مما حرمه الله وجعل له عقابا في الدنيا بحد أو تعزيز - على خلاف بين العلماء في التعزير - إذ كل تلك الأعمال منافية للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، ومخالفة لما شرع الله تعالى لعباده من نظم وآداب.

وفي هذه الأعمال التي تعد كالزنا مثل اللواطة وما شابهها أحاديث نبوية كثيرة معروفة، وعلى الدعاة أن ينبهوا إلى ذلك وأن يدلوا الناس عليه، حتى يتطهر المجتمع المسلم من هذه العيوب والآفات بل الجرائم والفواحش التي لو تركت دمرت المجتمع تدميرا.

٣- وعلى أهل الدعوة والحركة أن يعوا من خلال هذه الآية الكريمة أن المجتمع المسلم حين تشهد طائفة منه إقامة حد الله في جريمة الزنا، إنما يحقق بذلك مكاسب كثيرة - كما أوضحنا ذلك آنفا.

* * *

الرد على الزاعمين بأن في تطبيق الحدود قسوة

والموقف التربوي المعلم في هذا المجال هو رفض ما يدعيه بعض الحاقدين على الإسلام ونظمه من أن تطبيق الحدود الشرعية فيه قسوة ووحشية ـ كما يزعمون ـ كأن هؤلاء الضالين المضللين أرحم بالناس وأعطف عليهم من خالقهم سبحانه وتعالى الذي شرع لهم هذه الحدود لما في تطبيقها من فوائد لهم في دينهم ودنياهم، وكأن المجتمع الإنساني بما يعتلج فيه من قيم فاسدة، وأناس فاسدين يمكن أن يعالج المجتمع أو الناس بهذه الرقة المزعومة التي تعطل من أجلها حدود الله ومنهجه ونظامه!!!

إن هؤلاء الحاقدين على الإسلام بلوم شريعة الله إذ توجب الجلد والقطع لمن يستحقه والرجم لمن فقد الصلاحية للعيش في مجتمع نظيف، يلومون الإسلام على ذلك، ولا يلومون أنفسهم، وذويهم على إبادة الشعوب باكملها طرفا في مقدراتها الاقتصادية، ولا يتلاومون على استرقاق الناس وتحويلهم إلى عبيد، إن ذلك هو الذي جعلني أصفهم بأنه مضللون، لأنهم يمارسون تضليل الناس عن الحق بما يقولون وبما يزعمون عن الإسلام ونظم الإسلام وشرائع الإسلام.

ولو ذهبنا نضرب الأمثال على وحشيتهم وضراوتهم وفتكهم بالأبرياء ما وسعتنا الصفحات.

وليتذكر الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية شيئا مما قام الحاقدون على الإسلام من الغربيين من بشائع دونها كل ما جاء به الإسلام من حدود يصلح بها المجتمع ويقاوم الجريمة ويرد على المجرمين.

ومن ذلك ما قاموا به من فظائع تشيب لها الولدان في الأماكن التالية ـ دون خوض في التفاصيل ـ:

١ـ شبه القارة الهندي...

٢ـ وجزر أندونسيا..

٣- وماليزيا...

٤- وتايلاند...

٥- والفلبين...

٦- وفلسطين التي قدموها لليهود كأنها من أملاكهم.

٧- وفي عدد من بلدان إفريقيا التي احتلها الإنجليز أو الفرنسيون أو الإيطاليون أو الأسبان أو البرتغال أو غيرهم... وما لهم في كل هذه البلدان من أعمال وحشية قاسية لا يزال أثرها باقيا حتى الآن.

٨- وما قام به الغرب من جرائم استرقاق الأفارقة وحشدهم في البواخر مواكب عبيد ليخدموا الغربيين وقد كتب عليهم الرق.

٩- وما يمارسه الغرب والشرق من مذابح وإبادة لمسلمي البوسنة والهرسك.

١٠- وما قام به الصريع الاتحاد السوفييتي ـ الذي انهار في خزي وعار وكفر بما كان يدندن به من مبادئ جوفاء ـ في كثير من البلدان التي اجتاحها وضمها إليه قسرا وقهرا وتقتيلا في أهلها، بخاصة الولايات الإسلامية في الأرض الشاسعة التي سيطر عليها بالحديد والنار.

١١- وما تمارسه الولايات المتحدة الأمريكية أو مارسته في حرب الخليج ـ عاصفة الصحراء ـ ولبنان وإيران والصومال، وفييتنام وغيرها من حرب إبادة لا تعرف الإنسانية إليها سبيلا كل ذلك وهي تتشدق بالحرية وتتخذ لها صنما يعبد من دون الله، تفعل هذا ولا تستحيي أن تتهم الإسلام بالوحشية وهو يطبق حدود الله على المجرمين الفاسدين من الناس!!!

١٢- وما تقوم به الولايات المتحدة من قتل وإبادة مقنعة لشعب العراق، لا لحاكمه الأخرق المغرور.

١٣- وما تمارسه أمريكا اليوم من ضغوط على ليبيا، بعد أن وجهت إليها في الماضي القريب ضربة عسكرية في موجة إرهاب دولي تمارسه أكبر دولة ضد دولة صغيرة، ثم تحاصر ليبيا وتمنع الطيران في أجوائها وتشل قدراتها في صناعة النفط لمجرد اتهام رجلين ليبيين بأنهما فجرا طائرة ركاب فوق أحدى مدن اسكتلندا «لوكربي»!!!

ترى كم فجرت أمريكا من طائرات ركاب آمنين في عدد من بلدان العالم؟

أبعد هذا ضراوة ووحشية وقسوة؟

أم أن هذه الأعمال رقة وعطف ورحمة بالشعوب وإنقاذ لها من الجوع والعطش؟

أم أن الحدود والعقوبات التي جاء بها الإسلام لقمع المجرمين وإرشاد الغاوين وتأمين الناس في حياتهم وترشيد سلوكهم هو الوحشية والقسوة؟

إن الإسلام إنما شرع الحدود لتطبق على مجرمين انحرفوا عن الفطرة السليمة، فزنوا أو سرقوا أو شربوا الخمر أو قذفوا المحصنات الغافلات المؤمنات أو أحبوا أن تشيع الفاحشة في المجتمع، أو حاربوا الله ورسوله وسعوا في الأرض فساداً، ومع ذلك فليس في الإسلام شريعة تبيح بقر البطون ولا اغتصاب النساء ولا تكسير العظام ولا دفن الأحياء - كما فعلت ولا تزال تفعل إسرائيل ربيبة الغرب ومدللته - وليس في الإسلام ما يبيح استخدام القنابل الذرية أو الهيدروجينية أو غاز الأعصاب!!!

أي النظامين أحكم وأعدل وأقدر على تقويم المنحرفين؟ نظام الله وشرعه، أم ما يسمونه اليوم بالنظام العالمي الجديد الذي ترتكب أفدح الجرائم باسمه وتغتصب النساء وتلقحن بأجنة الحيوانات تحت سمعه وبصره؟!!!

إن على الدعاة أن يوضحوا هذه الحقائق للناس، وهم يعلمونهم أن إقامة حدود الله حماية للمجتمع الإنساني وتأمين لحاضره ومستقبله.

الآية الثالثة

في حكم التزوج ممن اعتاد الزنا

﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

■ الآية الكريمة توضح للنبي ﷺ وللمسلمين جميعا حكم تزوج المسلم بامرأة زانية أصبح الزنا عادة لها وعرفت به، وحكم تزوج المسلمة برجل زان أصبح الزنا عادة له، وعرف به.

وقد ردت هذه الآية الكريمة على سؤال وجهه أحد الصحابة وهو ـ مرثد بن أبي مرثد رضي الله عنه [1]ـ إلى رسول الله ﷺ يستوضحه إن كان يجوز له ان يتزوج بامرأة معروفة بالزنا في مكة تسمى «عناقا» وكانت على الشرك، فكان رد الرسول ﷺ عليه بهذه الآية الكريمة التي حرمت زواجه من هذه المرأة، وللعلماء تفصيل في هذا الحكم.

■ اشتملت الآية الكريمة على ثلاثة أخبار تتضمن حكما شرعيا، بيانها الآتي:

ـ الخبر الأول: هو إخبار من الله تعالى بان الزاني المعروف بالزنا ليس له ان يتزوج إلا من زانية مثله معروفة بالزنا أو تكون الملائمة له امراة مشركة وهي خير له من الفاسقة التي اعتادت الزنا، وذلك عندما يكون المتزوج من غير المسلمين، ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ وهذا يفيد في حصر الزناة المعتادين لهذا الفسق في دائرة تخصهم في المجتمع، وتحمي الناس من شرورهم.

(١) هو مرثد بن كنّاز بن الحصين الغنوي، صحابي ابن صحابي، وكان من أمراء السرايا، وقد آخى النبي ﷺ بينه وبين أوس بن الصامت، شهد بدرا واحداً، وكان يحمل الأسرى، ووجهه النبي ﷺ أميرا على سرية إلي مكة، واستشهد يوم الرجيع في شهر صفر سنة ٤ من الهجرة.

– والخبر الثاني هو إخبار من الله تعالى بأن الزانية المعروفة بالزنا، ليس لها أن تتزوج إلا رجلا معتاداً للزنا مثلها، أو يكون الأنسب لها رجل مشرك فهو أحسن من الفاسق، وهذا إذا كانت الراغبة في الزواج من غير المسلمات، وذلك لحصر هؤلاء المتشابهات في الفسق مع أمثالهم من المشهورين بالزنا، ليتخلص المجتمع من إفساد رجل غير معتاد للزنا إذا تزوج بمن اعتادت الزنا أو امرأة غير معتادة للزنا إذا تزوجت رجلا مشهورا بالزنا.

وذلك يعد من الأنظمة الوقائية للمجتمع التي تحصر الشر والفسق في أضيق نطاق.

– والخبر الثالث: هو إخبار الله تعالى لنبيه ﷺ وللمؤمنين بأن الله سبحانه وتعالى حرم هذ الزواج المشار إليه في صدر الآية الكريمة على مرثد رضي الله عنه إذ كان قد سأل عن ذلك، وحرمه على غيره من المؤمنين ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ومرثد منهم.

– أما الحكم الشرعي التي حملته الآية الكريمة إلى المسلمين ففيه تفصيل نود أن نشير إليه فيما يلي:

● يرى بعض العلماء أن القصد من الآية الكريمة قد يكون التبشيع لأمر الزنا وبيان شناعته، ولذلك حرم على المؤمين الزواج من الزانيات وحرم على المؤمنات الزواج من الزناة، ويكون المراد بقوله تعالى: (لا ينكح) أي لا يطأ أي يجامع، فيكون النكاح هنا بمعنى الجماع، وقد ورد هذ المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: ٢٣٠] ويؤيد ذلك تفسير النبي ﷺ للنكاح بأنه الوطء.

ومعنى الآية على هذا التاويل: أن الزاني لا يطأ في وقت زناه إلا زانية من المسلمات أو المشركات، والزانية لا يطؤها في وقت زناها إلا زان من المسلمين أو من المشركين.

● ونقل عن النيسابوري[1] قوله في هذه الآية: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً...﴾ الآية: حكم مؤسس على الغالب المعتاد جيء به لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني بعد زجرهم عن الزنا، وذلك أن الفاسق الخبيث الذي من شأنه الزنا والتقحب لا يرغب غالبا في نكاح الصوالح من النساء اللاتي على خلاف صفته، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة من شكله أو من مشركة وهي أخسّ من الفاسقة.

والفاسقة الخبيثة كذلك لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو شكلها من الفسقة والمشركين.

ويكون معنى التحريم على المؤمنين على هذا التأويل تغليظا، والآية محكمة.

ونقل ذلك عن الضحّاك[2] والقفّال[3].

● وذكر بعض العلماء تأويلاً للآية يقتضي أن يكون التحريم على ظاهره وذلك الفعل يتضمن محرمات، والحرمة ليست راجعة إلى نفس العقد حتى يعتبر العقد باطلا.

وعلى هذا التأويل تعتبر الآية محكمة أيضا.

● وقال العالم المفسّر أبو حيان الأندلسي (٦٥٤ـ ٧٥٤هـ) المتوفى بالقاهرة

---

(١) هو محمد بن محمد الحاكم الكبير (٢٨٥ـ ٣٧٨هـ) محدث خراسان في عصره وتقلد القضاء في مدن كثيرة ـ وهو ليس صاحب المستدرك.

(٢) الضحّاك بن مزاحم البلخي الخراساني (٠٠٠ـ ١٠٥هـ) مفسر، معلم كان يؤدب الأطفال، ويقال كان في مدرسته ثلاثة آلف صبي ذكره ابن حبيب تحت عنوان: (أشراف المعلمين وفقهاؤهم). له كتاب في التفسير.

(٣) هو محمد بن علي بن إسماعيل القفّال من أكابرعلماء عصره (٢٩١ـ ٣٦٥هـ) كان فقيها محدثا لغويا أديبا، وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء، وكان شافعيا، عنه انتشر مذهب الشافعي في بلاد ما وراء النهر ـ وهي بلاده إذ كانت ولادته ووفاته في مدينة شاسي من بلاد ما وراء نهر سيحون، له كتاب (أصول الفقه) (ومحاسن الشريعة) وغيرهما.

في تفسيره الجامع المسمى: (البحر المحيط): رُوي عن ابن عمرو وابن عباس رضي الله عنهم: ان الآية في قوم مخصوصين كانوا يزنون في جاهليتهم ببغايا مشهورات، فلما جاء الإسلام وأسلموا لم يمكنهم الزنا فأرادوا لفقرهم زواج أولئك النسوة، إذ كان من عادتهن الإنفاق على من تزوجهن، فنزلت الآية لذلك.

فيكون التحريم على ظاهره أيضا.

ويعترض على ذلك بان الإجماع منعقد على أن الزانية المسلمة لا يجوز أن يتزوجها مشرك.

غير أن نفي النكاح في الآية يعني نفي إرادة التزوج، ويكون المعنى: الزانية لا يريد أن يتزوجها إلا زان أو مشرك. وليس في الإجماع ما يأبى ذلك.

● وذهب بعض علماء التأويل إلى أن حرمة التزوج بالزانية أو من الزاني إن لم تظهر التوبة من الزنا باقية إلى الآن، وعند هؤلاء العلماء أنه إذا زنا أحد الزوجين فسد النكاح بينهما، إذا كانت الآية محكمة، وعلى القول بان الآية منسوخة يكون زواج الرجل بزانية، أو زواج المرأة بزان صحيح، وإذا زنا أحد الزوجين لا يفسد النكاح بينهما.

● وقالت طائفة من العلماء: إذا زنت الزوجة أُمر الزوج بطلاقها ولو امسكها اثم.

وفي كل أحوال الزناة والزواني فإن من ظهرت منه توبة يجوز نكاحه.

● وعلى القول بان الآية منسوخة، قالوا: نسختها آية ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢] والذين قالوا بان الآية منسوخة منهم سعيد بن المسيب، وينسب كذلك إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقد قال: دخلت الزانية في أيامى المسلمين، قال أبو جعفر النحاس[1]: هذا القول عليه أكثر العلماء.

(١) هو أحمد بن محمد المرادي المصري (٠٠٠- ٣٣٨هـ) مفسر اديب ولد في مصر، ومات بها، وزار العراق واجتمع بعلمائها، وصنف: تفسير القرآن، وإعراب القرآن وشرح المعلقات السبع وغيرها.

● وأهل الفتيا يقولون: إن من زنا بامرأة فله أن يتزوجها ولغيره أن يتزوجها، وهو قول ابن عمر وسالم وجابر بن زيد وعطاء[١] وطاووس[٢] ومالك بن أنس وهو قول أبي حنيفة.

وقال الشافعي: القول فيها كما قال سعيد بن المسيب[٣] إن شاء الله منسوخة.

● وعن الحسن أن حرمة نكاح الزاني من العفيفة إنما هي فيما إذا كان مجلودا، وكذا حرمة نكاح العفيف للزانية إنما هي إن كانت مجلودة، فالمجلود لا يتزوج إلا مجلودة، والمجلودة لا يتزوجها إلا مجلود، وقد تأيد ذلك بما رواه أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله».

● ومن العلماء من يرى أن هذه الآية خاصة بمرثد بن أبي مرثد رضي الله عنه هو والبغي المسماة «عناق» إذ كانت على الشر، أما الزانية المسلمة فإن العقد عليها لا يفسخ.

روى الترمذي بسنده عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان رجل يقال له مرثد يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم إلى المدينة، وكانت امرأة بغيّ بمكة يقال لها: عناق، وكانت صديقة له، وانه وعد رجلا من أسارى مكة بحمله،

(١) هو عطاء بن دينار (٠٠- ١٢٦هـ) الهذلي، مصري من علماء الحديث والتفسير، له كتاب في التفسير رواه عن سعيد بن جبير، وكانت وفاته بمصر أيضا.

(٢) هو طاووس بن كيسان الخولاني (٣٣- ١٠٦هـ) من أكابر التابعين تفقها في الدين ورواية للحديث وتقشفا في العيش وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك أصله من الفرس وولد ونشأ في اليمن، وتوفي حاجًّا بالمزدلفة أو منى.

(٣) هو سعيد بن المسيِّب بن حزن المخزومي القرشي (١٣- ٩٤هـ) سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، كان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقضيته حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة المنورة.

قال: فجئت حتى انتهيت إلى ظل حائط من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عناق فابصرت سواد ظل تحت الحائط، فلما انتهت إليّ عرفتني فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد، فقالت: مرحبا وأهلا، هلمّ فبت عندنا الليلة، قلت يا عناق: حرم الله تعالي الزنا، قالت: يا أهل الخيام هذا الرجل يحمل أسراكم، قال: فتبعني ثمانية وسلكت الخندمة[1] فانتهيت إلى غار أو كهف فدخلت فجاءوا حتى قاموا على رأسي فظل بولهم على رأسي، عماهم الله عنه، فرجعوا ورجعت إلى صاحبي فحملته، حتى قدمت المدينة، فاتيت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله: آنكح عناق؟ فامسك فلم يرد عليّ شيئا حتى نزل: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً...﴾ الآية فقال رسول الله ﷺ: يا مرثد «الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، وحرم ذلك على المؤمنين «فلا تنكحها».

■ والمواقف التربوية العامة التي نتعلمها من هذه الآية الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- أن الزنا يسقط المروءة وأن اعتباره من أشد أنواع الفسق، وأن الرجال والنساء فساق إذا زنوا، وأن المؤمنين والمشركين عند الزنا فساق خبثاء، وأن هؤلاء الزناة وأولئك الزواني بعضهم أقرب إلى بعض، وأنه لا ينبغي لمؤمن ولا لمؤمنة التزوج من زان أو زانية، لأن ذلك لا يرضاه الله للمؤمنين، بل حرمه تحريما كما قال بذلك بعض علماء التأويل فصرحوا بان نكاح البغايا حرمه الله على أمة محمد ﷺ.

والموقف التربوي هنا أن يربأ الإنسان رجلا أو امراة بنفسه عن هذه الجريمة الفاحشة الجرم السيئة النهاية وإن لم يفعل وجد نفسه منعزلا عن المجتمع النقي وفاسقا منبوذا.

---

(١) جبل بمكة او سلسلة جبال. قال ياقوت الحموي: جبال مكة: الخندمة وابو قُبيس.

٢- ونتعلم من الآية الكريمة ان الشرك أخسّ وأدنا من الفسق، وأن الفاسقين بالزنا من الرجال هم أقرب إلي المشركين منهم إلى المؤمنين، وأن الفاسقات بالزنا من النساء يقربن بهذا الفسق من المشركات، وان هؤلاء وأولئك أولى بعضهم ببعض، وأنهم بهذه الصفة يجب أن يكونوا محاصرين في المجتمع المسلم، لا يتزوج منهم المؤمنون ولا يزوجونهم من نسائهم الصالحات.

وذلك لأن الله تعالى عصم المؤمنين والمؤمنات من التزوج بالزناة والزواني سواء أكان ذلك من باب التحريم المانع أو باب التنزيه للمؤمنين والمؤمنات.

٣- وأن المجتمع المسلم يجب أن تسوده العفة والطهارة، وأن الزواج في المجتمع المسلم والتزويج فيه يجب أن يخضع لقيم ومعايير على رأسها تقوى الله وحسن الخلق، لأن ذلك هدي رسول الله ﷺ، فقد روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»، وما ذلك إلا صيانة للمجتمع كله عن الفساق والخبثاء وأهل الزنا والمجون.

ولا يستطيع المجتمع أن يشق طريقه في مجال الحياة الإنسانية الكريمة، بل في طريق الحضارة والتقدم إلا إذا أقام بناء الأسرة على أسس نظيفة نقية من العفة والطهر.

■ والمواقف التربوية في مجال الدعوة والحركة التي نتعلم منها في هذه الآية الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- على الدعاة إلى الله أن يحذروا من فعل الزنا فضلا عن اعتياده لما فيه من بشاعة وفحش وسوء مصير، لأن الله تعالى قد وصفه بأنه فاحشة وأنه أسوأ السبيل.

وفي بشاعة الزنا وسوء عاقبته واستحقاق ما عليه من عذاب الله تعالى وردت أحاديث نبوية شريفة منها:

● ما رواه الحاكم في مستدركه بسنده عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية، فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله».

ومن المعروف في الإسلام أن دواعي الزنا وأسبابه بل مقدماته حرام كحرمة الزنا نفسه، لأن كل ما يؤدي إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب كما هو مقرر في أصول الفقه الإسلامي.

● وما رواه البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تَمنَّى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» ومعنى هذا الحديث أن الزنا آفة ومصيبة يجب على الإنسان أن يباعد بين نفسه وبينها ما وجد إلى ذلك سبيلا.

● وروى النسائي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلمُ، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا، ويشرب الخمر، ويذهب الرجال، ويبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيمٌ واحد».

٢- وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يبينوا للناس قرب الفسق من الشرك، وإذا كان من المعروف عندنا أن الشرك من أكبر الكبائر، فإن فسق الزناة كبيرة قريبة من الشرك.

● روى ابن أبي الدنيا[1] بسنده عن الهيثم بن مالك الطائي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له» والرحم الذي يحل في الإسلام هو ما كان ناشئا حله عن زواج مشروع

(١) هو عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا (٢٠٨ - ٢٨١هـ) حافظ للحديث مكثر من التصانيف مؤدب للخليفة المعتضد العباسي ثم لابنه المكتفي وكان من الوعاظ العارفين بأساليب الكلام وما يلائم طبائع الناس إن شاء أضحك جليسه وإن شاء أبكاه مولده ووفاته ببغداد.

مستوفٍ لأركانه وشروطه خال من الخداع والغرر، وقصد المتعة فقط ثم الطلاق.

● وروى الحاكم في مستدركه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أعظم الذنوب عند الله:

رجل تزوج امرأة فلما قضى حاجته منها طلقها وذهب بمهرها،

ورجل استعمل رجلا فذهب بأجرته،

وآخر يقتل دابة عبثا».

٣- وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية ان يعلموا الناس تزكية أنفسهم وتطهيرها من الخطايا عموما ومن الزنا على وجه الخصوص، حتى يشعر بعز طاعة الله وحلاوتها، ويسهم بهذه الطاعة وهذا الطهر والنقاء في بناء المجتمع المسلم النظيف الصالح فالحكومة المسلمة النظيفة الصالحة الطائعة لله التي تتقيه في حكمها بين الناس. وأن ابتعاد المؤمنين عن الخطايا والذنوب هو الذي يقربهم من الله تبارك وتعالى ويؤهلهم للتوفيق ولأن يجري الله على أيديهم النصر، وأن ذلك ليبعث في المجتمع طمأنينة وأمناً.

● روى ابن ماجة بسنده عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مَنْ أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب».

٤- وعلي الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يعلموا الناس أن من وقع منهم في شيء من هذه الخطايا والذنوب فإن الله تبارك وتعالى قد فتح أمامه باب التوبة رحمة به وبالناس، فليبادر إليها توبة نصوحا يصحبها ندم واستغفار ورد للمظالم.

● روى ابن ماجة بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كفارات الخطايا إسباغ الوضوء على المكاره، وإعمال الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة».

الآيتان الرابعة والخامسة

في عقوبة الذين يقذفون المحصنات المؤمنات

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

■ توضح الآيتان الكريمتان الاحكام الشرعية التي تتعلق بمن يقذف محصنة من النساء، ويدخل فيه المحصن من الرجال، والقذف رمي بسبة الزنا ونحوه، كما تحدد الآية ظروف كذب القاذف وتبين العقوبات التي يجب ان توقع عليه ومتى تقبل توبته.

وكل ذلك لتطهير المجتمع من الفحش والبذاءة ورمي الناس بالتهم بالباطل.

■ والآيتان الكريمتان تشتملان على أكثر من خبر، وفيها أمر ونهي واستثناء.

ولبيان ذلك نقول والله المستعان:

أما الاخبار في الآيتين فهي:

● إخبار الله تبارك وتعالى رسوله والمؤمنين بالحكم الشرعي الذي يطبق على من رمي المحصنات بالزنا ونحوه، ويدخل من رمى رجلا بالزنا ونحوه كذلك.

● وإخبار منه تعالى بأن هؤلاء القاذفين لا يعفيهم من إقامة الحد عليهم إلا ان يأتوا بأربعة شهداء عدول يصدقون القاذفين في دعواهم، وهيهات ان يجد القاذف لغيره بالزنا هؤلاء الشهود الأربعة الذين عاينوا عملية الزنا.

● وإخبار من الله تبارك وتعالى باعتبار هؤلاء القاذفين الذين لم يأتوا بأربعة شهداء باستحقاقهم عقوبة حد القذف. واعتبارهم فاسقين بعد إقامة الحد عليهم، ويترتب على تفسيقهم رفض قبول شهادتهم.

● وإخبار منه سبحانه وتعالى بانه يقبل توبة من تاب من هؤلاء القاذفين بشرط أن يتوب ويصلح على نحو ما سنبين ذلك في حينه بإذنه تبارك وتعالى.

● وإخبار منه جل شانه بانه غفور رحيم.

– وأما الأمر فهو أمر موجه إلى حاكم المسلمين يوجب عليه أن يقيم على القاذف حد القذف وهو ضربه ثمانين جلدة - على نحو ما بينا في الجلد آنفا.

– وأما النهي فهو نهي الله تبارك وتعالى الحاكم والقضاة وكل ولي للأمر بان يسقط شهادة من اقيم عليه حد القذف.

– وأما الاستثناء فهو موجه إلى الحاكم وإلى الناس عموما، وهو أن الله تبارك وتعالى استثنى في رفض قبول شهادة من أقيم عليه حد القذف من تاب وأصلح منهم، فهذا تقبل شهادته بعد التوبة، لأن الله تعالى غفور رحيم.

■ وقد أوضحت الآيتان الكريمتان ثلاثة أحكام شرعية هي:

● حكم الرمي أو القذف أو الإيذاء.

● وحكم الرامي.

● وحكم المرمي.

ولبيان هذه الأحكام نقول:

● أما حكم الرمي:

فهو الجلد ثمانين جلدة إذا لم يأت على قذفه بأربعة شهداء.

والرمي هو سب المحصنة بألفاظ الزنا صراحة أو كناية، فالصريح من الألفاظ أن يقول لها أو عنها: زانية أو نحو ذلك، والكناية أن يقوله لها أو عنها: فاجرة أو خبيثة أو بنت حرام أو لا ترد يَدَ لامسٍ ونحو لك من الألفاظ.

ويرى كثير من العلماء بالتأويل أن الرمي بهذه الألفاظ صريحة أو كناية كما

تكون موجهة للمرأة ويستحق قائلها العقاب، كذلك لو وجهت للرجل، لأن رمي الرجل بهذه التهم يستوجب العقاب كذلك.

وقالوا: مهما تعدد الرمي ـ القذف ـ فالعقوبة عليه واحدة لا تتعدد.

● وأما الرامي:

فيشترط فيه ـ حتى يقام عليه الحد إن عجز عن الإتيان بالشهود ـ أن يكون بالغا عاقلا، إذ لا مسئولية في الإسلام على الصبي أو المجنون لما ورد في السنة النبوية المطهرة.

فقد روى الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رفع القلم عن ثلاث: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يشب، وعن المعتوه حتى يعقل» ورواه ابن ماجة في سننه والحاكم في مستدركه وغيرهم من علماء الحديث.

فإن كان الرامي بالغا عاقلاولم يات بأربعة شهود أقيم عليه حد القذف وما يترتب عليه.

● وأما المرمي:

فهو في الأصل المحصنة بالزواج الصحيح، ويحمل عليها المحصن من الرجال. والإحصان يشمل المسلمة وغير المسلمة والحر والأمة، كما يدل على ذلك ظاهر الآية.

وللفقهاء شروط في الإحصان هي: الإسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا، غير أن ظاهر الآية أولى بالاتباع والآية جاءت مطلقة من اي قيد أو شرط، وذلك أدعى لتطهير المجتمع المسلم من هؤلاء الذين يرمون المحصنات، ويطلقون ألسنتهم في أعراض الناس.

● وحكم المرمي أن ينتصف له الشرع بعقاب من رماه، وأن ينال عند الله أجرا

بما ناله في الدنيا من أذى.

– وفي تطبيق حد القذف لا بد من مطالبة القاذف بان ياتي باربعة شهود يشهدون بصدق ما قال، وعلى هؤلاء الشهود أن يذكروا الزاني والزانية بالاسماء وبالوصف الدقيق، وأنهم قد رأوا فعل الزنا رأى العين دون لبس أو إيهام.

فإن لم يستطع القاذف أن ياتي بهؤلاء الشهود كان مدعيا بغير بينة، يقام عليه حينئذ حد القذف ثمانين جلدة وهذه إحدى عقوبات القذف.

والعقوبة الثانية للقاذف الذي عجز عن الإتيان بأربعة شهود هي: رفض شهادته أمام القضاء وأمام المسلمين عموما، لانه لما رمى غيره ولم يستطع الإتيان بالشهود دل ذلك على تساهله فكان جديدا بان تسقط شهادته على التابيد أي في المستقبل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ وكلمة الأبد في اللغة تدل على المستقبل أي مدة أعمارهم مهما عاشوا، وتلك عقوبة وإن بدت صارمة إلا أنها الحل الأمثل لعلاج بذيء لم يتق الله في المسلمات والمسلمين، حتى لو كان قد تحقق من ثبوت التهمة التي رمى بها، ولكنه رأى الجريمة وحده، فإن أدب الإسلام كان يوجب عليه أن يستر على أعراض الناس.

● والعقوبة الثالثة للقاذف هي: تفسيقه أي اعتباره من الفاسقين، وذلك أنه رمى غيره بالزنا، والزنا كبيرة من الكبائر، ومن رمى بها غيره دون شهود فقد فسق عن أمر ربه، لأن الله أمر بالستر على الأعراض.

– وبعد تطبيق حد القذف وتوبة المقذوف تتولد أحكام أخرى نشير إليها هنا، وكلها تفهم من قوله سبحانه وتعالى: في الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهي ما يلي:

● أن يكون حد القذف قد أقيم عليه فعلاً، ثم تاب، وصورة التوبة كما ذهب إلى ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي حُدَّ فيه؛ حيث قال للذين شهدوا على المغيرة رضي الله عنه: من أكذب نفسه

أجزت شهادته فيما استقبل، ومن لم يفعل لم أجز شهادته فأكذب الشبل بن معبد ونافع بن الحارث بن كلدة أنفسهما وتابا، وأبى أبو بكرة أن يفعل فكان لا يقبل شهادته.

وقال بعض العلماء: توبته لا يشترط فيها أن يكذب نفسه، وإنما يكفي أن يندم، ويستغفر ويصلح حاله.

● فإذا تاب وأصلح كان لذلك النتائج الآتية:

– لم يحكم بفسقه بإجماع العلماء.

– وقبلت شهادته عند بعض العلماء، ولم تقبل عند بعضهم أبدا لنص الآية الكريمة ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾.

– روى الشعبي(١): أنه إذا تاب وظهرت توبته لم يُحدّ وقبلت شهادته وزال عنه الفسق، لأنه قد صار من يُرضَى من الشهداء، وقد قال عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾(٢).

– روى علماء أسباب النزول عن هاتين الآيتين ما يلي:

روى الواحدي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله تعالى:

(١) الشَّعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الحميري أبو عمرو (١٩– ١٠٢هـ) راوية حافظ للحديث تابعي جليل، ولد ونشأ بالكوفة، وكان سفير عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم، وكان يضرب به المثل في الحفظ، قال هو عن نفسه في الحفظ عندما سئل عما بلغ حفظه: ما كتبت سوداء في بيضاء، ولا حدثني رجل بحديث إلا حفظته، وكان قاضيا لعمر بن عبد العزيز. وهو من رجال الحديث الثقات روى عن جمع غفير من الصحابة رضوان الله عليهم، وعن مشاهير التابعين وروى عنه عدد من التابعين، وجمهور كبير من العلماء، وكان فقيها شاعرا عده كثير من العلماء أعظم أهل زمانه.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٤٥٧١ ط الشعب. القاهرة دون تاريخ.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار: أهكذا أنزلت يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم؟ قالوا: يا رسول الله: إنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله إني أعلم أنها حق وأنها من عند الله، ولكني تعجبت أن لو وجدت لكاع(١) تفخذها رجل لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، فو الله إني لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، فما لبثوا إلا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية من أرضه عَشيًا، فوجد عند أهله رجلا، فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهجه حتى أصبح، وغدا إلى رسول الله ﷺ قال: يا رسول الله: إني جئت أهلي عشيا فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت بأذني، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به واشتد عليه، فقال: سعد بن عبادة: الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية، ويبطل شهادته في المسلمين، فقال: هلال: والله إني لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجا، فقال هلال،: يا رسول الله: إني قد أرى ما قد اشتد عليك مما جئت به، والله يعلم أني لصادق، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه، إذ نزل عليه الوحي - وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك في تربّد جلده - فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي، فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ...﴾ الآيات كلها، فسرّي عن رسول الله ﷺ. فقال أبشر يا هلال: قد كنت أرجو ذلك من ربي»(٢).

■ والمواقف التربوية العامة في الآيتين كثيرة نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلي:

١- أن كل إنسان في المجتمع المسلم يجب أن يكون عف اللسان متجنبا لإطلاق التهم على الناس، ما لم يملك دليلا على صدق ما يقول، وحتى عند وجود

---

(١) كلمة تقال في سب المرأة بالحمق واللوم، وهي هنا كناية عن تساهلها في الزنا.

(٢) الواحدي: أسباب النزول: ١٨١ ط الحلبي القاهرة. ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م. ط ثانية.

الدليل القاطع على صدقه، فإن الأفضل له تديناً وتقوى لله عز وجل أن يستر العرض.

● فقد روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة» وكلمة مسلم هنا تشمل الرجل والمرأة على السواء.

● وروى الطبراني في الأوسط[1] بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرى امرؤ مسلم من أخيه عورة فيستره إلا دخل الجنة» وهذا يعني أن سلوك الستر لعورات المسلين أقرب إلى الله سبحانه وأرضى له، وتلك هي أخلاق الإسلام.

٢- ونتعلم من الآيتين الكريمتين أن سلامة المجتمع المسلم من أولئك الذين يرمون الناس بغير دليل، توجب على المجتمع وعلى الحاكم أن يطالب أولئك القاذفين بشهود أربعة يؤكدون صدق ما قالوا في حق الآخرين، بشرط أن يكون هؤلاء الشهود عدولاً، وأن يكونوا قد عاينوا ما ردده القاذف من جريمة الزنا.

ومن تمام التحوط في حفظ أعراض الناس في المجتمع المسلم أن بعض العلماء يرون أن يقام حد القذف على هؤلاء الشهود إذا لم يتأكد صدقهم عند الإدلاء بالشهادة أو كانوا أقل من أربعة، وإن كان جمهور العلماء لا يرون أن يقام عليهم الحد.

٣- ونتعلم من الآيتين الكريمتين أن التشريع الإسلامي يعاقب من يرمي

(١) الطبراني هو: سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي (٢٦٠ - ٣٦٠هـ) من كبار المحدثين أصله من طبرية الشام، له ثلاثة معاجم في الحديث النبوي الشريف:
- المعجم الصغير.
- والمعجم الأوسط.
- والمعجم الكبير، وكلها مطبوعة باستثناء بعض أجزاء من المعجم الكبير.

المسلمين والمسلمات بالتهم الباطلة وخصوصا تهمة الزنا عقوبات رادعة، بضربه ثمانين جلدة وعدم قبول شهادته واعتباره فاسقا.

وما ذلك إلا لحماية المجتمع من غير الأتقياء الذين يسارعون في اتهام الناس دون أدلة صحيحة، ويتركون ما أمرهم الله من ستر عورات المسلمين.

وأن يظل هؤلاء الذين أقيم عليهم حد القذف ساقطي الشهادة معدودين من الفساق إلى أن يتوبوا ويصلحوا من أمور أنفسهم بتلك التوبة التي تحدثنا عنها آنفا.

ومعنى ذلك أن المجتمع المسلم بنظمه وقوانينه وآدابه إنما يحاصر المخطئين اجتماعيا وماديا ومعنويا بعد إنزال العقوبة البدنية بهم حتى يتوبوا وينصلح حالهم، ويطهر المجتمع من الفحش والبذاء.

٤- ويتعلم المسلمون من هاتين الآيتين الكريمتين أن باب التوبة من المعاصي والأخطاء والذنوب جميعا مفتوح دائما وأن الله تبارك وتعالى قال في كتابه الكريم: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، وقال جل شانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨]

● روى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فتفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح».

● وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

● قال العلماء: وللتوبة ثلاثة شروط: أحدها أن يقلع عن المعصية، والثاني أن يندم على فعلها، والثالث أن يعزم على أن لا يعود إليها أبدا.

فإن كانت المعصية التي يتوب عنها متعلقة بحقوق العباد كان من تمام التوبة رد الحقوق إلى أصحابها.

وفتح باب التوبة أمام المخطئين وفرح الله سبحانه وتعالى بذلك له دلالات تستحق التأمل والتدبر، ومن هذه الدلالات:

● رحمة الله الواسعة بعباده.

● وواقعية منهج الإسلام واعترافه بقصور الإنسان وخطئه.

● ورفض لفكرة الخطيئة المؤدية إلى اللعنة.

● ورفض لفكرة الخطيئة الموروثة.

● ورفض لفكرة أن يتحمل أحد خطيئة أحد.

وكل ذلك يدل على تمام منهج الإسلام وكماله.

■ والمواقف التربوية التي تتعلم من الآيتين الكريمتين في مجال الدعوة والحركة كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- يتعلم الدعاة والعاملون في مجال الحركة الإسلامية من هاتين الآيتين، وعليهم أن يعلموا الناس ويبصروهم بأن انطلاق اللسان برمي الناس والبذاءة معهم، وانشغال القلب بالظنون السيئة في الناس والإسراع باتهامهم كل ذلك من عمل الشيطان، وأن ذلك يؤدي إلى زعزعة الإيمان بالله، واهتزاز الثقة في الناس، وبث الكراهية والأحقاد بينهم، وكل ذلك يفضي إلى شر مستطير.

وأن علاج ذلك كله في عصمة اللسان من الزلل وعصمة القلب عن سوء الظن، وأن ستر عورات الناس أقرب إلى رضا الله، وأولى بالمؤمنين.

إن عصمة اللسان عن الخوض في أعراض الناس مطلب شرعي دعت إليه شريعة الإسلام.

● روى البخاري بسنده عن أبي موسي رضى الله عنه قال: قالت يا رسول الله أي المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده».

● وروى الترمذي بسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: لقد سالت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسّره الله تعالى عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة... الحديث وفي آخره قوله ﷺ: «الا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه قال: كُفَّ عليك هذا، قلت يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: ثكلتك أمك، هل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد السنتهم».

وإن عصمة القلب عن سوء الظن بالمسلمين مطلب شرعي كذلك، فقد نهى الله سبحانه عن سوء الظن بالمسلمين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

● وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن اكذب الحديث».

بهذا يتنقّى المجتمع المسلم من البذاءة والفواحش.

٢- وعلى الدعاة إلى الله أن يتعلموا من الآيتين ويعلموا الناس أن الشهادة على الحقوق لإثباتها أو نفيها نوع من العبادة. وأن من طلب منه أن يؤدي شهادة، فليشهد بما علم، وإلا كان كاتما للشهادة، وكان آثما، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

ولتكن الشهادة لإحقاق الحق أو إبطال الباطل، ولتكن بما رأى الإنسان رأي العين في مثل هذه الجرائم التي تحدثت عنها هاتان الآيتان الكريمتان، لأن ذلك التدقيق في الشهادة هو الذي يحمي أعراض الناس ويصلح المجتمع، ويملأ نفوس الناس أمنا وأمانا، والبديل عن ذلك أن يخوض القاذفون في أعراض الناس وأن

يضطرب المجتمع بإشاعة قالات السوء.

٣- وأن يتعلم الدعاة ويعلموا الناس أن إطلاق التهم على الناس وكبير الجرائم كالزنا ونحوه، خطأ يقع فيه أشرار الناس الذين لا يتقون الله، ولا يتأدبون بأدب الإسلام في الستر على عورات الناس.

ومن أجل هذه كان واجب الدعاة والحركيين أن يبصروا الناس بأحكام القذف، وعقوباته الرادعة، جَلْداً وإسقاطاً للشهادة وتفسيقاً، وفي هذه العقوبات نكال في الدنيا فضلا عما ينتظر هؤلاء من عذاب الآخرة، وحسب القاذف إضرارا بنفسه أنه خاض في عرض مسلمة أو مسلم ثم لم يجد شهوداً فتبين كذبه فأقيم عليه الحد وسقطت شهادته وعد من الفاسقين.

إن العمل من أجل الإسلام في مجالي الدعوة والحركة كثيرا ما يطلع الدعاة على أناس مضللين يطلقون التهم على غيرهم جزافا، وهؤلاء لو بُصروا بوخيم هذه العواقب ربما أصابهم الرعب والهلع خشية أن تنالهم عقوبات رمي المسلمات والمسلمين بجريمة الزنا أو نحوها.

٤- وعليهم أن يبصروا الناس بأن الخطأ الذي تعقبه توبة يغفره الله ويتجاوز عنه، بل يفرح بالتائب كما ذكرنا في الحديث النبوي الشريف، وأن رحمة الله تتسع لكل من تاب توبة نصوحا.

* * *

الآيات من السادسة إلى العاشرة

في حكم اللعان

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾.

■ هذه الآيات الكريمة تتحدث عن اللعان بين الزوجين، وتوضح أن الزوج إذا رمىٰ زوجته بالزنا، ولم يجد على ذلك شهودا أربعة فإن المخرج له ولزوجته من هذه التهمة أن يقسم هو أربعة أيمان بالله ـ سميت شهادات ـ على أنه من الصادقين في اتهامه زوجته بالزنا، ثم يقسم يمينا خامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين في اتهامه إياها بالزنا.

أما الزوجة المتهمة بالزنا فالأصل أن يقام عليها حد الزنا، ولكنها تعفى من إقامة حد الزنا عليها إذا هي أقسمت بالله أربع مرات أن زوجها كاذب فيما ادعاه عليها، ثم تقسم يمينا خامسة أن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين في اتهامه إياها بالزنا، وتوضح الآية أن هذا التشريع «اللعان» من فضل الله على المسلمين ولولاه لوقع المسلمون في شر وضرر.

وهذه الآيات الكريمة تتمم أحكام القذف والرمي بالزنا حيث كانت الآيتان السابقتان في حكم من قذف أجنبية بهذه التهمة، وهذه الآيات في حكم من قذف زوجته بهذ التهمة، ولم يجد الشهود العدول الأربعة.

■ والآيات الكريمة تتضمن خبرين يحملان حكم اللعان، وفيهما أسلوب شرط حذف جوابه لعلة بلاغية، وبيان ذلك فيما يلي:

– أما الخبران اللذان تضمنا أحكام اللعان فهما:

● الخبر الأول:

في الآيتين السادسة والسابعة. وهو إخبار النبي ﷺ والمسلمين بأن الله تعالى شرع نظاما يتعامل به الزوجان إذا اتهم الرجل زوجته بالزنا ولم يجد شهوداً عدولا يؤيدونه في دعواه.

وهذا النظام هو: «اللعان» واللعان مشتق من اللعن لأن كل واحد من الزوجين يلعن نفسه في اليمين الخامسة إن كان كاذبا وقال بعض العلماء: سمي لعانا لأن الزوجين لا ينفكان من أن يكون أحدهما كاذبا فتحصل اللعنة عليه وهي الطرد والإبعاد.

وهاتان الآيتان السادسة والسابعة توضحان ما يجب على الزوج في هذ الحالة - حالة رميه زوجته بالزنا دون شهود أربعة - وهو أن يقسم أربع مرّات أنه صادق في دعواه، ثم يقسم يمينا خامسة بأنه يستحق لعن الله إن كان كاذبا في دعواه.

● والخبر الآخر:

في الآيتين الثامنة والتاسعة، حيث توضحان موقف الزوجة التي اتهمها زوجها بالزنا ولم يكن له شهداء، وهو أن تحلف أربع مرات أن زوجها كاذب فيما ادعى عليها، ثم تحلف يمينا خامسة تقول فيها: إن غضب الله عليها إن كان زوجها صادقا فيما يدعيه عليها من تهمة الزنا.

وإذا حلف كل من الزوجين، سقط عن الرجل حد القذف وسقط عن المرأة حد الرجم. وتترتب على ذلك نتائج أخرى سوف نوضحها فيما يلي:

● التفريق بين الزوجين بعد اللعان دون حاجة إلى طلاق.

● ونفي الولد إن جاءت به الزوجة المتهمة.

● والتحريم المؤبد للزواج بين الزوجين حتى لو نكحت زوجا غيره في رأي جمهور العلماء، فقد روى الدارقطني بسنده مرفوعا عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المتلاعنان إذا افترقا لا يجتمعان أبدا».

● ولا يتوارث المتلاعنان.

● ووجوب إقامة الحد على الناكل منهما أي الممتنع من أن يقسم الأقسام التي ذكرت في الآيات الكريمة. فإن نكلا كلاهما أقيم عليهما الحد.

– ومن شروط اللعان ما يلي:

● أن تكون تهمة الزنا موجهة إلى زوجته دخل بها أم لم يدخل.

● وأن يعجز عن الإتيان بأربعة شهداء.

● وأن يكون اللعان بالألفاظ التي وردت في القرآن: أربع شهادات... والخامسة...

● وأن يكون التلاعن في جمع من الناس أربعة فصاعدا.

وزاد بعض العلماء:

● أن يكون التلاعن في أشرف مكان وهو المساجد.

● وأن يكون بعد صلاة العصر.

● وأن يتولى تنفيذ اللعان الحاكم أو من ينيبه.

– وأما أسلوب الشرط المحذوف الجواب فهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾.

● فأداة الشرط: لولا وهي حرف امتناع لوجود، أي يمتنع جوابها لوجود شرطها.

● وفعل الشرط مقدر يفهم من سياق الكلام تقديره: ولولا وجد فضل الله عليكم لرحمته.

● وجواب الشرط محذوف يفهم من سياق الكلام تقديره: لوقع بكم الشر والضرر والتعادي وتكالب بعضكم على بعض.

والمعنى العام لأسلوب الشرط هو: ولولا وجد فضل الله عليكم بهذا التشريع الخاص باللعان لوقعتم في حرج من أمركم وتعاديتم، أي أن الزوج إذا سكت على ما رأى سكت على غيظ وكراهية، وإذا تكلم ولم يؤيده شهود أقيم عليه الحد، وإن قتل من رآه يزني بامرأته قتل به، كما ورد ذلك على لسان أحد الصحابة رضي الله عنهم كما سنذكر بعد قليل.

وحذف هذا الجواب في أسلوب الشرط له هدف بلاغي هو التهويل والتعظيم لما يمكن أن يحدث لولا تشريع اللعان.

- ويروي علماء أسباب النزول في نزول هذه الآيات ما يلي:

● روى أبو داود بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن السحماء - والسحماء أمه، وأبوه هو عبدة بن الجد العجلاني - فقال النبي ﷺ: «البيّنة أو حدٌّ في ظهرك» قال: يا رسول الله، إذا رأى أحدنا رجلا على امرأته، يلتمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة أو حد في ظهرك» فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله في أمري ما يبرئ ظهري من الحد، فنزلت: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ ﴾. فقرأ حتى بلغ ﴿ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾.

• وقال بعض العلماء إن القاذف لزوجته هو عويمر بن زيد وليس هلال بن أمية.

ومن هؤلاء العلماء الطبري حيث قال: «... وإنما القاذف عويمر بن زيد بن الجد بن العجلاني، شهد أحداً مع النبي ﷺ، وما هو بشريك بن السحماء، والسحماء أمه - وقيل لها ذلك لسوادها - وهو ابن عبدة بن الجد بن العجلاني، كذلك كان يقول أهل الأخبار».

ومن هؤلاء العلماء الكلبي:

قال الكلبي: والأظهر أن الذي وجد مع امرأته شريكا هو عويمر العجلاني لكثرة ما روي أن النبي ﷺ لاعَنَ بين العجلاني وامرأته.

واتفقوا على أن الزاني هو شريك بن عبدة وأمه السحماء، وكان عويمر وخولة بنت قيس - زوجته التي اتهمها - وشريك، بني عم عاصم بن عدي، وكانت هذه القصة في شعبان سنة تسعين من الهجرة منصرف رسول الله ﷺ من تبوك إلى المدينة، قاله الطبري.

وروى الدارقطني بسنده عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال: حضرتُ رسول الله ﷺ حين لاعن بين عويمر العجلاني وامرأته، ومرجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، وأنكر حملها الذي في بطنها وقال هو لابن السحماء، فقال له رسول الله ﷺ: «هات امرأتك فقد نزل القرآن فيكما فلاعن بينهما بعد العصر عند المنبر على حمل (قطيفة).

• وقال الواحدي: بسنده عن علقمة عن عبد الله قال: إنا ليلة الجمعة في المسجد إذ دخل رجل من الأنصار فقال: لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا، فإن تكلم جلدتموه وإن قتل قتلتموه، وإن سكت سكت على غيظ، والله لأسألن رسول الله ﷺ عنه، فلما كان من الغد أتى رسول الله ﷺ فسأله فقال: لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فتكلم جلدتموه أو قتل قتلتموه، أو سكت سكت على غيظ. فقال:

اللّهم افتح، وجعل يدعو فنزلت آية اللعان ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ ﴾ فابتلى به الرجل من بين الناس فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ فتلاعنا، فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فذهبت لتلتعن، فقال رسول الله ﷺ: مَه. فلعنت، فلم أدبرت قال: لعلها أن تجيء به أسود جعداً، فجاءت به أسود جعداً. ورواه مسلم بسنده عن أبي خيثمة(١).

■ والمواقف التربوية العامة في الآيات الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يلي:

١- أن الشريعة الإسلامية وضعت لكل مشكلة حلا، ولكل احتمال يعرض للإنسان في حياته الاجتماعية نظاما، وحرمت بتشريعاتها على أن تحفظ المجتمع من أسباب العداوة والخصام والشر والفساد.

وأقامت الشريعة نظام الأسرة على العفة والطهارة، والعلاقة بين الزوجين على أساس من الوضوح والصدق والمودة والرحمة، وكلما اتسعت دائرة الأسرة فدخل فيها الأبناء والوالدان والإخوة والأخوات وسائر الأقارب والأرحام كلما دققت الشريعة في القيم التي يجب أن تقوم عليها هذه العلاقات.

وعمود الأسرة وركنها الركين هما الزوج والزوجة، فإذا حدث بين الزوجين ما يحتمل أن يحدث من توجيه الزوج تهمة الزنا لزوجته ولا يملك على ذلك شهودا إلا نفسه، فإن الشريعة تضع لذلك حلا هو التلاعن بين الزوجين على النحو الذي أوضحناه آنفا.

وهذا اللعان وإن أدى إلى الفرقة بين الزوجين إلا أنه حل يخلص البيت من الريبة والشكوك واستحاله الاستمرار في حياة زوجية قائمة على الاتهام والكراهية.

---

(١) أبو خيثمة هو زهير بن حرب النسائي البغدادي (١٦٠- ٢٣٤هـ) محدّث بغداد في عصره وأصله من نسا ولكن شهرته ببغداد ولقد أكثر الإمام مسلم (٢٠٤- ٢٦١هـ) من الرواية عنه ثقة فيه في أمانته وحفظه وضبطه.

وليست التفرقة بين الزوجين في حالة اللعان ظلم لأي من الزوجين وإنما هي عدالة وإنصاف وإحسان.

فهو وإن خسر حياته الزوجية ، وهي وإن خسرت حقوقها من نفقة ومتعة وغيرها إلا أن ذلك هو العدل والإنصاف.

٢- وإن الزوجة التي لاعنت لم يقع عليها ظلم على الرغم من كل ما يترتب على اللعان من آثار، وذلك أن زوجها رآها على هذه الجريمة الكبرى الزنا ولكنه لم يجد من الشهداء من يؤيدون اتهامه لها، فكان لا بد أن تنفصل هذه الحياة الزوجية باللعان وأن تدفع الزوجة الزانية ثمنا لجريمتها الفاحشة التي اعتدت بها على حدود الله وحق الزوج والأبناء وحق المجتمع كله، بل اعتدت على نفسها، وكل ذلك يستوجب أن تحرم من حقوق المطلقة وأن ينفي نسب ولدها، والا تعود لعصمة زوجها الذي اتهمها مرة أخرى.

وعلى الرغم من ذلك كله فإنها كسبت حياتها ونجت من الموت رجما بالحجارة، لعلها أن تتوب وتستغفر فيما يستقبلها من أيام.

٣ - ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة ان الله تبارك وتعالى يقبل التوبة من عباده إذا تابوا نادمين مقلعين عما ارتكبوا من أخطاء، وفي قبوله سبحانه وتعالى للتوبة حكمة عظيمة يمكن أن ندرك بعض أبعادها فيما يلي:

أ - استحياء الملاعنة بعد أن كان حدها الموت رجما.

ب - واستصلاح أمر الزوجين بالتفريق بينهما.

ج - واستفادة الزوج الملاعن، سقوط حد القذف عنه وبقاء اعتباره بقبول شهادته، وعدم تفسيقه.

د - وردع لكل زوجة تحدثها نفسها أو يسول لها شيطانها ارتكاب هذه الجريمة الفاحشة.

هـ – وإنهاء العلاقة الزوجية التي دخلها الشك والاتهام إنهاء يريح الطرفين ويحفظ لكل منهما حقوقه أمام المجتمع في العيش موفور الإنسانية والكرامة ما دام قد قبل حكم الله ونظامه وشارك في الملاعنة، وبذلك لا يجوز لأحد أن يحقر هذه الملاعنة أو يعيرها بأنها اتهمت بالزنا، وكل ذلك من عظمة التشريع وواقعيته وقدرته على حل جميع المشكلات في البيت المسلم، ومواجهة كل الاتهامات.

■ والمواقف التربوية في مجال الدعوة والحركة في هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلي:

١ – أنّ المجتمع المسلم مجتمع منضبط يجب أن يخلو من التهمة والريبة، ومن الكلمة غير المسئولة التي تجرح هذا أو تتهم هذه أو تشيع قالات السوء هنا وهناك.

ومن علامات ضبط التشريع الإسلامي للمجتمع أن كل كلمة تصدر من متكلم وتمسّ غيره بضرر، لا بد لها ولصاحبها من حساب وعقاب إذ من المسلمات في شريعة الإسلام أن الإنسان مؤاخذ بما يتكلم به، مؤاخذة دنيوية ببعض الحدود إذا بلغت الكلمة حد تناول الأعراض، ومؤاخذة أخروية يفعل الله سبحانه فيها ما يشاء.

فلقد روى الترمذي بسنده عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ وقد سأله عن العمل الذي يدخله الجنة: «... ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله، قلت: بلى يا رسول الله، قال: «فأخذ بلسانه، قال: كف عليك هنا، فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به، قال: ثكلتك أمك يا معاذ!!!

وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم» ورواه أحمد، وابن ماجة، والحاكم، والبيهقي، وزاد البيهقي: «إنك لن تزال سالما ما سكتّ، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك».

إن المجتمع المسلم له تشريعات إنسانية حكمية تحفظ على الإنسان عرضه

وكرامته، وتحاسب على التلفظ بالكلمة إن تعرضت لعرض الإنسان أو شرفه، إنه المجتمع الذي حظي بتشريع الله له ما يحفظ عليه دينه ودنياه.

٢- وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية إن يبصروا الناس بأحكام الإسلام في حماية الأخلاق والآداب، وحماية الأموال والأعراض والأنساب، وهذا واجب الدعاة حتى تنتشر في المسلمين الثقافة الفقهية الإسلامية، لأن هذه الثقافة من أهم مقومات الشخصية الإسلامية ومن أهم روافد الحضارة الإسلامية.

وعلى سبيل المثال فكم عدد المسلمين - غير المتخصصين في علوم الإسلام - الذي يعرفون ما يلزم من الأحكام الشرعية في المجالات التالية:

- نظام اللعان الذي نحن بصدد توضيحه في هذه الآيات الكريمة.
- ونظام الظهار عندما يقول زوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، أو نحو ذلك.
- ونظام الطلاق الشرعي.
- ونظام الخلع.
- ونظام الإيلاء. وغيرها من النظم التي تتصل كلها بالأسرة عموما وبالعلاقة الزوجية على وجه الخصوص.

كم عدد الناس اليوم الذين يعرفون اللعان أو يتهمون زوجاتهم بالزنا وليس لهم شهادة إلا أنفسهم، ومن هو الحاكم الذي يفرق بينهم بعد التلاعن؟

إن هذه التوعية بتلك الأحكام الشرعية هي مهمة الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية، حيث يعرف الناس هذه الأحكام الحكيمة فيدركون أن التشريع الإسلامي قد نظم لهم حياتهم العائلية والاجتماعية نظاما يحقق الأمن والأمان للحاضر والمستقبل، ويقيم أكبر وزن للعفة في كل مجالاتها، حتى عفة اللسان عن النطق بالكلمات البذيئة، فضلا عن عفة اليد وسائر الجوارح، وعفة الفرج.

٣- وعلى الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يبصروا المدعويين، أن تعامل الله معهم وتعامل الدين الحنيف وتعامل الدعاة ورثة الأنبياء مبني على أساس التسامح والصفح وإفساح الفرصة للتوبة والإنابة، التوبة بشروطها التي تحدثنا عنها آنفا، وذلك من منطلق أن الله تبارك وتعالى تواب حكيم، يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، بل يفرح بتوبة عباده على نحو ما أوضحنا سابقا.

ومن المعروف أن حقل العمل الإسلامي والعاملين فيه سواء في مجال الدعوة أو الحركة أو التربية أو التنظيم ذلك كله، لا بد أن يتعرض فيه العاملون لأخطاء وأن تصدر عنهم تجاوزات وسلبيات ليست بالقليلة.

وأن على الدعاة والعاملين في حقل الدعوة والحركة أن يتعاملوا معهم باللطف والعفو والتسامح، ولا مجال مع هذه المعاملة للعتاب أو الحساب أو التأنيب والزجر، فإن أسلوب العتاب والحساب.. غير تربوي، إذ قد يؤدي بمن أخطأ إلى الانكسار والانسحاب وربما فقد الثقة في النفس وفي القيادة، بل ربما أدى إلى ما هو أكثر من ذلك.

وللدعاة والحركيين في ذلك الأسوة الحسنة من رسول الله ﷺ:

- فقد روى الأصبهاني(١) بسنده عن الحسن البصري في قوله عز وجل: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] قال هذا خلق محمد ﷺ، نعته الله عز وجل.

- وروى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله».

- وروى الإمام مسلم بسنده عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت

---

(١) أبو الشيخ الأصبهاني: أخلاق النبي ﷺ وآدابه: ٢٠ ط مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٢م.

رسول الله ﷺ: «مَنْ يحرم الرفق يحرم الخير كله».

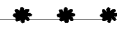
● وروى الترمذي بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الا أخبركم على من تحرم عليه النار - أو بمن تحرم عليه النار -؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل».

● وروى أبو الشيخ الأصبهاني بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خدمت رسول الله ﷺ تسع سنين فما أعلمه قال لي قط: هلاَّ فعلت كذا وكذا، ولا عاب عليَّ شيئا قط».

● وروى مالك بن أنس بسنده عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جعل يقبض للناس يوم حنين من فضة في ثوب بلال، فقال له رجل: يا نبي الله، اعدل، فقال النبي ﷺ: ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل؟ فقد خبتُ إذن وخسرتُ إن كنت لا أعدل، فقام عمر فقال: ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟ فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي».

● وروى أبو الشيخ الأصبهاني بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر».

هذا خلق رسول الله ﷺ وذاك أدبه مع الناس ولنا فيه أسوة حسنة.



الآيات من الحادية عشرة إلى العشرين

في تطهير المجتمع من أحاديث الإفك

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

■ هذه الآيات الكريمة التي ذكرت قصة حديث الإفك توضح للمسلمين أحكاما وآدابا عظيمة، وتحقق في المجتمع المسلم أهدافا عديدة نذكر منها ما يلي:

أ – تطهير المجتمع المسلم من قالات السوء واتهام الناس بالباطل.

ب – وتوجيه المسلمين نحو موقف اجتماعي راشد يحفظ على الناس أعراضهم، ويعلم الآخرين عفة القول وحفظ اللسان من زلل يوجب العقاب.

ج – ولفت أنظار المسلمين إلى أن حديث الإفك لم يكن شرا كله، وإنما فيه خير للمسلمين - على نحو ما سنوضح بإذن الله تعالى.

د – وتعليم للمسلمين ألا يقبلوا قالات السوء من أحد في أحد، إذ الأصل في المسلم أن يظن الخير في سائر المسلمين والمسلمات.

هـ – وتعليمهم أن رمي الناس بالتهم إفك وكذب، وما لم يؤكده شهود أربعة عدول وجب عقاب من اتهم الناس في أعراضهم، واعتبروا كذبة عند الله.

و – وأن فضل الله ورحمته بالمؤمنين الذين تلقوا هذا الإفك حالت بينهم وبين أن يحل بهم عذاب عظيم.

ز – وتعليمهم أدب الإسلام عند الاستماع لهذا الباطل أو نقله إلى الآخرين وهو أدب ﴿ مَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾.

ح – وفي الآيات تمييز للذين آمنوا من المنافقين الذين تولوا أمر هذا الإفك.

ط – وفتح باب التوبة أمام من أخطأ من المسلمين حين تقبل حديث الإفك من قائله.

ي – وتأكيد أن الذين يخوضون في أعراض الناس يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا وأنهم بذلك يستحقون عذاب الله في الدنيا بإقامة الحد عليهم ما لم يكن شهود ثم عذاب في الآخرة كذلك.

ك – وبيان أن هذا التشريع بإقامة حدود الله هو من فضل الله ورأفته بالناس، إذ يحفظ بهذا التشريع للناس أعراضهم، ويقوم به أولئك الذي يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

■ وفي الآيات الكريمة أكثر من خبر، ونهي وأكثر من أسلوب شرط، وتأكيد لبعض الحقائق، ولبيان ذلك نقول والله المستعان.

- إخبار من الله تبارك وتعالى للنبي ﷺ وللمجتمع المسلم كله بأن الذين جاءوا بحديث الإفك - والإفك الكذب والبهتان - هم جماعة قليلة من الناس، عبّرت عنهم الآية الكريمة بأنهم عصبة، تحقيرا لشانهم ولقالتهم، مع ان المجتمع كله يزكي من رميت بهذا الإفك وهي أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها.

وقصة حديث الإفك أو الكذب والبهتان كما روتها كتب السنة النبوية المطهرة معظمها، وفي مقدمتها صحيحا البخاري ومسلم هي كما نقلتها من رواية مسلم بسنده عن عائشة زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين رضي الله عنها، حين قال عنها أهل الإفك ما قالوا فبرأها في كتابه الكريم مما قالوا...

ذكروا أي الرواة من الصحابة وهم أربعة رضوان الله عليهم: ان عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا اراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة فاقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج فيه سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ. وذلك بعد ما انزل الحجاب. فانا أحمل في هودجي وانزل فيه مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه وقفل راجعا ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقدي، من جزع ظفار - أي من خرز يمني من قرية ظفار - قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه، واقبل الرهط الذي كانوا يرحلون لي فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أني فيه - قالت وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يهبلن - أي يثقلن بالشحم واللحم - ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديث السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت ان القوم سيفقدونني فيرجعون إليّ.

فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتي عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس ـ أي نزل آخر الليل في السفر لنوم أو استراحة ـ من وراء الجيش فادّلج، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حيث رآني، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب عليّ، فاستيقظت باسترجاعه(١) حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي والله ما يكلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطى على يدها، فركبتها. فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين ـ بالغين ـ في نحر الظهيرة ـ أي وقت شدة الحر ـ فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كِبرَه عبد الله بن أبي بن سلول.

فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهرا، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أن لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم، فذاك يريبني ولا أشعر بالشر، حتى خرجتُ بعد ما نقهت وخرجتْ معي أم مسطح، قِبَل المناصع وهو متبرزنا ـ ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ـ وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمْرنا أمْر العرب الأُول في التنزه.

وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقتُ أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلتُ أنا وبنت أبي رهم قِبَلَ بيتي حتى فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها فَقالت: تَعِسَ مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلا قد شهد بدرا؟ قالت: يا هناه ـ أي يا هذه ـ أوَلم تسمعي ما قال؟

قلتُ وما الذي قال؟ قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضا إلى

---

(١) أي قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

مرصي، فلما رجعت إلي بيتي، فدخل عليّ رسول الله ﷺ، فسلّم ثم قال: كيف تيكم؟ قلت أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية هوني عليك، فقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثّرن عليها. قالت: سبحان الله وقد تحدث الناس بهذا، قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي.

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد، حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم نفسه لهم من الودّ، فقال: يا رسول الله: هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا، وأما علي بن طالب فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك من عائشة، قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكل، قالت فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعذر من عبد الله بن أُبي بن سلول، قال: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يَعْذِرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذرك فيه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك.

قالت: فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزوج ـ وكان رجلا صالحا، ولكن اجتهلته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله.

فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة، كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيّان الأوس والخزرج حتى

هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

قالت: وبكيت يومي ذالك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبوي يظنان أن البكاء فالق كبدي، فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، استأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي.

قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس.

قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني بشيء.

قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه.

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي، حتى ما أحسّ منه قطرة فقلت لأبي: أجبْ رسول الله ﷺ فيما قال، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟

قلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ؟

فقلت ـ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن ـ: إني والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، فإن قلت لكم إني بريئة ـ والله يعلم أني بريئة ـ لا تصدقوني بذلك. ولئن اعترفت لك بأمر ـ والله يعلم أني بريئة لتصدقوني، وإني والله لا أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن يُنزَل في شأني وَحْيٌ يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل فيّ بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قال: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل عز وجل على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء - الشدة - عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الثاني من ثقل القول الذي أنزل عليه.

قالت: فلما سُرّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: أبشري يا عائشة: أمّا الله فقد بَرّأك، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي.

فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ... ﴾ عشر آيات فأنزل الله عز وجل في هؤلاء الآيات براءتي.

قالت: فقال أبو بكر: وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره، والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ ﴾ إلى قوله ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ فقال: أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبدا.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري: ما علمت أو ما رأيت؟ فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيرا.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها فهلكت فيمن هلك.

قال عروة بن الزبير ـ وهو أحد رواة الحديث، وكانت عائشة خالته ـ (رضي الله عنهم جميعا):

قالت عائشة: والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ـ تقصد صفوان بن المعطل الذي حملها إلى الجيش ولم يكلمها ـ ليقول: سبحان الله، فوالذي نفسي بيده ما كشفت عن كنف أنثى قط، قالت: ثم قتل شهيدا في سبيل الله».

وصفوان رضي الله عنه ممن شهد بدرا.

— وإخبار من الله تعالى: بأن حديث الإفك ليس شرا كله للمجتمع المسلم، وإنما هو خير لهذا المجتمع على ما نوضح أنواع هذا الخير فيما يلي.

وفي معنى الخير والشر يقول أبو بكر بن العربي(١): حقيقة الخير ما زاد نفعه على ضره، وحقيقة الشر ما زاد ضره على نفعه، وإن خيراً لا شر فيه هو الجنة، وشرا لا خير فيه هو جهنم.

وقال المفسرون: إثبات أنه خير لهن، لأن فيه منافع كثيرة ذكروها منها ما يلي:

● بهذا الحديث والخوض فيه تميز المؤمنون الخلص عن المنافقين.

● وشرع الله لهم أحكاما تردع أهل الفسق.

● وبه ثبتت براءة الصالحات والصالحين.

● وازداد المنافقون غيظا، وأصبحوا محقرين مذمومين.

● وعرف المنافقون أنهم باختلاقهم هذا الباطل الذي أرادوا به أذى المسلمين،

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي المالكي أبو بكر (٤٦٨ـ ٥٤٣هـ) من حفاظ الحديث، بلغ رتبة الاجتهاد في الدين وصنف كتبا في الحديث والفقه والأصول والتفسير، وولي قضاء إشبيلية ومات قرب فاس وله مؤلفات منها أحكام القرآن، والعواصم من القواصم وعارضة الأحوذي في شرح الترمذي، والإنصاف في مسائل الخلاف (عشرون مجلدا) وغيرها.

لم يصلوا إلى غرضهم، بل كشفوا عن فساد طويتهم.

● وكان ذلك سببا في معجزه نزول هذه الآيات تنبئ بالغيب.

● وتحقيق ثواب الله وأجره لكل من أصابهم سوء هذه الافتراءات وهم الرسول ﷺ وزوجه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأبو بكر الصديق وزوجه أم عائشة، والصحابي الجليل صفوان بن المعطل رضي الله عنهم جميعا فقد كان حديث الإفك بلاء لهم ومحنة أثيبوا عليها.

● وأنه نزلت فيه آيات قرآنية كريمة فيها تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وشأن زوجته الطاهرة وتنزيه لهما رضي الله عنها.

● وتهويل لأمر من تكلم في هذا الباطل أو استمع إليه.

● وتعليم للمسلمين بوجوب حسن الظن في المسلمين والمسلمات.

● وتأكيد للمسلمين أنهم محاطون برحمة الله ومغفرته ورأفته ولولا ذلك لأصابهم شر كبير.

● وعدة ألطاف للسامعين والتالين لهذه الآيات الكريمة. إلى يوم القيامة.

– وإخبار من االله تعالى لنبيه وللمسلمين بأن الذي أشاعوا هذا الإفك واستمعوا له فوقعوا بذلك في المعصية والإثم يستحقون عقابا على آثامهم، وتوضيح أن الذي تولى كبر هذا الحديث الكاذب - وهو عبد الله بن أبي بن سلول - له عذاب عظيم. وقد تحقق هذا العذاب في الدنيا إذ مات على النفاق، وفي الآخرة إذ يحشر مع المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

– وإخبار منه تعالى بأن المطلوب من المسلمين حين يستمعون إلى هذه الافتراءات ألا يستمعوا إليها فضلا عن أن يصدقوها أو ينقلوها إلى غيرهم، لأن الأصل أن يظن المسلمون بأنفسهم خيرا وأن يدركوا بل يصرحوا بأن هذا الذي قيل هو كذب واضح مبين، وذلك في قوله سبحانه: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴾ وكلمة لولا هنا بمعنى هلاّ وهي تفيد هنا التوبيخ، لأنه قد جاء بعدها فعل ماضٍ هو: (ظنّ).

وقد كانت استجابة المسلمين لظن الخير في أنفسهم - أي في إخوانهم وأخواتهم من المسلمين سريعة وإيجابية، فقد رُوى أن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه لما بلغه خبر الإفك قال لزوجه: ألا ترين ما يقال؟

فقالت له: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءا؟

قال: لا.

قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك.

قال: نعم.

وفي هذا الحوار بين أبي أيوب وزوجته رضي الله عنهما دلالة على عمق إيمانهما وتواضعهما، وحسن تقديرهما للموقف، وعدم انخداعهما بما قيل. وهكذا يجب أن يتلقى المسلمون مثل هذه القالات بمثل هذا الإيمان.

– وإخبار من الله تعالى بأن من يقع في الخطأ بقذف المسلمين والمسلمات، عليهم أن يأتوا بأربعة شهداء يؤيدونهم فيما ادعوا فإذا لم يأتوا بهم فهم كاذبون يستحقون عقوبة القذف ثمانين جلدة ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ.. ﴾ الآية وهذا توبيخ لهم وزجر، لما خاضوا فيه من أعراض المسلمين والمسلمات دون شهود أربعة عدول، وما يترتب على استحقاقهم إقامة الحد عليهم ربما كان أشد من الجلد نفسه، هو وصفهم بالكذب ورفض قبول شهاداتهم وتفسيقهم، وحسبهم بذلك ضررا يعادل ضرر اتهام البرءاء وتشويه سمعتهم.

– وأما أسلوب الشرط ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وبيان ذلك أن لولا أداة شرط تفيد امتناع الجواب لوجود الشرط أي لولا وجود فضل الله عليكم لمسكم العذاب.

وفعل الشرط محذوف يفهم من سياق الكلام أي لولا وجد فضل الله عليكم..

وجواب الشرط: لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب أليم.

وهذا الأسلوب الشرطي يتضمن تقرير حقيقة تؤكد أن فضل الله على المؤمنين بتشريع الأحكام الرادعة وقبول توبة من تاب من الخائضين في الإفك لعاجلهم بالعقاب في الدنيا والآخرة ولكن فضل الله سبحانه وتعالى ورحمته هو الذي حال دون أن يقع بهم العذاب.

وهذه الآية عند بعض المفسّرين تخاطب المؤمنين دون رأس المنافقين عبد الله بن أُبي بي سلول، وتؤيد ما ذهب إليه أكثر الصحابة رضوان الله عليهم من أن النبي ﷺ لم يقم حد القذف على أحد من العصبة الذين تكلموا في الإفك، وهذا أصح الروايات لموافقة الظاهر لفظ الآية.

وقالوا: إن الحد لم يقم على أحد لأحد سببين:

- إمّا لعفو عائشة وصفوان رضي الله عنهما.
- وإما لأن كلامهم في الإفك كان سرا وتخافتا ولم يجهروا به وإنما أشاعوه في مجالسهم.

وقال بعض الصحابة: إن النبي ﷺ أقام الحد على حسّان بن ثابت، ومسطح ابن أثاثة، وحمنة بنت جحش، وقد نقل هذا القول: ابن إسحق[1] وجماعة.

أما عبد الله بن أُبي فقال جماعة: إنه لم يحد حد القذف تأليفا لقلبه للإيمان.

---

(١) هو محمد بن إسحاق بن يسار (٠٠٠-١٥١هـ) من أقدم مؤرخي العرب وهو مؤلف كتاب «السيرة النبوية» التي رواها عنه ابن هشام وكان من حفاظ الحديث زار الإسكندرية وسكن بغداد ومات بها قال عنه ابن حبّان: لم يكن أحد يقارب ابن إسحق في علمه...»

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ان أُبيًّا جُلد جلد القذف ايضا.

– وإخبار من الله تعالى لرسوله يتضمن توبيخ الخائضين في حديث الإفك وزجرهم، وتوضيح الأخطاء العديدة التي وقعوا فيها، وتوضيح دلالة هذه الأخطاء، وذلك في الآية الكريمة: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم...﴾ الآية.

وقد أخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية ان الذين خاضوا في الإفك او استمعوا إليه، قد ارتكبوا ثلاثة اخطاء او آثام هي:

● تلقي الإفك بالسنتهم، اي أن الواحد منهم كان يسمع الإفك، ثم يشيعه بلسانه في الناس، وهذا خطأ إذ كان الأولى ان يرفض الاستماع إليه، ويرفض إشاعته في الناس والتحدث به.

● وتكلمهم إذ أشاعوه بما لا علم لهم به، ولا مشاهدة، وقد نهى الله تبارك وتعالى عن ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

● وأنهم كانوا يستصغرون إشاعة هذا الإفك بينما هو عظيم عند الله، وعظيم في واقع الأمر، وإنما كان عظيما خطيرا لما فيه من خوض في أعراض المسلمين والمسلمات.

وهذه الأخطاء أو الآثام الثلاثة وما جاء فيها من أحكام، تقدم لنا دلالات وتشريعات اجتماعية أساسية في بناء المجتمع المسلم، ومن ذلك ما يلي:

● أن قذف المؤمنين والمؤمنات من الكبائر، بدليل وصف الله له بانه ﴿عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وأي كبيرة أكبر من انتهاك ما هو عظيم عند الله تعالى. وعقاب الكبيرة معروف في الشريعة الإسلامية، لكن باب التوبة عنها مفتوح أمام التائب بفضل الله تعالى.

● وأن المعصية العظيمة الكبيرة لا يقلل من شان كبرها وبشاعتها، أن يتصور مرتكبها أنها هينة أو يسيرة، لأن المعايير الدقيقة لها هي اعتبار الله سبحانه لها، وقد

جعلها الله سبحانه كبيرة، لما لها من أسوأ الآثار في تهديد أمن المجتمع بالخوض في أعراضه.

● وأن كل مسلم يجب أن يستعظم الإقدام على أي محرم أو مكروه، أما المحرم فكبيرة، وأما المكروه فإنه وإن كان صغيرة إلا أنه قد يؤدي إلى كبيرة، فكان الامتناع عنه من الامتناع عن كل ما يؤدي إلى المحرم.

– وأسلوب شرط واضح في الآية الكريمة: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

وأداة الشرط: لولا وهي حرف امتناع لوجود كما أسلفنا.

وفعل الشرط: سمعتموه.

وجواب الشرط: قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا.

وهذه الآية الكريمة تعلم المسلمين أدب الحديث وأدب التحدث إلى الناس وأدب الاستماع.

فأدب الحديث ألا يقول الإنسان كلاما إلا إذا كان متأكدا منه واثقا في صحته، وإلا وقع في المحظور والحرام.

وأدب الحديث ألا يتحدث الإنسان إلى غيره بأي كلام يسيء إلى غيره من الناس.

وأدب الاستماع، وهو ألا يستمع الإنسان إلى باطل أو كذب أو بهتان.

وإنما أوجب الله على من يسمع الإفك أن يمتنع عن الاستماع فيه فضلا عن نقله أو إشاعته لأسباب عديدة نذكر منها يلي:

● أن الذين يستمعون إلى هذا الإفك مسلمون يستمعون إلى اتهام مسلمين، والمسلم له عاصم من دينه عن أن يتهمه أحد فضلا عن أن يعتدي عليه، والمسلم يلتزم بالامتناع عما حرم الله تبارك وتعالى، وقد حرم الله الخوض في أعراض المسلمين.

هذا جانب التحريم الشرعي.

وعند التأمل نجد في العقل مساندة لهذا التحريم، فلا يقبل العقلاء أن تنطلق ألسنة الناس في أعراض الناس.

● وأن ما أشيع من الإفك في حياة النبي ﷺ يؤذي رسول الله ﷺ وأهله وواحدا من أفاضل الصحابة إذ كان من أهل بدر.

وفي كل حين من الأحيان فإن حديث الإفك يؤذي المسلمين والمسلمات، ومن أجل هذا وجب الامتناع عنه شرعا، وعقلاً.

● وأن الاستماع إلى الإفك مجرد استماع فضلا عن تلقيه وإشاعته في الناس، لما يؤدي إليه ذلك من فساد المجتمع وإشاعة التهم والبهتان فيه، وإيقاع الضرر بالناس في نفوسهم وأعراضه، وما يترتب على ذلك من زعزعة استقرار المجتمع.

● وأنه مخالفة لأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه، إذ الأصل في المسلم أن يستر على المسلم إن رآه على خطأ أو معصية فقد أوجب الإسلام ستر المسلم على المسلم في كثير من النصوص النبوية:

● روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ستر على مسلم ستره الله في الدنيا والآخرة».

● وروى الطبراني بسنده في الأوسط بسنده عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرى امرؤ من أخيه عورة فيسترها عليه إلا دخل الجنة».

● وروى أبو داود بسنده عن أبي برزة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته».

وفي هذا كله توبيخ وزجر لكل من خاض في الإفك استماعا أو نقلا، رغبة في تأمين الناس على أعراضهم وعلى علاقاتهم التي يجب أن تكون طيبة.

– وهناك عظة بالغة من الله تعالى لعباده يعرفون بها عظيم هذا الذنب، وعظيم ما يترتب عليه من عقوبة ونكال في الدنيا، وعذاب في الآخرة، حتى لا يعودوا له ولا لمثله أبدا في مستقبل أيامهم، سواء أكان الاستماع إلى الإفك أو الخوض فيه وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

والمعنى العام الذي يستفاد من هاتين الآيتين الكريمتين هو أن المؤمن لا يجوز له أن يستمع إلى الإفك ولا أن يتحدث به. لأن الله تبارك وتعالى نهى عن ذلك وشرع له الأحكام وبينها على ما يقتضيه علمه وتستوجبه حكمته سبحانه وتعالى، وفي الآية الأولى من هاتين الآيتين الكريمتين أسلوب شرط نوضح أركانه فيما يلي:

«إن» أداة الشرط.

«وكنتم مؤمنين» كنتم فعل الشرط.

و«أن تعودوا لمثله» تدل على جواب الشرط أي لا تعودوا. أي إن كنتم مؤمنين فلا تعودوا لهذا العمل.

وفي الآية الثانية تقرير حقيقة: هي أن الله تبارك وتعالى كلما بين حكما لنا فإن فيه صالح ديننا ودنيانا لأن الله سبحانه عليم بنا وبما يصلحنا حكيم في أمرنا ونهينا وزجرنا.

– وأما تقرير بعض الحقائق الهامة في حياة المجتمع، فنستطيع أن نحس بها في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ففي هذه الآيات عدد من الحقائق الكبرى التي يجب أن يسلم بها الإنسان إذا كان يدرك صالح دنياه وأخراه، وتلك الحقائق هي:

● أن كل من استمع إلي الإفك أو أشاعه فأحب بذلك أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا استحق نوعين من العقاب أحدهما دنيوي وهو إقامة الحد عليه والآخر أخروي عند الله يوم القيامة.

إن هذه الحقيقة تعني أنه لن يفلت مخطئ من عقاب في ظل التشريع الإسلامي، وسيطرة أحكام الإسلام على المجتمع.

● والحقيقة الثانية هي تقرير أن الله تبارك وتعالى يعلم كل شيء مما له علاقة بخلقه، ويضع الأحكام التي يحقق الأخذ بها صالح الإنسان في معاشه ومعاده، ولا أحد غير الله يمكن أن يصل إليه من خلال عقله، وعقله قاصر عن أن يدرك ما يصلح دينه ودنياه.

● والحقيقة الثالثة: أن فضل الله على المؤمنين ورحمته بهم في كل زمان ومكان هي التي تحول بينهم وبين المعاصي وتنجيهم من عذاب الدنيا والآخرة.

● والحقيقة الرابعة: أن الله تبارك وتعالى رءوف بالمؤمنين رحيم بهم، ولولا رحمته ورأفته ما أنعم علينا بإرسال الرسل ولا منحنا نعمة العقل، ولا متعنا بحواسنا من سمع وبصر وفؤاد، بل لولا رأفته ورحمته، ما نفخ في أبينا آدم من روحه بعد أن سواه فتوارثنا عنه هذ النفخة من روح الله.

كل هذه النعم وغيرها كثير لولاها لهلكنا ولخسرنا دنيانا وديننا.

وهكذا ينبغي أن يكون الإيمان بهذه الحقائق مع المسلم نفسه وعقله وحسه، وأن يتعامل مع هذه الحقائق الكبرى تعاملا يهتدي فيه بشرع الله وأخلاق الإسلام وآدابه إن أراد أن يسعد في معاشه ومعاده.

■ والمواقف التربوية العامة التي تستفاد من هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منهاما يلي:

١- أن وجود أفراد المجتمع المسلم يسارعون إلى الخوض في أعراض الناس، ورميهم واتهامهم دون دليل، ودون تحر للصدق، ظاهرة تكاد تكون موجودة في كل زمان ومكان، وهي تدل على ضعف أخلاق هؤلاء الذين يرددون أحاديث الإفك وابتعادهم عن القيم الخلقية الإسلامية.

وهي ظاهرة سيئة يستحق من يمارسها العقاب الذي شرعه الله له ولأمثاله، ولكنها ليست سببا في إدانة المجتمع كله، ففي الناس خير أوحب للخير، بل إن إشاعة هذه التهم والمفتريات لا بد أن تتمخض عن بعض الخير على الرغم مما فيها من شر، لأنه ليس هناك من خير محض ولا شر محض - كما بينا آنفا - فوجود الشر والأشرار والافتئات على أعراض المسلمين من فئة ضالة، ينبغي أن يترك في نفوسنا رغبة في الدعاء لهم بالهدى والاستقامة، بعد التوبة والاستغفار، والصبر عليهم إذا لم نستطع إقامة الحدود عليهم ليتطهروا بها من معاصيهم ويتطهر منهم مجتمع المسلمين فلا يجرؤ أحد منهم على أن يعود لمثل ذلك أبدا، لأن الصبر عليهم - ما دامت الحدود معطلة - هو نوع من العلاج والإصلاح.

ولا بد أن أوكد أن الصبر هنا يجب أن يكون إيجابيا أي تصحبه الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وليس الصبر بمعنى تركهم وما يفعلون، أو تجاهل أعمالهم التي تضر بالمجتمع المسلم.

٢- وأن كل مخطئ في اتهام الناس بالباطل، أو مخطئ في الاستماع إلى هذا الباطل أو إشاعته في الناس، عليه وزر خطئه في الدنيا والآخرة، غير أن الوزر الأكبر يكون على من اجتهد وجد في إطلاق التهم على المسلمين والمسلمات فكان أول من أطلقها.

ومعنى ذلك أن يكف الإنسان لسانه عن الخوض في أعراض المسلمين والمسلمات، لأن البادئ يحمل الوزر الخاص به ووزر من استمع إليه فردد تهمته، كان هذا البادئ بالخطأ عليه حسابه الشخصي، وعليه الحساب أيضا بالنسبة لكل من ضلله من الناس بإخباره بهذا الباطل.

فقد روى الإمام مسلم بسنده عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

إن عدالة الإسلام في التعامل مع الناس تعني كما يفهم من هذا الحديث النبوي الشريف أن يحاسب المخطئ على خطئه وعلى خطأ من تسبب له أن يخطئ من الناس. وليس وراء هذا تخويف وردع ونهي عن أن يتسبب الإنسان في أن يرتكب الآخرون الأخطاء بسببه.

إن هذا الذي ينقي المجتمع المسلم من بذاءة أهل البذاء ويحمي للناس أعراضهم وسمعتهم.

٣- ونتعلم من الآيات الكريمة أننا إذا سمعنا قالة سوء أو تهمة لأحد أن نظن خيرا بمن أطلقت عليه التهمة، وأن نرد على صاحب التهمة ومطلقها تهمته فلا نسمع إليه، فضلا عن أن نشيع نحن هذه التهمة في الآخرين.

وتلك أخلاق إسلامية دعت إليها النصوص الإسلامية التي نذكر منها ما يلي:

● في ظن الخير بالمسلمين والمسلمات:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، والظن هو التهمة والتخوُّن للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثما محصنا، فليتجنب كثير منه احتياطا»(١).

وروى ابن ماجة بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا».

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢١٢ ط الحلبي دون تاريخ.

وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث...».

● وفي رفض الاستماع إلى الباطل من القول:

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٣] واللغو القول القبيح، وأقبح ما يكون القول إذا تناول عرض مسلم، أو هو الباطل كله.

وروى الترمذي بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة».

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥] أي لا يخالطون أهله ولايعاشرونهم، بل يعرضون عنهم وعن الاستماع إليهم.

وروى البخاري بسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في خطبته يوم النحر بمنىً في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت».

وأي تحذير من ذكر الناس بما يسوءهم أشد من تحذير رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي بسنديهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا - تعني أنها قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته» أي خالطته وغيرت طعمه ورائحته لشدة نتنها وقبحها.

فهذا الحديث الشريف من أبلغ الزواجر كما قال العلماء.

٤- ونتعلم من الآيات الكريمة أن قاذف أي مسلم أو مسلمة، ما لم يقدم على صدق دعواه دليلا من أربعة شهود عدول، فإنه كاذب في دعواه، يستحق العقاب الذي شرعه الله في الدنيا وهو: جلده ثمانين جلدة، ورفض قبول شهادته، والحكم عليه بالفسق، فضلا عما ينتظره من عقاب في الآخرة، وأن من ردد كلام القاذف

فتقله إلى الناس كان قاذفا كذلك واستحق العقاب.

ومعنى ذلك أن المجتمع المسلم عليه أن يتعاون بل يتكاتف ويتناصر في حماية أعراض الناس لأنه مجتمع جعله الإسلام متماسكا مترابطا، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وشبك بين أصابعه.

وأهم ما يحمي به المسلمون أنفسهم وأعراضهم، هو كف الألسنة عن قالة السوء، ورفض الاستماع إليها ـ كما أسلفنا ـ واللسان من أكثر أعضاء الجسم عرضة للخطأ، بل هو الرائد لأعضاء الجسم إن استقام استقامت وإن اعوج اعوجت، روى الترمذي بسنده عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكفّر اللسان تقول: «اتق الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا»

وهكذا يجب أن يكون حرص المجتمع المسلم على تطهيره من قالات السوء.

٥- ونتعلم من الآيات الكريمة أن الإنسان المسلم يجب أن يقف مع نفسه وقفة جادة، يحول بها بين نفسه وبين حب الشر، أو الأذى، أو حب الباطل من القول أو الرُّجز منه.

والإنسان يستطيع أن يعوِّد نفسه حب الخير أو حب الشر، فإن أحبَّتْ الخير نَجت، وإن أحبت الشر لم تنج من عذاب الله دنيويا وأخرويا.

وحب الخير والدعوة إليه مطلب ديني: قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وجاء في السنة النبوية المطهرة ما رواه الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله».

وكراهية الشر والابتعاد عنه مطلب ديني كذلك، روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ وقف على ناس جلوس فقال: ألا أخبركم

بخيركم من شركم فسكت القوم فأعادها ثلاث مرات فقال رجل من القوم: بلى يا رسول الله، قال خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره».

ومن لم يعود نفسه حب الخير وكراهية الشر، أوقعته نفسه في المعاصي وكل المعاصي شر، فاستحق بذلك عقاب الله في الدنيا والآخرة.

إن المجتمع المسلم يجب أن يحاصر فيه الشر والأشرار، فلا يجد فاعل الشر صدى لشره عند أحد من المسلمين، وهذه هي الحماية للمجتمع المسلم مما يضره في حاضره ومستقبله.

٦- ونتعلم من الآيات أننا مغمورون بفضل الله وبرحمته، وأننا لولا هذا الفضل لكان وقوعنا في المعاصي والمآثم أكثر وأشد وكان العقاب على ذلك أقوى وأنكى.

فكيف حالَ فضلُ الله علينا ولا يزال يحول بيننا وبين المعاصي؟ إننا نستطيع أن نوضح ذلك سائلين الله السداد والتوفيق فيما يلي والله المستعان:

أ- من فضل الله علينا أن أرسل إلينا الرسل، وجعل خاتمهم محمد ﷺ يحمل أتم دين وأوفى منهج وأحكم نظام، وأكمل تشريع.

ب- ومن فضل الله علينا أن منحنا نعمة العقل، ليقودنا إلى طاعة الله فيما أمر، واجتناب ما نهى، والعقل من أكبر نعم الله على الإنسان إذ هو مناط التكليف.

ج- ومن فضل الله أن حمانا بتشريعاته وحمى أعراضنا من ألسنة أهل الإفك والبهتان، وفرض عليهم عقوبات في الدنيا والآخرة.

د- ومن فضله علينا أن يقبل توبة من تاب منا، ويرد إليه اعتباره في الدنيا، فتقبل شهادته ويعود إلى زمرة المؤمنين بعد أن كان قد صنف من الفاسقين.

هـ- ومن فضله علينا أن من ارتكب هذا الإفك فأقيم عليه الحد، كانت إقامة الحد عليه تطهيرا له من تلك الجريمة وزجرا لغيره عن أن يقع في هذا الخطأ الذي يفقد المجتمع استقراره وأمنه على أمواله وأعراضه.

■ والمواقف التربوية الخاصة بظروف الدعوة والحركة كثيرة كالمواقف العامة التي ذكرنا، ونذكر منها ما يلي:

١- يتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من هذه الآيات أن المجتمع المسلم لا يخلو من الذين يرددون قالات السوء ويسارعون في اتهام الناس دون دليل، تلك حقيقة قررتها هذه الآيات الكريمة، يفيد الدعاة منها فيما يلي:

أ- أن يوضحوا لأصحاب الإفك ومن يتجاوبون معهم جزاءهم في الدنيا والآخرة.

ب- وأن يؤكدوا لهم أنهم بأفعالهم تلك قد ينالون من أعراض إخوانهم وأخواتهم في الإسلام، ولكن هيهات أن ينالوا من قيم المجتمع المسلم وأخلاقه وآدابه، فتلك ثوابت تكفل الله بحفظها حين تكفل بحفظ منهج الإسلام بنفسه سبحانه وتعالى.

ج- وأن يطلبوا لهؤلاء الأشرار هدى الله ورحمته ملحّين على الله في الدعاء لهم فهم بهذه الأخطاء بؤساء ينبغي أن يشفق عليهم الدعاة إلى الله كل الإشفاق.

د- وأن يعلموهم بأنهم على الرغم من أخطائهم ومعاصيهم فإن الله تبارك وتعالى قد فتح أمامهم باب التوبة دون شروط إلا أن تكون التوبة نصوحا وأن يصحبها الندم والعزم على عدم المعاودة، ولم يشترط سبحانه مثلا تقييد قبول التوبة بحجم الذنب أو ضخامة المعصية وإنما هو سبحانه يتقبل التوبة عن كل ذنب وعن أي معصية.

٢- وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية إن يتوقعوا من أهل الإفك

ومروجي التهم والإشاعات أنهم قد ينتقلون من اتهام الأفراد إلى اتهام الجماعات، بل إلى اتهام الإسلام نفسه مبادئه قبل رموزه ومصلحيه، ولا بد ان تكون لهم مع هذه الظواهر مواقف نشير منها إلى ما يلي:

أ- أن هؤلاء الذين يروجون هذا الباطل ضد الأفراد أو ضد الجماعات أو العمل الإسلامي أو الإسلام نفسه، إما أشرار يضمرون الحقد والكراهية، وإما أغرار لا يعرفون خطر ما يفعلون، والشرير والغرير يحتاج إلى العلاج وحسن الرعاية من الدعاة بحيث لا تضيق بهم صدرورهم أقيمت عليهم الحدود ام لم تقم؟

ب- وعلى الدعاة والحركيين ان يعملوا ما وسعهم عل إزالة الشبهات إن وجدت لدى أهل الإفك شبهات، وعليهم ان يردوا على المفتريات ضد الأشخاص برد غيبتهم، وضد الجماعات والعمل الإسلامي بتوضيح المواقف وتحديد الأعمال وبيان مشروعيتها وأولويتها، وضد الإسلام نفسه بحسن عرضه وتبسيط ما دعا إليه، والتأكيد على انه منهج متكامل قادر على حل كل مشكلة.

ج- عليهم أن يطمئنوا المسلمين الصالحين ان هؤلاء الأشرار الأغرار لن يستطيعوا مهما أوتوا أن يزعزعوا العقيدة أو يشوهوا العبادة أو يقوضوا القيم الإسلامية، فكل ذلك مما تكفل الله بحفظه ـ كما أسلفنا ـ وإنما قصاراهم ان يحدثوا بلبلة بإثارة شبهة، أو يلطخوا عرضا بقالة سوء، ولهذا كله جزاؤه العادل في منهج الإسلام سواء أكان ذلك في الدنيا أو في الآخرة.

٣- وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية عندما يترامى إلى أسماعهم شيء من هذا الخوض في أعراض الناس بالباطل ان يظنوا في المسلمين خيرا، وان يواجهوا أصحاب هذا الباطل برفضهم لهذا الأسلوب وتوضيح انه إفك ما يليق

بمسلم أن يمارسه.

وأن يبصروا الناس بحرمة أعراض المسلمين ودمائهم وأموالهم، وأن يذكروهم - فما أظن إلا أنهم قد نسوا - بان الأولى بالمسلم إذا رأى مسلما أو مسلمة على معصية أن يستر عليه لا أن يفضحه ويشهِّر به في الناس.

إن ذلك هو أدب الإسلام وخلقه، والدعاة وأهل الحركة الإسلامية أولى الناس بتوضيح هذه الحقائق والالتزام بهذه الأحكام والآداب.

وهذا الموقف من الدعاة هو العلاج لهذا الظاهرة التي تشيع في التجمعات البشرية، عندما يتساهل الناس في التقيد بأحكام الإسلام وآدابه وأخلاقه، متأثرين في هذا التساهل بما يحيط بالإسلام والمسلمين من تيارات عاتية معادية تريد أن تجرف أمامها قيم الإسلام وأن تحل محلها التنافس والتعادي والأثرة البغيضة التي تعمي البصائر قبل الأبصار.

وعلى الدعاة العاملين في الحركة الإسلامية أن يدركوا أن هذا الخلق الرديء - الخوض في الأعراض وتوجيه الذم والاتهام - إذا كان وارداً في الناس عموما، فهو وارد كذلك - ولو بصورة أقل - في مجال العمل الإسلامي والعاملين فيه على كل مستوى من مستوياته، وفي كل مجال من مجالاته، وربما كانت تنوعات العمل وتعدد اجتهادات العاملين مدعاة لإثارة النقد لمن اجتهد فأخطأ، ثم يتصاعد هذا النقد فيصل إلى ذكر عيوب وسلبيات فإلى جرح وتضعيف لهذا المجتهد الذي أخطأ.

يحدث هذا أحيانا مع أن الأصل الإسلامي الكبير في هذا المجال هو أن من اجتهد فأخطأ فله أجر، فإن أصاب فله أجران ولكن هذه الحقائق قد تنسى في غمرة الحماس والغيرة على العمل والعاملين.

ومن هنا كان واجب الدعاة وكل عامل في الحركة الإسلامية أن يؤمنوا ظهور إخوانهم، وأن يظنوا الخير في المسلمين والمسلمات عموما وأن يعمدوا - بما عرف عنهم من أناة وصبر أو تصبر - إلى التذكير بأخلاق الإسلام وآدابه، وفي ذات الوقت

لا يصيخون السمع لأولئك الذين لا يجيدون غير النقد والتجريح فيشغلون أنفسهم بتسقط العيوب وتتبع العورات.

ولو أن الدعاة أهملوا هذا الواجب الشرعي ـ وما أظنهم مهملين ـ لكان ذلك من الأسباب التي تصرف العاملين من أجل الإسلام عن المضي في العمل مؤثرين السلامة من اللوم والتجريح وما هو إلا أن تفرغ الساحة منهم أو يقل عددهم إلى الحد الذي يفوت المصلحة العامة للمسلمين، ويومئذ يفرح أعداء الإسلام بما بثوا من عقبات في طريق الدعوة والحركة وما أثاروا من متاعب وصوارف على طريق الدعوة إلى الله.

٤ـ وعلى الدعاة إلى الله والمهمومين بالعمل في الحركة الإسلامية أن يعلموا الناس ويبصروهم بأن وقوع بعضهم في الخطأ والمعصية بالخوض فيما يغضب الله يؤذن بغضب الله وعقابه الدنيوي. ويدل على أن هذا المتهم لغيره بعيدٌ عن التقوى وعن خوف الله عز وجل، وعن اجتناب محارمه.

وإذا بعد الإنسان عن تقوى الله بالخوض في أعراض الناس فكيف يأمن طريقه في الحياة الدنيا فضلا عن الحياة الآخرة؟ بل كيف يطمع في عفو الله ومغفرته بل رزقه الذي كتب الله له، فقد روى أبو نعيم في الحلية بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته».

فإذا كان هذا الذي بعد عن تقوى الله بالخوض في أعراض المسلمين عاملا في مجال الدعوة والحركة الإسلامية، فكيف يتصور أن ينجح في عمله بأن ينقل إنسانا من ضلال إلى هدى أو من كفر إلى إيمان؟ وكيف يأمل أن يجعل الله له مخرجا من أي ضيق يواجهه في عمله ـ وما أكثر ما يعترض الدعاة من أسباب يضيقون بها وتحول بينهم وبين ما يريدون ـ !!! إن طريقه إلى الخروج من كل مأزق هو تقوى الله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

إن مهمة الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية كبيرة وخطيرة، ومتشعبة المجالات، ولا عون على كل ذلك إلا بتقوى الله عز وجل.

٥- ويتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة، وعليهم أن يعلموا المدعويين أن شرع الله وأحكامه في غاية الوضوح واليسر، وأن ما حرم الله على عباده من قول أو عمل ففي تحريمه عليهم صالح دينهم ودنياهم، وأن يبصروهم بأن بابا من أبواب الحرام هو مقارفة المكروه أو اعتياده، وأن صغار الذنوب أو محقراتها تجر إلى كبار الذنوب ومعظّماتها، ولقد حذرنا رسولنا وقدوتنا عليه الصلاة والسلام من هذ المحقَّرات من الذنوب فيما رواه الإمام أحمد بسنده عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم ومحقَّرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهكله».

إن كل ما حرم الله علينا، وكل ما كره إلينا إنما هو تعليم لنا وتربية، وصفه الله تعالى بأنه عظة منه لنا، والعظة أو الموعظة تذكير بالخير فيما يرق له القلب، أو زجر مقترن بتخويف ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وحسب الإنسان شرفا ومكانة أن يكون الله عز وجل هو واعظه الذي يذكره بالخير أو يزجره عن الشر.

وإذا كان ذلك أمر الناس جميعا فما بالنا بالدعاة إليه سبحانه والعاملين من أجل دينه والتمكين لهذا الدين؟

٦- وعلى الدعاة أن يحذروا المدعويين من أي قول أو عمل يؤدي إلى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا - والفاحشة كما أوضحنا آنفا هي ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال - لأن ذلك قد توعد الله عليه بالعذاب في الدنيا والآخرة.

وكيف يقول المسلم أو يفعل شيئا يؤدي إلي ذلك وقد اعتبر الله الإيمان ناقصا ما لم يحب المسلم لأخيه المسلم ما يحب لنفسه؟ وحبه في الستر على أخيه المسلم

ما يرى من عيوب وأخطاء طمعا في أن يستره الله يوم القيامة؟

وكيف يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا والرسول ﷺ يخبره فيما رواه الترمذي بسنده عن أبي هريرة بقوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»؟

وكذلك الشأن في مجال العلم الإسلامي كله، يوجد مِنَ الناس وأحيانا من الدعاة مَنْ ترتفع عندهم نبرة النقد لأحد العاملين أو الدعاة أو الجماعات حتى تبلغ درجة التجريح والتضعيف دون أن يوثقوا ما يقولون بأدلة وبراهين، وشهود عدول، وهذا مرفوض، والسكوت عنه خير للناقد والعاملين في مجالي الدعوة والحركة.

إن ارتفاع نبرة النقد إلى درجة التجريح هدية تقدم إلى أعداء الإسلام والعاملين من أجله، وهؤلاء لا يسعدهم شيء مثل أن يتهجم على العمل الإسلامي والعاملين فيه واحد منهم!!!

ومع بالغ الأسف فإن ذلك يحدث أحيانا من بعض العاملين في مجالات العمل الإسلامي ومن بعض الجماعات الإسلامية!!!

ولست أتهم أحدا من هولاء بأنه خُدع فانخدع، فضلا عن أن يكون قد زُيِّن له هذا الباطل فخاض فيه، ولكني أقول: إنها الغفلة حينا، والأنانية حينا، ولكن ذلك لن يعدو أن يكون تخليا عن أدب الإسلام في كل الأحيان.

إن الأوْلى بهؤلاء الناقدين المجرحين لإخوانهم في العمل من أجل الإسلام - حتى لو ملكوا على ما يقولون الأدلة والبراهين - أن يأخذوا بخلق الإسلام في الستر على أصحاب العيوب والأخطاء، فهم أدرى الناس بتعرض كل أحد للوقوع في الخطأ، فقد روى الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون».

إن من الحكمة والكياسة ألا يكون العاملون في الحقل الإسلامي أعواناً لأعدائهم على أنفسهم... ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

الآيات من الحادية والعشرين إلى السادسة والعشرين
في: أحكام متعلقة بقذف المحصنين والمحصنات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

■ هذه الآيات الكريمة تتضمن أحكاما اتضحت بالنهي عنها، وأحكاما أخرى تتصل بقذف المحصنات والمحصنين من المؤمنات والمؤمنين.

ففيها نهي عن اتباع خطوات الشيطان ونزغاته بتزين ما نهى الله عنه وحرمه، وبالتحبيب في كل شيء يغضب الله، من أنواع الفحشاء والمنكر، ومن اتبع خطوات الشيطان فقد وقع في الفحشاء والمنكر.

وتذكير بفضل الله على المسلمين برزقه من يشاء من عباده، والتوبة والرجوع إلى الحق والصواب، وتزكية النفوس من شركها وفجورها ودنسها وما فيها من أخلاق رديئة، لولا ذلك كله ما استطاع أحد لنفسه زكاة أو خيرا، ولكن الله يزكي من يشاء من خلقه فضلا منه ورحمة.

وفي الآيات نهي عن الحلف على عدم وصل القرابات، فذلك يمين على فعل الشر، وهو لا يجوز وإنما يكفر عنه حالفه ثم يأتي الذي خير، ويعفو ويصفح عمن أساء إذا كان هذا الحالف يريد أن يغفر الله له.

وتتضمن الآيات وعيدا من الله للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات عموما وأمهات المؤمنين على وجه الخصوص باللعن في الدنيا والآخرة، مع العذاب العظيم في الدنيا بإقامة الحد عليهم في الدنيا، وسوف يحرجون في الآخرة إذ تشهد عليهم جوارحهم وعندئذ يوفون جزاءهم الحق.

وتقرير أن الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، كما أن الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات على نحو ما سنوضح بإذن الله تعالى، وأن الأتقياء الصالحين مبرءون مما يلصق بهم من تهم وافتراءات.

■ وقد اشتملت الآيات الكريمة على خطاب للمؤمنين، ونهيين وأمرين، وتضمنت أخبارا، وتقريرا لبعض الحقائق، على النحو الذي نوضحه فيما يلي:

– أما الخطاب في هذه الآيات فهو موجه للمؤمنين في بداية الآية الكريمة: يا أيها الذين آمنوا، ناهيا لهم عن بعض المحرمات التي نهى الله عنها.

– والنهي الأول في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

وخطوات الشيطان هي:

● مسالكه التي يسلكها ويغري الناس بالمضي فيها.

● أو وساوسه أي كل ما يوسوس به من شر.

● أو عمله - كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

● أو كل معصية فهي من خطواته كما قال قتادة[1].

---

(١) هو قتادة بن دعامة بن قتادة أبو الخطاب السدوسي (٦١– ١١٨هـ) من أهل البصرة، مفسر حافظ عالم بالحديث النبوي الشريف متمكن من العربية يعد رأسا فيها، عالم =

● أو النذور في المعاصي ـ كما قال أبو مجلز[1].

والنهي عن اتباع خطوات الشيطان عزز ببيان سبب النهي، وهو الضرر البالغ في اتباع خطوات الشيطان، وقد جاء هذا البيان في أسلوب شرط أركانه كالتالي:

مَنْ: أداة الشرط.

ويتبع: فعل الشرط

فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر: هذه الجملة هي جواب الشرط.

والمعنى أن مَنْ يتبع خطوات الشيطان، ولا ينتهي عما نهاه الله، فإنه بتأثير الشيطان بفعل الفحشاء والمنكر، لأن الشيطان يأمر الناس بالفحشاء والمنكر.

● والفحشاء: كل قول أو فعل قبيح.

● والمنكر ما تنكره الشريعة وينكره أهل الخير من الناس.

– وفي الآيات أسلوب شرط آخر هو: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ وأركانه كالتالي:

● لولا: أداة الشرط وهي حرف امتناع لوجود، أي امتناع الجواب لوجود الشرط، أي لولا وجد فضل الله ورحمته ما زكّى منكم من احد ابدا.

● وفعل الشرط: مفهوم من سياق الكلام يقدر بقولنا: لولا كان أو وجد فضل الله.

= بالنسب وأيام العرب. قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة، مات بواسط في الطاعون.

(١) أبو مجلز هو: لاحق بن حميد بن شيبة الدوسي قدم خراسان وأقام بها مدة مع قتيبة بن مسلم، من المفسرين المعدودين، وهو تابعي روى عن ابي عبيدة رضي الله عنه وروى عنه قتادة وغيره من العلماء لا تُعرف سنة مولده لكنه توفي بالكوفة سنة ١١٠هـ قبل وفاة الحسن بقليل.

● وجواب الشرط: ما زكى منكم من أحد.

والمعنى أن وجود فضل الله ورحمته بكم هو الذي منع عدم تزكية أحد منكم.

● والفضل والرحمة هنا: هما هداية الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فهو ينهى المحسنين عن الامتناع عن الإحسان إلى من أساءوا إليهم مهما حلفوا على ذلك الامتناع.

وقصة ذلك النهي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان ينفق على ابن خالته مسطح بن أثاثة لأنه فقير، فلما خاض مسطح في حديث الإفك متهما أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، حلف أبو بكر ألا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا، فنهى أبو بكر وأمثاله من أصحاب الفضل في الدين والسعة في المال عن الامتناع عن الإحسان إلى من أساء إليهم، ترفقا من الله وتعطفا على هؤلاء المساكين.

فلما نزلت هذه الآية عاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه مما سنوضحه فيما بعد.

– وأما الأمران اللذان تضمنتها الآيات الكريمة فهما:

● الأمر بالعفو عما فرط من المخطئين من خطأ.

● والأمر بالصفح أي الإغضاء وتناسي الخطأ.

والأمران موجهان إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإلى أمثاله إذا وجدوا أنفسهم من موقف مماثل لموقفه في أي زمان ومكان.

قال المفسرون في هذه الآية: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث حلف ألا ينفق على مسطح وهو ابن خالة أبي بكر، وكان يتيما في حجره، وكان ينفق عليه وعلى قرابته، فلما نزلت الآية قال أبو بكر رضي الله عنه: قوموا فلستم مني ولست منكم، ولا يدخلن على أحد منكم، فقال مسطح: أنشدك الله

والإسلام، وأنشدك القرابة والرحم الا تحوجنا إلى أحد، فما كان لنا في أول الأمر ذنب.

قال له أبو بكر رضي الله عنه: إن لم تتكلم فقد ضحكتَ.

فقال: قد كان ذلك تعجبا من قول حسان.

فلم يقبل أبو بكر عذره، وقال: انطلقوا أيها القوم فإن الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا، فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الأرض.

فبعث رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه يخبره بان الله تعالى قد أنزل عليّ كتابا ينهاك فيه ان تخرجهم، فكبّر أبو بكر وسرّه، وقرأ رسول الله ﷺ الآية عليه، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قال بلى يا رب، إني أحب أن يغفر لي، وقد تجاوزت عما كان، فذهب أبو بكر إلى بيته وأرسل إلى مسطح وأصحابه، وقال: قبلتُ ما أنزل الله على الرأس والعين، وإنما فعلتُ بكم ما فعلتُ إذ سخط الله عليكم، أما إذ عفا عنكم فمرحبا بكم، وجعل لمسطح مِثْلَي ما كان له قبل ذلك اليوم»(١).

- وفي الآيات خبر مؤكد هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

فهذا وعيد من الله تعالى لمن يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات. والمراد كل محصنة من المؤمنات غافلة عما يرميه بها المبطلون من أهل الإفك والخوض في الأعراض.

وهذا رأي علماء أصول الفقه، وقد أقاموه على قاعدة عندهم هي أن ما جاء في القرآن تكون العبرة فيه بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

(١) الإمام الرازي: التفسير الكبير: ٢٣/١٦٢ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

والأقرب ـ كما يرى ذلك بعض العلماء ـ أن يكون المقصود بالآية الكريمة عائشة رضي الله عنها، وزوجات النبي ﷺ ودليلهم على ذلك: أن قاذف المؤمنات عموما تقبل توبته لقوله تعالى في الآية الرابعة من هذه السورة الكريمة: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وأما قاذف أمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ فلا تقبل لهم توبة لقوله تعالى: ﴿ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ والملعون مطرود من رحمة الله لا تقبل له توبة.

ويرى فريق من العلماء أن الملعون في الدنيا والآخرة الذي لا تقبل توبته في قذف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هو عبد الله بن أبي بن سلول الذي تولى كبر هذا الإفك، لنفاقه واستحقاقه اللعن، وقد مات على النفاق فاستحق اللعن وهو الطرد من رحمه الله تعالى.

– وفي الآيات خبر آخر جاء في قوله تعالى عن هؤلاء الذين رموا المحصنات: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

وشهادة الأعضاء على صاحبها ـ كما يفهم من القرآن الكريم في غير هذه الآية، تدل على أن من شهدت عليه أعضاؤه يكون من الكفار أو المنافقين، إذ هو بذلك الكفر أو النفاق عدو لله تبارك وتعالى، والله عز وجل يقول: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ١٩ – ٢٤].

وقد خصصت هذه الأعضاء بالشهادة وإن كان جميع الجسد يشهد، لأن لهذه الأعضاء عملا في رمي المحصنات المؤمنات، فاللسان ينطق الفحش، واليد تشير إلى المقذوف، والرِجْل تسعى إلى المجالس لإشاعة التهمة.

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: «أتدرون مِمَّ أضحك؟ قلنا الله ورسوله أعلم قال: «من مجادلة العبد ربه، يقول يا رب الم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليّ شاهدا إلا من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام عليك شهودا، فيختم على فيه، ويقال لأركانه انطقي، فتنطق بعلمه، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بُعداً لكُن وسُحقا وعنكن كنتُ أناضل».

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة عُرِّف الكافر بعمله فيجحد، ويخاصم، فيقال له: هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول: كذبوا، فيقال أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا، فيقال: احلفو فيحلفون، ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار».

– وإخبار من الله تعالى بأنه سوف يجازي هؤلاء جزاء واضحا عادلا يقتنعون هم باستحقاقهم له، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾.

- دينهم هنا: أي حسابهم وجزاؤهم.
- والحق: وصف لحسابهم وجزائهم أي العادل.
- والله هو الحق المبين: أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

والحق اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وقال بعض العلماء إنما سمي بالحق لأن عبادته هي الحق دون عبادة غيره، أو لأنه الحق فيما يأمر به دون غيره.

● والمبين: المظهر، أو المعطي وجود غيره.

والمعنى: أن الله تبارك وتعالى سوف يجازي هؤلاء بما يستحقون جزاء عادلا واضحا تلزمهم فيه الحجة، ويعلمون تماما أنهم يستحقون هذا العقاب، وأنه سبحانه هو الذي لا يعبد بحق سواه، أو هو الحق أي الموجود لان نقيضه الباطل، هو المعدوم وهو المبين الذي أظهر الموجودات فدلت لوجودها على قدرته، وعلى وجوده سبحانه وتعالى.

ويا حسرة هؤلاء الذين خاضوا في أعراض المحصنين والمحصنات يوم تشهد عليهم جوارحهم فيحاسبون على ما اقترفوا، وهم مقتنعون باستحقاقهم للعذاب الذي يقع بهم.

– وإخبار من الله تعالى لنبيه وللمؤمنين ، يقرر فيه حقيقة كائنة في كل زمان ومكان وهي: ﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾.

● قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول.

والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول.

وقال: نزلت في عائشة رضي الله عنها وأهل الإفك.

والمعنى على هذا التفسير: أن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ من كلام، هم أولى به، وهي رضي الله عنها أولى بالبراءة والنزاهة.

ويعزز هذا قوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾.

● والمراد بالخبث: خبث الصفات الإنسانية كالفواحش ونحوها.

● والمراد بالطيب: زكاء الصفات الإنسانية كالفضائل ونحوها. هذا تأويل للآية.

● وهناك تأويل آخر ينسب إلى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[1]: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء.

والمعنى: ما كان الله ليجعل عائشة رضي الله عنها زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة، لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا.

ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أي هم بعداء عما يقول أهل الإفك والعدوان.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم بسبب ما قيل فيهم من الكذب، أو براءة. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي عند الله في جنات النعيم.

وبهذه الآيات الكريمة ينتهي الحديث في هذه السورة الكريمة عن الأحكام التي تتعلق بقذف المحصنات عموما، وبقذف أمهات المؤمنين، وبقذف الزوجات.

وكلها أحكام تحيط الأسرة المسلمة بسياج من الاحترام والتقدير وترسم أسلوبا للحياة الأسرية يضمن لها الاستقرار والاطمئنان ويقرر العدل ويوضح الحقوق والواجبات.

---

(١) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي ولاء المدني نشأة، لم يعرف تاريخ مولده وقال البخاري إنه مات سنة ١٨٢هـ وهو من المشتغلين بالحديث، قال عنه ابن عدي: له أحاديث حسان وهو ممن احتمله الناس وصدقه بعضهم، هو ممن يكتب حديثه، وقال ابن خزيمة ليس هو ممن يحتج بحديثه لسوء حفظه هو رجل صناعته العبادة والتقشف ليس من أحلاس الحديث.

وكل ذلك يستهدف أن يعيش المجتمع المسلم نقيا من الفواحش والدنايا، مطهرا من الزنا ودواعيه، محوطا بعفة اللسان، محددا لكل خطأ جزاءه في الدنيا والآخرة، في عدالة وضعها رب العزة سبحانه وتعالى.

ومع هذه الأحكام والآداب والأخلاق التي يجب أن يتحلى بها المسلمون والمسلمات في أي زمان ومكان.

■ والمواقف التربوية العامة في الآيات كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- أن عداوة الشيطان للإنسان دائمة، وأن أهم أعمال الشيطان هي إغواء الصالحين من عباد الله، بأن يزين لهم الباطل ويحثهم على الفواحش والمنكرات.

ومن أجل هذه العداوة حذرنا الله منه ومن أحابيله، وطالبنا بأن نتخذه عدوا ما دام قد اتخذنا عدوا له ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وعلمنا سبحانه وتعالى أنَّ أي نكوص عن الحق أو الخير، وأن أي ارتداد عن الإيمان ورجوع إلى الكفر، أو خروج من الهدى إلى الضلال، علمنا الله تبارك وتعالى أن وراء ذلك كله الشيطان وأولياءه ممن يزينون الباطل ويصرفون عن الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

والمسلم الواعي العارف بأمر الشيطان ووسوسته هو الذي لا ينخدع بهمز الشيطان ووسوسته، وينكشف أمامه أمر أولياء الشيطان.

وسبيل مقاومة الشيطان في الإسلام ميسورة، لأنها تخضع لعدد من المسلمات نذكر منها:

● أن الشيطان وإن كان يغوي الإنسان إلا أن الله لم يجعل له سلطانا على

الإنسان قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، ويعترف الشيطان بأنه ليس له سلطان حتى على الذين استجابوا لغوايته فضلوا، ثم يحاولون أن يرجعوا إلى الشيطان بذنوبهم ويحملوه المسئولية، يقول لهم: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ [الصافات: ٣٠].

● وأن الشيطان قوة شر، عصى أمر ربه ورفض أن يسجد لآدم سجود تحية لا سجود عبادة كما يتوهم بعض الحاقدين على الإسلام وتعهد أمام الله أن يضل عباده، فقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩]. وأن على الإنسان أن يحذر مكره وكيده ولا يتخذه وليا أبدا.

● وأن مقاومة الشيطان إنما تكون بذكر الله تعالى، روى النسائي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقال له: حسبك قد هُديتَ وكُفيتَ ووُقيتَ، فيتنحى له الشيطان فيقول له شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكفي ووقي؟».

● وتكون مقاومة الشيطان بالاستغفار، روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني».

● وتكون مقاومته بأن يعرض الإنسان كل قول له أو فعل على قيم الإسلام وأخلاقه وما أحل الله وما حرم، فما وافق الشرع مارسه وما خالف الشرع أيقن أنه

من وسوسة الشيطان، وذلك أن الشيطان مخالط للإنسان في قوله وصمته، وفي فعله وتركه وفي كل أمره، لقد أخبر بذلك رسول الله ﷺ فقد روى البخاري بسنده عن صفية زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» ومن كان شأنه مع الإنسان كذلك كان جديرا بالإنسان أن يستجيب لقول الله تعالى في التحذير منه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ الآية.

٢- ونتعلم من الآيات الكريمة أن فضل الله علينا ورحمته بنا هي التي تحول بيننا وبين اتباع خطوات الشيطان، وتتيح لنا أن نزكي أنفسنا من دنسه ورجسه ومكره وخداعه وأمره بالفحشاء والمنكر: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ...﴾ الآية.

● والفضل في الآية الكريمة هو العطية التي لا تَلْزَم من يُعطي، وفضل الله علينا لا يمكن حده أو حصره فقد تفضل علينا بالدين والرسل، والعقل والمال والقوة والجاه، وهذا التشريع العظيم الذي يعالج كل أمورنا ويحل جميع مشكلاتنا الآن وفي المستقبل.

● والرحمة: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تكون رقة مجردة، أو إحسانا مجردا، ولكنها عندما تكون صفة لله تبارك وتعالى تكون إحسانا لا رقة، وهي في الآية الكريمة تعني إحسان الله تعالى إلينا بهذه النعم التي أحاطنا بها، والتي لا نستطيع لها إحصاء ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، إذ هي كثيرة جدا كالعقل والسمع والبصر والنطق واللمس والشم والذوق، والعافية والرزق، وتسخير ما في السماوات والأرض وإرسال الرسل وإكمال المنهج ونحو ذلك من أنواع الرحمة.

● أي لولا أن تفضل علينا بهذا الفضل وتلك الرحمة بأن هدى الناس إلى الخير وفتح لهم باب التوبة، ما استطاع أحد أن ينجو من فتنة الشيطان وهمزه وتزيينه

الفحشاء والمنكر، ولا ان يزكي نفسه ويطهرها من رجس الشيطان، ولكن الله تبارك وتعالى بفضله ورحمته يزكي من يشاء من عباده لانه سميع لما يقولون عالم بما يسرون وما يعلنون وبمن يستحق منهم الهدى أو الضلال.

إن ذلك درس عظيم يتعلمه الناس من هذه الآية الكريمة ليجعلوا من انفسهم باستجابتهم لله واستقامتهم على دينه اهلا لان يتفضل الله عليهم ويرحمهم فيزكيهم.

٣- ونتعلم من الآيات الكريمة ان من وسَّع الله له في الرزق وهيأ قلبه لفعل الخير فمد يد المعونة إلى غيره من المسلمين فكفل من يحتاج إلى كفالة واعطى من يحتاج من قرابته وأرحامه وعامة المحتاجين، إن من كان ذلك شانه عليه ان يستمر في هذا العطاء مبتغيا وجه الله تعالى.

ومهما صدر ممن يعطيهم ويحسن إليهم من إساءة له أو لذويه فإن واجبه ان يستمر في هذا العطاء إذا أحب ان يغفر الله له ذنوبه، حتى لو كان حلف في فورة غضبه على ان يمتنع عن عطائهم فقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين، فرأى غيرها خيرا منها، فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه».

وهذا هو ما يتعلم من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

كانت تلك قصة أبي بكر الصديق مع مسطح بن أثاثة رضي الله عنهما فتراجع أبو بكر عن يمينه ووصله طمعا في مغفرة الله سبحانه ويجب ان تكون قصة كل مسلم موسع له في الرزق مع كل من يعطيه حتى لو أساء إليه، لان هذا هو خلق الإسلام وهدى القرآن الكريم.

٤- ونتعلم من الآيات الكريمة ان التعرض بالتجريح والاتهام فضلا عن السب

والإساءة حرام شرعا يستوجب عقوبة في الدنيا والآخرة.

ولكن هذه الجريمة فيها تفصيل ينبغي أن يتعلمه المسلمون من هذه الآيات، وذلك ما نشير إليه فيما يلي:

أ- إذا كان التعرض بالفحش أو السب لرسول الله ﷺ أو لإحدى زوجاته أو بناته، فإن قائل هذا كافر أو منافق يستحق لعنه الله في الدنيا والآخرة مع العذاب العظيم هنا وهناك.

ولعل الذين تجرأوا وكتبوا شيئا من ذلك الفحش ووصفوا به النبي ﷺ أو زوجاته بعد ان زين لهم الشيطان هذا الباطل، لعلهم يدركون من هذا الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ انهم بذلك خرجوا من الإيمان إلى الكفر والنفاق، وان الذين يتقبلون كلامهم ويروجونه إما كفار أو منافقون، إذ كيف يتصور الإيمان ممن يقذف من جاءه بالإيمان.

إن التطاول على الله وعلى رسله وكتبه وملائكته ووحيه وخاتم أنبيائه ﷺ من الكفر الصريح الذي لا يحتاج إلى دليل.

وإن الكافرين بالغيب: الملائكة واليوم الآخر والجنة والنار ينكرون معلوما من الدين بالضرورة، وهم بذلك يخرجون أنفسهم من دائرة الإيمان.

وكل هؤلاء وأولئك سيقفون غدا بين يدي الله سبحانه يحاسبهم ويجازيهم على كفرهم ونفاقهم، ولن يجدي عليهم يومئذ إنكار، إذ تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، ويوفيهم الله جزاءهم الحق، لأن الله هو الحق المبين.

ب- وإذا كان التعرض بهذا الباطل لإحدى المؤمنات المحصنات الغافلات في اي زمان ومكان كان من تعرض لذلك فاسقا يقام عليه الحد إذا لم يكن له شهود أربعة عدول، وتسقط شهادته ويفسق حتى يتوب.

٥- ونتعلم من الآيات الكريمة أن المسلم يجب أن يربى على أن يحفظ لسانه من البذاء والفحش، فإن هذا الحفظ هو يحفظ عليه إنسانيته وكرامته، ويحفظ العلاقة الطيبة بالناس، ويصون عرضه عن أن يناله أحد ببذاء أو فحش، وذلك أن الكلمة الخبيثة إنما تصدر من إنسان خبيث رجل كان أو امرأة. كما أن الكلمة الطيبة تصدر من إنسان طيب رجل أو امرأة.

● والخبيث ما يكره رداءةً وخساسة، محسوسا كان أو معقولا ويتناول الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال والقبيح في الفعال والمعنى أن الأفعال الرديئة للناس الأردياء، والأفعال الحسنة للناس الطيبين.

● والطيب من الأشياء ما تستلذه النفس وما تستلذه الحواس والطيب من الناس من تعرّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال.

والمعنى أن الأعمال الطيبة تكون من الطيبين من الناس.

● وتمكين أن يكون المعنى أن نتعلم من الآية الا يقترن بإنسان طيب إلا بامرأة طيبة، والا تقبل امرأة طيبة اقترانا إلا برجل طيب.

وأيا ما كان المعنى لقوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ...﴾ الآية فإننا نتعلم من ذلك عفة اللسان وتعظيم حرمات المسلمين والمسلمات، وتحيز الطيبين من الرجال عند الزواج إلى الطيبات من النساء، وفي هذا الأمان كل الأمان للمجتمع كله.

■ والمواقف التربوية التي تتعلم من الآيات في مجالي الدعوة والحركة كثيرة نذكر منها ما يوفق إليه الله تعالى فيما يلي:

١- على الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يعلموا المدعويين أن الصغائر من الذنوب والكبائر من الفواحش والمنكرات جميعا، إنما هي على وجه

اليقين اتباع لخطوات الشياطين.

والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما جاء ذلك على لسان النبي ﷺ، وكل ما يمارسه الإنسان من شر فإنما هو من وسوسة الشيطان وتزيينه واتباع خطوه، بل اتخاذه وليا يأمر فيطاع، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

● إن على الدعاة أن ينبهوا الناس إلى أن الله تبارك وتعالى قد حذر من الشيطان ومن اتباع خطواته في القرآن الكريم أربع مرات في أربع آيات:

– إحداها تعليم الناس كيف يتعاملون مع ما أباح الله من الطيبات والانتفاع بكل ما في الأرض ما دام حلالا طيبا، وكيف يحذرون الشيطان الذي يغري بالحرام ويغري بالانحراف عن منهج الله، فقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

[البقرة: ١٦٨]

– والثانية هذه الآية من هذه السورة ينهى المسلمين فيها عن اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾ الآية.

– والثالثة: في تعليم المؤمنين أن الأصل في التعامل مع الناس هو الصفح والمسالمة والملاينة، سواء أكان ذلك في أمة الدعوة أم في أمة الإجابة، إلا أن يوجد ما يدعو إلى غير ذلك، ومن لم يلتزم بهذه الأحكام والآداب فقد اتبع خطوات الشيطان العدو المبين للإنسان، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

– والرابعة: في مجال تعليم الناس أن التحليل والتحريم من عمل الله سبحانه، وأن الذين يدَّعون التحليل لما حرم إنما يتبعون خطوات الشيطان قال الله تعالى:

﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (١٤٢) ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

[الانعام: ١٤٢ - ١٤٤]

● إن على الدعاة والحركيين ان يركزوا على وجوب اتخاذ الشيطان عدوا، ينبغي أن يواجه بما يواجه به العدو من إصرار على إفساد خططه وتدبيره، واجتهاد في اتخاذ كل الأسباب وأنواع الإعداد لمواجهته والتغلب بحليه وعناده في كل ما يوسوس به.

إن رفض الاستجابة للشيطان رفضا مطلقا هو دليل الإيمان العميق علامة النضج العقلي والرشد الاجتماعي، وذلك هو التدين الصحيح.

إن واجب الدعاة إلى الله أن يطهروا المجتمع المسلم من الفساد والمفسدين، ومن الذنوب والمذنبين، ووسيلتهم إلى ذلك هي التحذير من الشيطان، ليطمئن المجتمع ويعيش أمنا واستقرارا.

● وإن شياطين الإنس لايقلون خطرا عن شياطين الجن، وإن طريق الدعوة إلى الله يقف على جوانبه عدد لا يستهان به من أولياء الشياطين، مهمتهم أن يصرفوا الناس عن الحق ويخوفوهم من التمسك به، ويطلقوا الشائعات ويحاولوا ما وسعهم تعويق موكب الدعوة، أو تحويله عن الصراط المستقيم صراط الله.

ولقد حذر رسول الله ﷺ من هؤلاء الشياطين المنبثين على جوانب الطريق المستقيم، فقد روى أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط

رسول الله ﷺ خطا بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيما، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾.

[الأنعام: ١٥٣]

● وهذا الذي حذر منه رسول الله ﷺ هو ما يجب أن يحذر منه الدعاة أنفسهم والمدعوين وكل الناس.

٢- وعلى الدعاة إلى الله والحركيين أن يبصروا أنفسهم والمدعوين الذين يتعاملون معهم، بل يفقهوهم أن العفو والصفح والتسامح هو الأصل، وهو الواجب الذي أوجبه الله تعالى على من يرغبون في مغفرته وصفحه سبحانه وتعالى.

وإن العفو والتسامح إذا كان مطلوبا على مستوى المسلمين جميعا كما أوضحنا آنفا، فإنه على مستوى الدعوة والحركة يكون أوجب، وذلك أن الأخطاء والتجاوزات في هذين المجالين تكون أكثر وضوحا لصدورهما ممن لا يتوقع منهم خطأ أو تجاوز.

وبغض النظر عن الأسباب التي تدعو بعض العاملين في مجالي الدعوة والحركة إلى الخطأ والتجاوز، سواء أكانت هذه الأسباب وافدة من خارج العاملين في مجالي الدعوة والحركة، أم كانت نابعة من داخلهم، لقصور في التربية والالتزام، بغض النظر عن هذه الأسباب، فإن ترك التسامح والعفو مع هؤلاء المتجاوزين يشق الصفوف ويفرق الكلمة ويبدد قوة الوحدة، وكل ذلك من أهداف أعداء الإسلام والحركة الإسلامية والدعوة إلى الله، وما ينبغي أن يعطي هؤلاء الأعداء فرصة لتحقيق أهدافهم.

ولكن ليس معنى العفو والتسامح مع المخطئين والمتجاوزين هو تركهم يخطئون ويتجاوزون، وإنما يكون هنا نوع من الحوار الداخلي والنقد الذاتي، يكون رائده

مقاومة هذه الأخطاء والتجاوزات بالحسنى والحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

● والذي أحذر منه ـ بعد طول معاناة في هذا المجال ـ أن تثور الأعصاب ويشتد الغضب، وتكشف هذه الأخطاء والتجاوزات أمام المتربصين بالعمل الإسلامي كله ـ كما حدث ذلك في بعض الأحيان فكان هدية عظيمة قدمت إلى أعداء الإسلام أخذوا من خلالها يكيلون التهم للإسلام وللعمل الإسلامي كله.

● كما أن السكوت المطلق على هذه الأخطاء والتجاوزات، خطأ قد يغري المخطئين والمتجاوزين بالمضي في تجاوزاتهم، فلا ينبغي السكوت على ذلك، كما لا ينبغي التشهير بذلك، وكما أسلفت فإن الحوار واتباع الحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن، وإحاطة المخطئ أو المتجاوز بأسباب التوبة والإنابة هو العمل الراشد الذي يرضي الله تبارك وتعالى، ويتفق مع منطق العفو والتسامح الذي نادى به الإسلام.

● وإذا كان العفو مطلوبا حتى في الدماء والأعراض والحقوق، أفلا يكون مطلوبا مع مخطئ في مجالي الدعوة والحركة ما أراه إلا اجتهد فأخطأ، أو تعمد الخطأ لسوء فقه أو حتى وسوسة شيطان.

● وإن الآيات القرآنية التي طالبت بالعفو والتسامح كثيرة نذكر منها قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقوله عز وجل: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

وقوله عز وجل: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقوله سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

● إن الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية مطالبون في هذا المجال بأكثر من ذلك:

إنهم مطالبون بأن يصبروا على من يسيئون إليهم من داخل الحركة الإسلامية ويتهمونهم بالتقصير أو القصور، ويطعنون حينا في كفاءتهم وحينا في إخلاصهم، ويحملونهم كل أسباب الفشل في العمل من أجل الإسلام، ويحملونهم ما لا يطيقون وما لا يستطيع هؤلاء الناقدون أن يتحملوا !!!

ومع ذلك فالدعاة والحركيون مطالبون بالصبر على كل هذا، ثم هم مطالبون بنسيان أنفسهم والصفح عن إخوانهم.

● إن من يتصورون من الدعاة أو الحركيين أن العمل في مجالي الدعوة والحركة خالٍ من الخطأ والتجاوز، والإسراع بالاتهام، والنقد الهادم لا البنَّاء، يعيشون في عالم مثالي لا وجود له في أي زمان أو مكان، إن هؤلاء المخطئين بشر، وخيرهم من تاب وأناب والله يتقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات.

٣- وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يبصروا كل الناس الذين تعاملون معهم بأن عفة اللسان وعفة النفس تعني التغلب على شهوات النفس

وهمزات الشياطين.

● فمن معانيها العفة عن الوقوع فيما حرم الله، وذلك مطلوب من قبل الشريعة بعدد الآيات والأحاديث.

● ومن معانيها الكف عما لا يحل ولا يحمد، وذلك مطلوب شرعا.

● ومن معانيها ترك المسالة وترك الحرص والبخل، وذلك مطلوب من قبل الشريعة كذلك.

● ومن معانيها منع النفس عن شهواتها بنوع من الممارسة والقهر، وهذا مطلوب شرعا كذلك.

وليس من العفة ولا من الخلق ولا من الإسلام رمي المحصنات الغافلات المؤمنات، بل لأولئك الذين يرمون من العذاب في الدنيا والآخرة ما سبق أن أوضحناه.

وإن تركيز الدعاة من الرجال والنساء على تأكيد هذه المعاني في نفوس الناس وغرس العفة فيهم بكل معنى من معانيها هو الذي يعطي للمجتمع المسلم حقه من التوقير والتكريم، وينقيه من عيوب الغيبة والنميمة والفحش والبذاء، وكل تلك أمراض حملها إلينا دعاة التسيب من أعداء الإسلام ورافضي قيمه الخلقية من أولئك الذين يرون في الأخلاق قيودا وقبوعا في عالم الظلام، بينما يرون التهجم على الحق وعلى الخلق تنويرا للعقول وإبداعاً تكفله حرية الرأي، أولئك الذين رحبوا بما كتبه الأدعياء ضد الإسلام ورسوله وعالم الغيب.

إن المسلم الحق لا يسمح له دينه ولا تسمح له نفسه أن يسب دينا ولا نبيا، أيا كان هذا الدين، لكن الغافلين يرون في التهجم على الدين تنويرا وتقدمية ورفضا للغيبيات والظلاميات!!!

إن هؤلاء لو عرفوا العفة لعفت ألسنتهم وعقولهم وأيديهم وأرجلهم عما

يجدفون فيه من باطل وزور.

وليس لنا إلا أن نسأل الله سبحانه الهداية لهم، وأن نقول كما قال قدوتنا محمد ﷺ: فيما رواه البيهقي بسنده مرسلا(١) عن عبد الله بن عبيد بن عمر: إن الله لم يبعثني طعانا ولا لعانا، ولكن بعثني داعيا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

أو نقول لهم كما قال نبي الله شعيب عليه السلام لقومه وقد أغلظوا وعزموا على إخراجه من قريته: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]

ونسأل الله الهداية لكل ضال إنه سميع مجيب.

٤- وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يفقهوا الناس بسنة الله في خلقه، سنته التي لا تتخلف أبدا، وقد كانت سنته فيمن قبلنا ولا تزال سنته فينا وفيمن يأتي بعدنا من الناس إلي أن يقوم الناس لرب العالمين أن لا يستوى الخبيث والطيب، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [المائدة: ١٠٠] تلك سنة الله تعالى، وعلى عباده أن يفقهوها وذلك عمل الدعاة إلى الله.

فإذا بصر الدعاة الناس بأن الكلمات الخبيثة لا تصدر إلا من أناس خبثاء، وأن الكلمة الطيبة تخرج من أفواه أناس طيبين، حاول كل منهم أن يبتعد عن الكلمة الخبيثة لكي لا يكون خبيثا، وأن ينطق الكلمة الطيبة حتى يكون طيبا.

والكلمة الطيبة يتقي بها المؤمن النار، فقد روى البخاري بسنده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «...فليَتَّقِيَنَّ أحدكم النار ولو بشق تمرة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة» والكلمة الطيبة تصعد إلى الله. والكلمة الخبيثة نهى

(١) الحديث المرسل: هو الذي سقط الصحابي من سنده ورواه التابعي عن رسول الله ﷺ.

عنها رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذيء».

وشأن الكلمة الطيبة أو الكلمة الخبيثة في مجالي الدعوة والحركة أجل مكان وأعلاه، فلو خبثت الكلمة لانفض المدعوون وأثم الدعاة، ولو طابت الكلمة لازداد إقبال الناس على الله وغنم الدعاة وفازوا.

والآية الكريمة التي تؤكد هذ المعاني وتؤصلها هي قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

● والآية الكريمة يمكن أن يفهم منها كما قال بذلك أهل التأويل أن النساء الصالحات للرجال الصالحين والرجال الصالحين للنساء الصالحات، وهذا أدب يأخذ به الدعاة عند الزواج والتزويج وهو مذهب صحيح في عقد العلاقة الزوجية يسانده في ذلك أكثر من حديث نبوي شريف.

فعند رغبة الرجل الصالح في الزواج عليه أن يظفر بذات الدين أولاً ثم قد يكون مع الدين جمال أو مال أو مكانة.

وعند تقدم رجل للتزوج من مسلمة صالحة، فإن عليها وعلى أوليائها أن ينظروا إلى دينه وأمانته فيزوجوه أو يرفضوا.

إن على الدعاة أن يؤكدوا هذه المعاني في مجالي الدعوة والحركة، حتى لا يفتر رجل صالح عن العمل من أجل الإسلام إذا تزوج بامرأة غير صالحة بهره فيها جمال أو مال.. وحتى لا تفتر امرأة صالحة عن العمل من أجل الإسلام إذا هي قبلت أن تتزوج من رجل غير صالح بهرها منه ماله أو مكانته.

وإن هذا وذلك لمن الوقائع المشاهدة في مجالي الدعوة والحركة عند التغاضي

عن هذا الشرط أو ذاك في الأدب في الزواج والتزويج.

● وعلى الدعاة والحركيين أن يؤكدو ا للعاملين في مجالي الدعوة والحركة أي تهم وجهت إليهم، وأي كلمات خبيثة وصفوا بها وأي تهجمات أو مفتريات زورت عليهم، فما ينبغي أن تشغلهم عن المضي في طريق الدعوة إلى الله، وإنما عليهم أن يضنوا بوقتهم وبجهدهم عن أن ينفقوه في الرد على هذه التهم وتلك المفتريات أما إذا كانت التهمة موجهة إلى الإسلام والمفتريات متصلة بقواعده وأصوله وأخلاقه وآدابه، أو برسوله ﷺ، فإن على بعض الدعاة رد هذه الشبهات ودحض هذ المفتريات في حيادية وموضوعية، وبعيدا عن التهجم على أولئك الذين وجهوا التهم وأثاروا الشبهات والمفتريات لأن ذلك هو خلق الإسلام وهو هدى محمد ﷺ وهو في الوقت نفسه قد جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وفي قوله عز وجل: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

[فصلت: ٣٤]

● وما ينبغي أن ينشغل الدعاة بالدفاع عن أنفسهم، فإن رسول الله ﷺ وهو القدوة، ما كان يغضب لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله تعالى.

وحسب الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية إذا سكتوا عن الدفاع عن أنفسهم أن الله تبارك وتعالى يدافع عنهم فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

● وحسب الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن إذا أصابهم من أعدائهم شر أو ضرر فصبروا واحتسبوا أن يوفيهم الله أجر الصابرين، والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب عند الملك الرحيم يوم القيامة، فأي الأجرين أكبر وأنفع؟ أجر

الدنيا أم أجر الآخرة؟ إن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

وحسبهم أن الله تبارك وتعالى قال عن أمثالهم ممن ظلموا والصقت بهم التهم الكاذبة: ﴿ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾.

● إن المجتمع المسلم مجتمع إنساني بكل ما في الإنسان من فضائل ورذائل ومزايا وعيوب، ومجالات الدعوة والحركة فيهما أيضا هذه الفضائل والمزايا أو بعض الرذائل والعيوب، وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية ان يتعاملوا مع هذا الواقع وأن يصلحوا فيه كل ما يحتاج إلى إصلاح.

* * *

الآيات من السابعة والعشرين إلى التاسعة والعشرين

في: أحكام استئذان الأجانب بعضهم على بعض وأحكام المخالطة بينهم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾.

■ هذه الآيات الكريمة تخاطب المؤمنين وتعلمهم أحكاما وآدابا تتصل بالاستئذان في دخول البيوت الخاصة بغير الأقارب، وتوضح لهم أحكاما خاصة بنوعين من البيوت:

الأول: بيوت الأجانب المسكونة بأهلها.

والآخر: البيوت العامة التي يدخلها كل من له حاجة فيها. ولكل من النوعين أحكام وآداب.

ولهذه الأحكام والآداب صلة وثيقة بإصلاح الناس وإصلاح المجتمع، فالأصل أن كل بيت له حرمة يجب أن يتقى انتهاكها، ولدخوله أدب يجب أن يراعى، فهي توضح لهم كيف يتزاورون ويختلطون في ظل أدب الإسلام واحترامه للحرمات والآداب، وتمنع بذلك التشريع أسباب الشر والإضرار بالناس.

وأبسط هذه الأضرار إذا ترك دخول البيوت بغير استئذان أن يطلع الزائر لهذه البيوت على ما لا يحب أهل البيت أن يطلع عليه سواهم.

وهذا من العلامات البارزة على أن تشريعات الإسلام ونظمه وآدابه تتغلغل في دقائق العلاقات الاجتماعية، وترسم لها الخطوط التفصيلية، بل تضع حلولا لكل

المشكلات التي قد تنشأ من تزاور الأجانب وتخالطهم.

وهذه الآيات تهتم بالتزاور بين الأجانب، تاركة التزاور بين الأقارب لآيات أخرى تأتي قرب نهاية السورة توضح فيها أحكام دخول الأقارب واستئذانهم على ذويهم.

■ وقد تضمنت الآيات الكريمة نداء ونهيا وأكثر من شرط، كما تضمنت تقريرات عظيمة ختمت بها.

– أما النداء فهو نداء الذين آمنوا، يناديهم الله تبارك وتعالى ليبلغهم تلك الأحكام والآداب الخاصة بالاستئذان عند دخول بيوت الأجانب مسكونة بأهلها أو غير مسكونة إذا كان فيها متاع أي حاجة لهم. والاستئذان هنا هو استئناس وسلام على نحو ما سنوضح بعد قليل.

– وأما النهي: فهو نهي المومنين عن دخول بيوت غير بيوتهم إلا بشرط الاستئناس والتسليم على أهلها قبل الدخول.

● الاستئناس هو: الأنس الحاصل من جهة المجالسة، وحتى تستأنسوا أي تجدوا إيناسا. أو تستأنسوا بالإذن.

والاستئناس: الاستعلام والاستكشاف، والمعنى أن يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن؟

● والتسليم يعني: إلقاء السلام والاستئذان في الدخول كما ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقول: السلام عليكم. أأدخل؟

وهذا النهي للتحريم. كما يدل على ذلك ظاهر الآية الكريمة: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ والنهي كالأمر كلاهما مقصود من جهة الشارع الحكيم: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩] ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والنهي في الآية الكريمة يقتضي ترك المنهي عنه وهو دخول بيوت الغير بغير استئناس وتسليم.

● وقال بعض المفسرين: إن الاستئناس بمعنى الاستكشاف والاستعلام أي تستكشفوا وتستعلموا هل يراد دخولكم؟

ويكون الاستئناس من: آنس الشيء إذا رآه ظاهرا مكشوفا، ومنه قولهم: استأنس هل ترى أحدا؟

● وقد يكون استأنسوا: أن تتنحنحوا ليشعروا بكم، أو سمُّوا أو كبِّروا ونحو ذلك من الأصوات والكلمات.

● وأما الاستئذان فهو طلب الإذن بالدخول، وقد تميز الاستئذان في الإسلام عما كان عليه في الجاهلية بأمور منها:

– كان الرجل من أهل الجاهلية إذا دخل بيتا غير بيته قال: حييتم صباحا أو حييتم مساء، ثم يدخل دون انتظار وقبل أن يؤذن له فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف واحد.

– أما الإسلام فجعل الاستئذان بإلقاء السلام: السلام عليكم، ثم يطلب الإذن قائلا: أأدخل، ثم لا يدخل حتى يؤذن له.

روى الإمام أحمد بسنده عن رجل من بني عامر قال: قال رسول الله ﷺ وقد استأذن عليه رجل، فقال الرجل: أألج؟ فقال رسول الله ﷺ لجارية يقال لها: روضة: اخرجي إليه فإنه لا يحسن الاستئذان، فقولي له: فليقل: السلام عليكم أأدخل؟ فسمعها الرجل فقالها، فقال له رسول الله ﷺ: «ادخل» فدخل وسأل رسول الله ﷺ عن أشياء وكان يجيب، فقال: هل في العلم ما لا تعلمه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لقد آتاني الله خيرا كثيرا، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله وتلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

[لقمان: ٣٤]

● وروى الإمام أحمد بسنده أن كلدة بن الحنبل أخبره أن صفوان بن أمية بعثه في الفتح بلبأ[١] وجداية[٢] وضغابيس[٣] والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن، فقال ﷺ: «ارجع فقل: السلام عليكم أأدخل» وذلك بعد أن أسلم صفوان.

● روى ابن أبي حاتم[٤] بسنده عن خالد بن إياس قال: حدثتني جدتي أم إياس قالت: كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة رضي الله عنها فقلن: ندخل؟ فقالت لا، قلن لصاحبتكن تستأذن، فقالت السلام عليكم أندخل؟ قالت: ادخلين ثم قالت: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا .. ﴾ الآية.

● وإنما جعل الاستئذان من أجل النظر، فلا يجوز لأحد أن يمد عينه إلى قعر البيت قبل الاستئذان، فقد روى الطبراني في الأوسط بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يشهد أني رسول الله فلا يدخل على أهل بيت حتى يستأذن ويسلم، فإذا نظر في قعر البيت فقد دخل».

● وإنما شرع الاستئذان لئلا تعرف الأحوال التي يطويها الناس في العادة عن

---

(١) اللبأ: هو أول اللبن عند الولادة.

(٢) والجداية: ولد الظبي لم يبلغ ستة أشهر ويطلق على ولد الشاة وغيرها.

(٣) والضغابيس: ولد الشاة وغيرها أو القثاء.

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم بن إدريس الحنظلي الرازي أبو محمد (٢٤٠ - ٣٢٧هـ) من كبار حفاظ الحديث وعلمائه، له مؤلفات عديدة منها: الجرح والتعديل في ثمانية مجلدات، والمسند، والمراسيل وعلل الحديث وكلها في علم الحديث وعلم الرجال، وله: الرد على الجهمية، والفوائد الكبرى، وغيرها.

غيرهم، ويتحفظون من اطلاع أحد عليها، روى البخاري بسنده عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: وقد اطلع رجل من جحر في حجر النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مِدْرى يحك به رأسه، فقال: «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك إنما جعل الاستئذان من أجل البصر».

وبهذا الحديث الشريف استدل الإمام الشافعي رحمه الله على أن فقأ عين الناظر إلى قعر البيت قبل الاستئذان هَدَر. وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من اطلع في دار قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فقد هدرت عينه».

وروى الترمذي بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كشف سترا فأدخل بصره في البيت قبل أن يؤذن له فرأى عورة أهله، فقد أتى حدا لا يحل له أن يأتيه، لو أنه حين أدخل بصره استقبله رجل ففقأ عينه ما عيرَتْ عليه، وإن مر رجل عل باب لا ستر له غير مغلق فنظر فلا خطيئة عليه، إنما الخطيئة على أهل البيت».

● وعدد مرات الاستئذان ثلاث:

قال الفخر الرازي: روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الاستئذان ثلاث، بالأولى يستنصتون وبالثانية يستصلحون، وبالثالثة يأذنون أو يردون»(١).

وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال: كنت جالسا في مجالس الأنصار، فجاء أبو موسى فزعا، فقلنا له ما أفزعك؟ فقال: أمرني عمر أن آتيه فأتيته فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقال قد جئت فاستأذنت ثلاثا فلم يؤذن لي وقد قال عليه الصلاة

---

(١) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ٢٣/ ١٧٢ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

والسلام: «إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع» فقال: لتأتيني على هذا بالبينة أو لأعاقبنك، فقال: أُبيّ (بن كعب) لا يقوم معك إلا أصغر القوم، قال فقام أبو سعيد فشهد له». وفي بعض الروايات أن عمر قال لأبي موسى إني لم أتهمك، ولكني خشيت أن يتقول الناس على رسول الله ﷺ.

وفي رواية فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله ﷺ، ألهاني الصفق في الأسواق.

وقال قتادة: الاستئذان ثلاثة: الأول يسمع الحي، والثاني: ليتأهبوا، والثالث: إن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا».

قال الرازي:(١) «واعلم أن هذا من محاسن الآداب، لأن في أول مرة ربما منعهم بعض الأشغال من الإذن، وفي المرة الثانية ربما كان هناك ما يمنع، أو يقتضي المنع أو يقتضي التساوي، فإذا لم يجب في الثالثة يستدل بعدم الإذن على مانع ثابت، وربما أوجب ذلك كراهة قربه من الباب، فلذلك يُسنّ له الرجوع ولذلك يقول: يجب في الاستئذان ثلاثة ألا يكون متصلا، بل يكون بين كل واحدة والأخرى وقت.

فأما قرع الباب بعنف، والصياح بصاحب الدار، فذلك حرام لأنه يتضمن الإيذاء والإيحاش، وكفى بقصة بني أسد زاجرة، وما نزل فيها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

● وكيف يقف المستأذن على باب من يستأذنهم؟

روى أبو داود بسنده عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السلام عليكم، السلام عليكم».

(١) السابق: ٢٣/ ١٧٢.

ولو لم يتقيد المستاذن بهذا لوقعت عينه داخل البيت قبل أن يؤذن له، وذلك حرام كما أوضحنا آنفا.

وروي أن أبا سعيد رضي الله عنه استاذن على رسول الله ﷺ مستقبل الباب، فقال عليه الصلاة والسلام: لا تستاذن وأنت مستقبل الباب».

● وهل يستاذن الرجل على محارمه من النساء؟

قال العلماء: نعم يستاذن.

قال الفخر الرازي: «عن عطاء بي يسار: أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال أستاذن على أختي؟ فقال النبي ﷺ نعم. اتحب أن تراها عريانة».

وسال رجل حذيفة رضي الله عنه: أستاذن على أختى ومن أنفق عليها؟ فقال: إن لم تستاذن عليها رأيت ما يسوؤك»[1].

وقال ابن كثير: قال عطاء لابن عباس رضي الله عنهما: استاذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال: نعم فرددت عليه ليرخص لي فابى، فقال: اتحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا. قال فاستاذن، قال فراجعته أيضا فقال: اتحب أن تطيع الله؟ قال قلت: نعم قال: فاستاذن»[2].

● ومن خلال ما قدمنا عن الاستئذان نعرف أنه يقتضي إذنا أو منعا أو سكوتا.

فإن اذن له فذاك، وإن منع بصريح القول فذاك قوله تعالى: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾.

وأما السكوت فقد ظهر حكمه في موقف أبي موسى مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

ـ وأما أسلوبا االشرط في الآيات فهما:

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير: ٢٣ / ١٧٢.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٢٨٠.

الأول:

● ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾.

فأداة الشرط: إنْ.

وفعل الشرط: لم تجدوا.

وجوابه: فلا تدخلوا حتى يؤذن لكم.

والمعنى: حظر الدخول إلا بإذن.

ومن الإذن إرسال رسول إلى من يستاذن، أو توجيه دعوة إليه، فمع الرسول ومع الدعوة لا حاجة إلى الإذن لان ذلك إذن، روى أبو هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال: «إذا دُعي احدكم فجاء مع الرسول فإن ذلك له إذن».

ويرى بعض العلماء انّ من جرت العادة له بإباحة الدخول فهو غير محتاج إلى الاستئذان.

والآخر:

● ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ﴾.

فأداة الشرط: إنْ.

وفعل الشرط: قيل لكم ارجعوا.

وجواب الشرط: فارجعوا هو أزكى لكم.

والمعنى أن المستاذن على غير بيته إذا لم يجد في البيت أحداً فلا يجوز له ان يدخله لان ذلك لا يحل له.

وإن كان أهل البيت فيه ولم يأذنوا له في الدخول وجب عليه ان يرجع، ولم يحل له الدخول.

وكل هذا هو أزكى للمؤمن وأطهر لقلبه وأبعد له عن الوقوع فيما لا تحب

الشريعة له أن يقع فيه.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ يعني إن استجبتم لهذه الأحكام وأطعتم ربكم فيها فإن الله تبارك وتعالى عليم بهذه الاستجابة ومجازيكم عليها خير الجزاء.

قال ابن كثير: قال بعض الصحابة من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع، فارجع وأنا مغتبط.

وقال سعيد بن جبير في الآية: أي لا تقفوا على أبواب الناس.

– وأما البيوت غير المسكونة، فهي: الخانات والرباطات وحوانيت البياعين، وقيل الأسوق، وقيل الحمامات.

وأوضح ما قيل فيها: أنها البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان للداخل إليها متاع فيها وهو قول عكرمة(١) والحسن البصري(٢).

كل هذه البيوت يدخلها من له حاجة فيها بغير إذن.

وإنما استثنيت هذه البيوت من الإذن، لعمومها من ناحية، ولأنه ليس لها أصحاب من ناحية أخرى، ولما فيها من منفعة لداخلها من ناحية ثالثة كالاستكنان من الحر والبرد، وإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع والاغتسال ونحو ذلك.

---

(١) هو عكرمة بن عبد الله البربري المدني (٢٥ – ١٠٥هـ) مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، تابعي جليل كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي روى عنه زهاء ثلاثمائة رجل منهم أكثر من سبعين تابعيا، مات بالمدينة المنورة هو وكثير عزة في يوم واحد فيل: مات أعلم الناس وأشعر الناس.

(٢) هو الحسن بن يسار البصري أبو سعيد (٢١ – ١١٠هـ) تابعي جليل كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة وهو عالم فقيه نصيح شجاع في الحق لا يهاب فيه أحداً ولد بالمدينة المنورة وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وسكن البصرة، وبها توفي عليه رحمه الله.

أما حوانيت البياعين فيرى بعض العلماء الاستئذان في دخولها، وإن مجرد فتحها إذن من صاحبها ليدخلها كل من له متاع - أي مصلحة - ففي دخولها مصلحة بيع أو شراء أو نحوها.

– وأما ما جاء في الآيات الكريمة من تقرير لبعض الحقائق، فنستطيع بعون من الله وتوفيق أن نذكر منها ما يلي:

● الحقيقة الأولى: أن الاستجابة لأحكام الشريعة خير للإنسان على كل حال وفي كل حين، هي خير للمستأذن والمستأذن عاليه، خير للجميع لعلهم يتذكرون هذا التأديب فيتمسكوا به.

● والحقيقة الثانية: أن الالتزام بأحكام الشريعة وآدابها في الاستئذان، هو أزكى وأطهر لقلوب المؤمنين، وهو الجدير بأن يثيب الله عليه أحسن الثواب.

وهي حقيقة بحيث نستطيع أن نؤكد أن الاستجابة لأحكام الشريعة وآدابها في كل أمر من أمور الحياة - والشريعة وضعت لكل شعبة من شعب الحياة أحكاما وآدابا - وهو أزكى لنفس المؤمن وأطهر لقلبه وأجدر بأن يثيب الله على تلك الاستجابة.

● والحقيقة الثالثة: أن الله تعالى يعلم ما يظهر الناس وما يبطنون وما يعلنون وما يسرون من قول أو فعل، ويجازي كلا بما عمل، ويتفضل على من يشاء من عباده فيعفو ويصفح لمن يشاء ما يشاء إلا أن يكون شركا به سبحانه وتعالى.

■ والمواقف التربوية العامة في الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما ييسر الله ويعين عليه فيما يلي:

١– أن زيارة الناس بعضهم لبعض في بيوتهم وتعارفهم وتآلفهم وتعاونهم على البر والتقوى عمل مشروع تقره شريعة الإسلام وأن دخول هذه البيوت ومخالطة أهلها له أحكام شرعية وآداب يجب أن تراعى وتلتزم، حتى تكون العلاقات الاجتماعية بين المسلمين نقية سليمة بعيدة عن التنازع والشر، غير مفضٍ إلى شيء

حرمه الله تبارك وتعالى.

من أجل تحقيق ذلك شرع الله تعالى الاستئذان لدخول بيوت الناس، ومنع اقتحام هذه البيوت دون استئناس وتسليم.

وهذا تأكيد لحرمة المسكن واحترام الخصوصية، وحرمة بيوت الناس وما فيها مما لا يحب أهلها أن يطلع عليه سواهم دون إذن منهم كما أوضحنا ذلك في شرح الآية الكريمة، ونعود فنذكر بقول الرسول ﷺ: «...إنما جعل الاستئذان من أجل النظر».

يا سبحان الله ما أحكم تشريعه وما أعدله وما أقدره على حماية الإنسان وتكريمه واحترام خصوصياته!!!!

كان هذا الاحترام لبيوت الناس وخصوصياتهم ولا يزال أقوى الأدلة على أن الشريعة الإسلامية تستهدف في كل تشريع من تشريعاتها كرامة الإنسان وتقدير حرياته وخصوصياته، ولا تبيح انتهاكها أو العبث بها.

ألا ما أحوج تلك الوحوش الكاسرة التي تنتهك بيوت الناس وتبدد ما فيها وتروع نساءها وأطفالها بحجج واهية أوغير واهية!!!

إن حرمة البيت وحرمة الخصوصية ما ينبغي أن تنتهك بأي حال ومهما كان السبب، وليكن رب البيت مجرما أو قاتلا أو جانيا جناية كبرى، ولْيَنَلْ جزاءه وعقابه الذي قد يصل إلى حد الإعدام لكن وهو موفور الحقوق الإنسانية التي منها خصوصية بيته وأمنه فيه وأمن ذويه.

متى يرتقي الناس في التعامل مع الإنسان إلى المستوى الرفيع الذي نادى به الإسلام قبل أربعة عشر قرنا من الزمان؟

إن الإسلام حرم النظر إلى داخل بيوت الناس دون استئذانهم فضلا عن الدخول والانتهاك والإفساد!!!

٢– ونتعلم من الآيات أن كل ما جاء من عند الله من نظام وتشريع هو خير للناس عموما وللمؤمنين على وجه الخصوص لأنه سبحانه وتعالى رب الناس وخالقهم العالم بما يصلحهم المحب للطائع منهم.

من حكم التشريعات الإسلامية

فكل ما طالبهم الله به من حكم التشريعات الإسلامية أو ندبهم إليه خير لأنه الله سبحانه لا يأمر بالشر ولا يرضاه، بل يجعل حب الخير وممارسة الإنسان له سبباً في رضاه سبحانه عن الإنسان.

أما أن تشريع الله ومنهجه خير للناس جميعا حتى غير المؤمنين، فسره أن تلك التشريعات تضمن للإنسان كرامته وخصوصياته حتى ولو كان غير مؤمن.

وهي تشريعات تمنع أن يقع الظلم على أحد من الناس حتى ولو كان من المشركين، وتعطي حق الحياة وكرامة الإنسان وحرمته لكل أحد من الناس بغض النظر عن دينه.

أما التشريعات التي تبيح قتل الإنسان أو قطع شيء من أطرافه أو جلده، فهي لتأديب الجناة وتخليص المجتمع من شرورهم وآثامهم، ولزجر غيرهم عن الوقوع فيما حرم الله.

وأما أن هذه التشريعات خير للمؤمنين فواضح نشير إلى بعضه فيما يلي:

أ– هي خير للمؤمنين لأن تطبيقها والأخذ بها يطهر قلوب المؤمنين من المعاصي ومن كل ما يغضب الله، وتشعرها بعز طاعة الله سبحانه، والمؤمن في هذه الحالة يكون موضع رضا ربه سبحانه فينال بذلك سعادة الدنيا والآخرة.

ب– وهي تشريعات يؤدي الأخذ بها إلى تزكية الإيمان وزيادته وتقويته، وذلك أن هذه التشريعات، يتعبد لله بتطبيقها والالتزام بها، وكلما كثرت العبادات لله وأديت على وجهها كلما زكا إيمان المؤمن وزاد بهذه الطاعات.

ج- وهي تشريعات بالغة الدقة في حسم موضوع الحقوق والواجبات بالنسبة للإنسان، فهي تشريعات تضمن الحقوق وتلزم بالواجبات إلزاما، وإذا التزم المؤمن بواجباته فقد أرضى ربه وحظى من هذا الرضا بسعادة الدارين.

د- وهي تشريعات يؤدي الأخذ بها إلى تقوية الروابط بين المؤمنين ودعم أخوتهم في الدين، وهذا يكون منهم قوة قادرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وللتمكين لدين الله في الأرض.

هـ- وأنها تشريعات يؤدي الأخذ بها إلى اطمئنان المؤمن على إيمانه، وعلى اداء ما أمره الله به واجتناب ما نهاه الله عنه دون أن يفتات عليه أحد، أو يحول بينه وبين طاعته لربه وتقربه إليه.

وفي هذا أمان وسلام للمجتمع كله.

٣- ونتعلم من الآيات أن نربي أنفسنا وغيرنا ممن لنا عليهم حق التوجيه، أن الاستئذان مطلوب في كل موقف يجد المسلم نفسه فيه قد يأتي مع أحد الناس عملا لا يرغب فيه ذلك الإنسان، لأن ذلك خلق الإسلام وأدبه.

إن خلق الاستئذان يجب أن يكون خلقا مستمرا عند المسلم حتى في المواقف التي يتوهم بعض المسلمين أن ليس فيها استئذان كما يحدث داخل البيوت، إذ قد يتصور بعض الناس أنه لا داعي لأن يستأذن على أمه أو أخته أو ابنته عندما يدخل عليها وهو خطأ يعد من البلوى العامة، إذ الأصل أن يستأذن حتى على محارمه.

● روى ابن كثير بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم».

● وروى أيضا بسنده عن عدي بن ثابت رضي الله عنه قال: «إن امرأة من الأنصار قالت: يارسول الله: إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني

أحد عليها، لا ولد ولا والد، وانه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال. قال: فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ..﴾ الآية.

وقال ابن جُرَيج(١): سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ثلاث آيات جحدها الناس:

● قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ويقولون إن أكرمهم عند الله أعظمهم شأنا.

● والإذن كله قد جحده الناس (مع أنه واجب بإجماع العلماء كما حكى ذلك أبو الحسن المالكي في شرع الرسالة) قال عطاء: فقلت له: أستاذن على أخواتي أيتام في حجري معي في بيت واحد؟ قال: نعم فرددت على من حضرني فأبى، قال أتحب أن تراها عريانة؟ قلت: لا، قال فاستاذن، فراجعته أيضا قال: أتحب أن تطيع؟ قلت نعم. قال: فاستاذن»(٢).

٤- ونتعلم من الآيات الكريمة أن التمسك بكل ما جاء من عند الله سبحانه من أحكام وآداب زكاة وطهارة ونماء للإنسان، وإذا (زكا) الإنسان بالاستجابة لكل ما أمر الله به، وانتهى عما نهى عنه استحق في الدنيا الأوصاف المحمودة وفي الآخرة الأجر والمثوبة.

وزكاة الإنسان لنفسه هي أن يتحرى ما فيه تطهيره، ولا يطهر الإنسان شيء كالطاعة لله تبارك وتعالى، والعبادات كلها وسائل لتزكية الإنسان نفسه وتطهيرها.

وما من شك في أن الالتزام بمنهج الله وأحكامه في كل أمور الحياة يطهر قلب المؤمنين والمؤمنات من الركون لأي منهج وضعي يلتمس فيه التغلب على أي مشكلة

(١) هو عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد (٨٠ - ١٥٠هـ) ويقال له أبو خالد أيضا. فقيه الحرم المكي، وإمام أهل الحجاز في عصره، وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة المكرمة. مكي المولد والوفاة، وكان من أصل رومي.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣ / ٢٨٠.

مما يواجه الإنسان في علاقاته الاجتماعية أو نظمه السياسية والاقتصادية، لأن الاعتماد على غير منهج الله وأحكامه اتباع لغير سبيل المؤمنين، وهو كفر نعوذ بالله لأي مسلم أو مسلمة قال تعالي: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]. وما من شك كذلك في أن الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية يجنب الناس ضرر التهجم والتنابز والتعادي والتباغض والتقاطع والتدابير سواء أكان ذلك الاتباع لأحكام الشريعة في صغير الأمور أو كبيرها، وذلك أنه شرع الله لعباد الله، ولا يجوز أن يشاركه سبحانه في وضع المنهج أحد من الناس.

٥- ونتعلم من الآيات أن الأحكام الشرعية كلها مبناها على المصلحة العامة للناس في دنياهم وآخرتهم، وأن هذه الأحكام الشرعية تقوم على أسس رئيسية لا تتخلف في حكم شرعي واحد فضلا عنها جميعا، وهذه الأسس كثيرة منها ما يلي:

أ- أن الله لا يكلف الناس ما لا يطيقون، أو ما يشق عليهم.

ب- وأنه سبحانه بهذه الأحكام الشرعية يرفع عن الناس الإثم والحرج والتضييق فليس في الدين كله حرج لأحد من المتمسكين به.

ج- وأنه حيثما تكون المصلحة فثم شرع الله، وفي هذه الآيات الكريمة، عندما تكون البيوت غير مسكونة ويكون للمسلم حاجة أو متاع، فإن الشريعة حينئذ تسقط عنه الاستئذان على الرغم من وجوبه في البيوت المسكونة - كما أسلفنا - وهذا معناه أن هذه الشريعة تعالج كل مشكلة وتحقق كل مصلحة للإنسان في معاشه أو معاده.

■ ومن المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة في هذه الآيات الكريمة ما نذكر بعضه فيما يلي:

١- على الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يعلموا الناس ويذكروا

أنفسهم بأن الشريعة الإسلامية نظمت للناس كل أنواع علاقاتهم الشخصية[١] وكل علاقاتهم الاجتماعية[٢] في القرآن الكريم كله وفي هذه السورة الكريمة بوجه خاص، وشرعت لهم في هذه وتلك ما يحقق لهم مصالحهم في الدنيا والآخرة، مما يجدون في التمسك به تزكية لنفوسهم وتطهيرا لقلوبهم.

ومن المقرر الذي لا يحتاج إلى تدليل أن هذه العلاقات بنوعيها الشخصية والاجتماعية قلما يحافظ الناس عليها ويلتزمون بحقوقها وواجباتها، وبذلك تكون التجاوزات بل الخصومات والعداوات، بل الحروب والصراعات، من أجل التخلص من كل تلك التجاوزات شرع الإسلام نظما لهذه العلاقات دقيقة بالغة الدقة في كل ما من شانه أن ينشأ عن جحد شيء من منهج الإسلام في هذه العلاقات.

إن الإسلام وضع حلا لكل مشكلة تنشأ عن الإخلال بنظام هذه العلاقات، وألزم المسلمين الأخذ بهذا المنهج بهذه الآيات الكريمة ونحوها من آيات القرآن الكريم.

أما في مجالي الدعوة والحركة فإن الأمر أكثر أهمية، لأن علاقات الدعاة بعضهم ببعض، وعلاقاتهم بالمدعوين على المستوى الشخصي أو المستوى الاجتماعي، يتناولها في بعض الأحيان بعض التجاوزات، ضنًّا ببعض واجباتها أو استكثارا من بعض حقوقها إذ الدعاة والحركيون أولا وأخيرا بشر غير معصومين من الخطأ والتجاوز، فكان لا بد من مراعاة هذا وعلاجه بالالتزام الدقيق بالمنهج في كل جزئية من جزئياته.

وعلى سبيل التمثيل والاستشهاد فقد تحدث هذ التجاوزات:

أ- بعض الدعاة أو الحركيين قد يفتر أو يقعد عن عمل واجب، لأنه ضنّ بجهده، أو ألقى عبء العمل على غيره، أو استجاب لترهيب أعداء

---

(١)، (٢) على نحو ما بينا في آيات السورة وعلى نحو ما سنبين في باقيها إذا أذن الله وأعان.

الدعوة أو ترغيبهم أو كان جانب الطاعة فيه غير مكتمل النضج، وعلاج هذه الحالات هو التذكير بما أوجب الله والتخويف من عاقبة التراخي، والكسل في الدنيا أولاً ثم في الآخرة عندما يقف بين يدي عزيز حميد.

ب- وبعضهم قد يحس بأنه كفاءة نادرة لفقهه، وطول تجربته فيكلف غيره بالعمل ويعفي نفسه منه قائلا لنفسه حسبك فطالما عملت، ولتتح لغيرك فرصة العمل، وهذا موقف له خطره التربوي في مجالي الدعوة والحركة، فهو قد يترك انطباعا في نفوس الآخرين بأن هذا الذي أعفى نفسه من العمل، قد ميز نفسه ـ والدين ينهى عن ذلك ـ او اصابه الغرور وإعجاب المرء بنفسه ـ وهذا حرام ـ أو ترك العمل مع ان العمل عبادة ـ وهذا ما لا يجوز.

وفي جميع الأحوال فإن علاجه: التذكير بالحكمة والموعظة الحسنة، والدعاء له بظهر الغيب.

وذلك ان العلاقات بين الدعاة أو بينهم وبين المدعوين يجب ان تكون خاضعة لمعايير الحق والعدل، بل الإحسان وكل الدعاة يعرفون ذلك ولكن الشيطان قد ينسي بعضهم.

ج- وبعض الدعاة قد تسول له نفسه أن يزين علمه أمام نفسه أو أمام غيره، فيقارن بينه وبين غيره من الدعاة ليبين امتيازه ووفرة إنتاجه، فيقع من أجل ذلك في عدد من الأخطاء نشير هنا إلى بعضها فيما يلي:

- أن ذلك من تزكية النفس وهذا مرفوض.
- وأنه من غمط أعمال إخوانه وهذا مرفوض كذلك.
- وأنه مناف لإخلاص العمل لله، فلو كان عمله خالصا لله تعالى ما رأى فيه امتيازا ولا تميزا، وإنما دأب المخلص لله أن يتهم نفسه وألا يرضى عن عمله.

● وأنه تضييع للوقت في غير طائل ولا فائدة.

● وأنه يترك أثرا سيئا في نفوس إخوانه ويخدعهم عن الحق والواجب، وينسيهم قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]، وفي هذا بلبلة وحيرة وقلق واضطراب لإخوانه من الدعاة، وفتنة للمدعوين وعلاجه: التذكير والدعاء له بظهر الغيب كذلك.

٢- وعلى الدعاة والحركيين أن يعلموا الناس أن الاستجابة لما شرع الله من منهج ونظام وأحكام وآداب هو وحده الذي يحقق للناس الخير في الدنيا والدين، وأن يذكروا أنفسهم ويفقهوا الناس بأن اتباع أحكام الشريعة يحقق للناس الخير في المجالات التالية:

● يعصم القلب عن النفاق والرياء والعجب.

● ويعصم العقل عن الزيغ والغرور واضطراب الرؤية.

● ويعصم الجوارح عن المعاصي، وما تجره على صاحبها من ذل وضياع.

● وتعصم الأخوة التي تربط بين الدعاة من التآكل والضياع وسوء الظن وسوء المصير - والعياذ بالله -.

وليس عجيبا أن يحدث بين الدعاة شيء من ذلك فهم - كما أسلفنا بشر لهم أخطاؤهم - وإنما العجب ألا يتنبه الدعاة إلى هذه العيوب وتلك الأخطاء وألا يعملوا على تلافيها!!!

إن بعض المدعوين قد تغيم أمامهم الرؤى فيتصورون أن الخير لهم في الدنيا قد يكون في الأخذ بمنهج آخر أو نظام أو أحكام غير ما جاء من عند الله، وقد يخدعهم في ذلك بريق بعض المبادئ وما ينعم به أصحابها من متع الحياة الدنيا، متناسين أو ناسين أن الله تبارك وتعالى قال في محكم كتابه: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الشورى: ٣٦].

وهذا ضلال عن الحق يتّهم فيه الدعاة أنفسهم، لأنهم المنوط بهم توجيه المدعوين وتربيتهم على معرفة المعايير الصحيحة وتحذيرهم من أن ينخدعوا بهذه المغالطات.

وعلاج ذلك: مزيد من الجهد والتفقيه للمدعوين وتبصيرهم بفقه الدنيا مع فقه الدين.

٣- وعلى الدعاة والحركيين ان يبصروا الناس ويذكروا أنفسهم بأن الشريعة أحكامها وآدابها، فرائض ما جاءت به ونوافله لا يمكن ان تشتمل على شيء أدنى شيء فيه حرج للمسلمين أو مشقة، لأن الله تبارك وتعالى قال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨] ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

إن عليهم أن يدعو الناس إلى الإيمان بتلك الحقيقة حتى يقبلوا على العبادات والطاعات ملتزمين بأحكام الشريعة وآدابها ليكونوا بهذا الالتزام أعضاء فاعلين في المجتمع المسلم.

والمجتمع كله رجاله ونساؤه لا يستطيع أن يشق طريقه في بناء حضارة إنسانية ترتكز على أحكام الإسلام وآدابه إلا إذا آمن بذلك والتزم به وجعله من خطوات عمله وأسبابه وهو يقيم هذه الحضارة، ولب هذه الحضارة وأهم عوامل نجاحها هو نوع العلاقات بين الناس على المستوى الشخصي والمستوى الاجتماعي، وتلك العلاقات هي التي وضع الإسلام لها قواعد وأسسا تنظم العلاقة بين أفراد المجتمع، وبين عائلاته وبين جماعاته، وبينه وبين غيره من المجتمعات(١).

والأصل في العلاقة بين الدعاة إلى الله أن تقوم على الركائز التالية:

أ- أن يربط بينهم الالتقاء على الإيمان بمفرداته الست وعلى الإسلام بأركانه

(١) تحدثنا بتوسع عن تلك العلاقات في كتابنا الأول من هذه السلسلة: التربية الإسلامية في سورة المائدة نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

الخمس، وعلى العدل بكل أنواعه وعلى الإحسان بنوعيه، فإن انخرم شيء من ذلك كله، جاء النقص في العلم وجاء الفشل والإخفاق والعياذ بالله.

ب- وأن تربط بينهم الأخوة في هذا الدين، بكل ما لهذه الأخوة من حقوق وما عليها من واجبات تحدثنا عنها بالتفصيل في كتاب مستقل هو: «فقه الأخوة في الإسلام»(١).

جـ- وأن ترتبط قلوبهم على محبة الله وتجتمع عليها وتتفرق من أجل غيابها، وأن تلتقي على طاعة الله، وأن تتوحد جهودها على دعوة الله، وأن تتعاهد على نصرة شريعة الله سبحانه وتعالى.

د- وأن تكون لديهم رؤية دقيقة للسياسة العامة لدعوة الله، كيف تبدأ وأين تسير، وما وسائلها وما أهدافها وما شروطها وآدابها في الدعاة والمدعوين؟

وكيف يتعامل الدعاة مع غيرهم من الدعاة ومع غيرهم من الجماعات بل مع غيرهم من أهل الأديان الأخرى؟

هـ- وأن تكون لديهم رؤية تمثل قدرا مشتركا من الفكر المتقارب فضلا عن الموحد في سياسة الدعوة المرحلية، وما تستدعيه هذه السياسة من عمل يخضع لخطة بعينها في زمان بعينه ومكان بعينه، بحيث يلتزمون جميعا بها ويتعاونون في تنفيذها.

هذا هو الأصل في العلاقة بين الدعاة إلى الله، ولا سبيل أمامه لتنفيذ ذلك إلا التقيد بالمنهج والالتزام بأحكام الشريعة وآدابها، ومهما تقيدوا بهذه القيود أو التزموا بهذه الواجبات فلن يجدوا فيها من حرج ولا مشقة، وإنما عليهم أن ينطلقوا في طريق الدعوة وشعارهم «والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير، وما النصر إلا من عند الله».

---

(١) نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية - ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

الآيتان الثلاثون والحادية والثلاثون
في: أحكام غض البصر في المجتمع المسلم

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

■ هاتان الآيتان الكريمتان توضحان أحكام غض البصر عما حرم الله امتداد البصر إليه من عورات، وتضع الآيتان للبصر نظاما دقيقا، وتوضح الآيتان أحكام المخالطة والمزاورة بين المؤمنين والمؤمنات، وآداب هذه المخالطة حتى تكون القلوب طاهرة نقية من الإثم، وبذلك تمنع أسباب المعصية قبل أن تقع المعصية نفسها.

وتبين الآية الثانية حدود ما تبديه المرأة من زينة أو من مواضع زينتها أمام محارمها أو أمام غير المحارم.

وتلزم الآية بأن تضرب المرأة الخمار على جيبها - وهو فتحة في الثوب تدخل منها الرأس، حتى تستر رقبتها، لأن رقبة المرأة من عورتها، إذ جسد المرأة كله عورة ما عدا وجهها وكفيها - وفي القدمين خلاف - كل ذلك أوضحته الآيتان الكريمتان بهذا التفصيل، ليصل المؤمنون والمؤمنات إلى درجة الفلاح ورضا الله تبارك وتعالى عنهم.

والأخذ بما جاء في هاتين الآيتين الكريمتين يمكن المجتمع المسلم من أن يشق طريقه في الحياة آمنا مطمئنا يمارس حقوقه ويؤدي واجباته نحو سائر أفرد المجتمع.

● وفي الآيتين الكريمتين أكثر من أمر وأكثر من نهي، قد تضمنت أحكاما وآدابا، وفيهما أكثر من خبر لتقرير حقائق جوهرية في نظام المجتمع المسلم، بحيث يضمن الأخذ بها استقرار المجتمع وخلوه من الشر والضرر ودواعيهما.

وتلك طبيعة الأحكام والآداب الشرعية في الدين الإسلامي، تقاوم الرذائل والشرور والأضرار، وتمنع أسبابهما ودواعيهما. وطالما أن الأحكام الشرعية تدور حول الأمر والنهي من الخالق وسبحانه وتعالى، فإن الإنسان المتمثل للأمر المجتنب للنهي في أمن وأمان وسعادة ورضا.

وفي سبيل توضيح ما تضمنته الآيتان الكريمتان نقول وبالله التوفيق:

- الأمر الأول:

أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يبلغ المسلمين والمسلمات بما أمرهم به ربهم سبحانه وتعالى أو نهاهم عنه أو ندبهم إليه، وذلك في فعل الأمر الموجه إلى النبي ﷺ وهو: (قُل) وهذا الفعل تكرر كثيرا في القرآن الكريم فتجاوز الثلاثمائة مرة.

وذلك يدل على أن الرسول ﷺ مامور بأن يبلغ ما أنزل إليه من ربه، ويبين للناس ما شرع لهم ربهم، والبلاغ عن الله والبيان لوحيه هو وظيفة الرسول ﷺ وعند تأمر هذه الأوامر بفعل الأمر قل: نجد بعضها يأمر الرسول ﷺ بتقرير حقيقة كقوله تعالى له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]، ردا على قول المشركين المستهزئين بما جاء به النبي ﷺ: صف لنا ربك.

وأحيانا يكون الأمر بأن يقطع أطماع الكافرين في مساومتهم إياه في دعوة الحق وعبادة الله وحده، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا

تعبُدُون ② ولا أنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ ولا أنا عابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أنتم عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: كلها].

وأحيانا يكون الأمر للتحدي وإبطال الحجج، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤]، فأمر الله رسوله ﷺ أن يتحداهم قائلا لهم: قد زعمتم أن الله سيخصكم من بين سائر الناس بنعيم الجنة بعد الممات، فإن كنتم مؤمنين حقا بما تقولون فليكن الموت محببا إليكم، ولتتمنوه حتى لا يبطئ عنكم هذا النعيم الذي تدعون.

وأحيانا يكون الأمر ليوضح الرسول ﷺ للناس كيف يتدينون، وأحيانا ليوضح كيف يتحاورون، وكيف يجيبون من سالهم عن أمور الدين.

وإن مَنْ تامل هذه الآيات الكريمة التي بدئت (بقل) مخاطبا بها الرسول ﷺ وهي بالتحديد ثلاثمائة وثنتان وعشرون آية، ليجد فيها ثروة تشريعية فيها غناء أي غناء، في كل ما له صلة بالدين والتدين، بل بكل ما له صلة باي أمر من أمور الحياة الإنسانية كلها.

وعسى الله ان يهدي أحد علماء المسلمين ليتتبع هذه الآيات الكريمة ويوضح ما اشتملت عليه كل آية من فحوى هذا الأمر؛ إنه سوف يجد معينا فياضا لا ينضب من الاحكام والآداب والاخبار المعلمة الهادية، إنها ثلاثمائة واثنتان وعشرون فحوى للأمر في هذه الآيات الكريمة كما حصرها العلماء.

– والأمر الثاني:

أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ ان يبلغ المؤمنين والمؤمنات بانه سبحانه وتعالى شرع غض البصر لهم لصالح دينهم ودنياهم.

– أقسام غض البصر:

وغض البصر ـ كما قال العلماء ـ اقسام:

● منه ما هو واجب كغضه أي كفه عما نهى الله سبحان عن النظر إليه مثل: عورات الناس، ومحاسن النساء فهذا من شأنه أن يباعد بين من غض بصره والوقوع في الحرام الذي قد يترتب على عدم غض البصر.

● ومنه ما هو مستحب مندوب إليه، مثل: كف البصر عما لا فائدة في النظر إليه، إذ النظر عندئذ تضيع للوقت والجهد بغير طائل.

ولتوضيح ذلك نقول:

الأمر بغض الأبصار عما حرم الله النظر إليه يعني أن إذا وقع بصر أحدهم على محرَّم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعا، لأن تلك هي النظرة الأولى أو نظرة الفجاءة وقد تسامحت فيها الشريعة ولم تعتبرها حراما ارتكب.

● فقد روى الإمام مسلم عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: «سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري».

وفي رواية: فقال: «أطرق بصرك» أي اخفضه بالنظر إلى الأرض.

● وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «يا عليّ لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة».

وروى مسلم بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إيَّاكم والجلوس على الطرقات، قالوا: يا رسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها، فقال رسول الله ﷺ: «إن أبيتم فاعطوا الطريق حقه» قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر وكف الأذى وردّ السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

● وروى البغوي(١) بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اكفلوا لي بست أكفل لكم الجنة، إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا اؤتمن فلا يخن، وإذا وعد فلا يخلف، وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم»

● وروى ابن أبي الدنيا(٢) بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله، وعينا سهرت في سبيل الله، وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله عز وجل».

– والأمر الثالث:

موجه للمؤمنين بحفظ فروجهم من الزنا فلا يقعوا فيه، ولا يفتحوا أمام أنظارهم ودواعيه.

أو يكون المعنى حفظ فروجهم من أن يطلع عليها سوى الزوجة والمملوكة ملك يمين، فيكون هنا بمعنى العورة، ويكون حفظه بمعنى ألا يطلع عليه أحد، ويكون الحفظ من الزنا مقصودا كذلك من باب أولى. والمعنى الثاني أولى بهذه الآية كما يرى ذلك كثير من المفسرين الأجلاء.

فقد قال الطبري(٣) في تفسيره بسنده عن أبي العالية في تفسير قوله تعالى:

---

(١) البغوي هو الحسين بن مسعود الفراء الملقب بمحيي السنة (٤٣٤– ٥١٠هـ) فقيه مفسر محدث له مؤلفات عديدة منها: مصابيح السنة ـ مطبوع وفيه جاء هذا الحديث، وله عديد من المؤلفات لا تزال مخطوطة.

(٢) ابن أبي الدنيا هو عبد الله بن محمد (٢٠٨– ٢٨١هـ) حافظ للحديث الشريف تولى تأديب الخليفة المعتضد العباس في حداثته ثم أدب ولده المكتفي، له مصنفات عديدة منها الفرج بعد الشدة مطبوع ومكارم الأخلاق، والنوادر، والرغائب وأخبار قريش وكلها مخطوطة ولد وتوفي ببغداد كان واعظا إن شاء أضحك وإن شاء أبكى.

(٣) الطبري هو محمد بن جرير بن يزيد الطبري (٢٢٤ – ٣١٠هـ) المؤرخ المفسر الإمام في التفسير ولد في طبرستان وعاش ومات في بغداد، عرض عليه القضاء والمظالم فأبى، له =

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ قال: «كل فرج ذكر حفظه في القرآن فهو من الزنا إلا هذه» ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ فإنه يعني الستر»[1].

● وروى الإمام أحمد بسنده عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله: عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال رسول الله ﷺ: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» قال: قلت يا رسول الله: فإن كان القوم بعضهم في بعض قال: «إن استطعت أن لا يراها أحد فلا يرينها» قلت: فإذا كان أحدنا خاليا قال: «فإن الله تبارك وتعالى أحق أن يُستحيا منه».

● وروى أبو بكر البزار[2] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا بيتا يقال له الحمّام» قالوا: يا رسول الله، ينقي الوسخ قال: «فاستتروا» قال أبو محمد عبد الحق[3] ابن الخراط: هذا أصح إسناد حديث في هذا الباب[4].

● وروى أصحاب الصحيح بأسانيدهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال

= كتب عديدة من أشهرها: تاريخ الرسل والملوك مطبوع وجامع البيان في التفسير مطبوع في ثلاثين جزءا وكان مجتهدا في أحكام الدين لا يقلد أحدا وكان يعد أحمد بن حنبل محدثا لا فقيها، فلم يذكره في كتاب اختلاف العلماء، مما جر عليه المتاعب والتهم بعد موته.

(١) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن. ٩/٣٠٣ط دار الكتب العلمية بيروت بلبنان ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٢) البزار هو أحمد بن عبد الخالق أبو بكر (... - ٢٩٢هـ) حافظ للحديث من العلماء به من أهل البصرة، حدّث في آخر عمره بأصبهان وبغداد والشام وتوفي في الرملة له مسندان: كبير سماه البحر الزاخر وصغير.

(٣) هو عبد الحق بن عبد الرحمن أبو محمد (٥١٠ - ٥٨١هـ) إشبيلي من علماء الأندلس يعرف بابن الخراط كان فقيها حافظا عالما بالحديث وعلله ورجاله له كثير من المؤلفات من أشهرها: المعتل من الحديث ست مجلدات.

(٤) القرطبي: الجامع لأحكام لقرآن. ٦/ ٤٦١٦ ط الشعب القاهرة دون تاريخ.

رسول الله ﷺ: «كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، وزنا الأذنين الاستماع، وزنا اليد البطش وزنا الرجل الخطى، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» رواه البخاري تعليقا(١) ورواه مسلم من وجه آخر قريب مما ذكر.

– والأمر الرابع:

موجه إلى النساء، هو أمرهم بغض البصر وحفظ الفروج، كما أمر الرجال بذلك، والهدف هو تنقية المجتمع المسلم من الزنا ومن دواعيه وأسبابه، وتطهيره من العابثين والعابثات بالقيم الخلقية ونص الأمر هو: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

– أحكام غض البصر:

● وأحكام غض البصر تستدعي أن نذكر أحكام العورات وأحكام النظر إليها، نذكر ذلك بصفة عامة، كما أجمع عليه علماء المسلمين في مختلف عصورهم، وحتى يومنا هذا.

فنقول والله المستعان:

قال الأسلاف من العلماء: العورات على أربعة أقسام.

---

(١) الحديث المعلّق: هو حديث يحذف من أول إسناده واحد فاكثر ولو إلى آخر الإسناد كقول الشافعي: قال نافع، وقول مالك قال: ابن عمر، أو قول مالك: قال النبي ﷺ إذ الأصل المعروف: مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ. فحذف واحد من أول الإسناد أو أكثر تعليق.

وهذا الحذف إما ان يكون من أول الإسناد فهو المعلق، وإما ان يكون من وسطه فهو المنقطع ـ وللمنقطع تعريف آخر ـ وإما ان يكون في آخره وهو المرسل.

والحديث المعلق له حكم الحديث الصحيح وقد أكثر منه البخاري في صحيحه، والحديث المعلق معروف من جهة الثقات الذين علق الحديث عنهم، أو لأن البخاري رواه متصلا في موضع آخر من صحيحه.

● عورة الرجل مع الرجل

● عورة المرأة مع المرأة.

● وعورة الرجل مع المرأة.

● وعورة المرأة مع الرجل .

– وأما عورة الرجل مع الرجل، فيجوز له ان ينظر إلى جميع بدنه إلا عورته، وعورته ما بين السرة والركبة، والسرة والركبة ليست بعورة.

وعند أبي حنيفة رحمه الله ان الركبة عورة.

وعند مالك رحمه الله ان فخذ الرجل ليس بعورة، وقول مالك هذا ليس المعمول به لأن الدليل قام على أن فخذ الرجل عورة، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «غط فخذك فإن فخذ الرجل من عورته».

● فإن كان في نظره وجه رجل أو سائر بدنه شهوة أو خوف فتنة بان كان أمرد لا يحل النظر إليه.

● ولا يجوز للرجل مضاجعة الرجل وإن كل واحد منهما في جانب من الفراش روى الترمذي بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد»

● وتكره المعانقة وتقبيل الوجه إلا لولده شفقة.

● وتستحب المصافحة والأخذ باليد، فقد روى الترمذي بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل يا رسول الله: الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه، أينحني له؟ قال: لا، قال: فيلتزمه ويقبله؟ قال: لا، قال فيأخذ بيده ويصافحه؟ قال: نعم».

- أما عورة المرأة مع المرأة فهي كعورة الرجل مع الرجل.

- فلها أن تنظر إلى جميع بدنها إلا ما بين السرة إلى الركبة.
- وعند خوف الفتنة لا يجوز النظر إلى بدنها.
- ولا يجوز أن تتضجع المرأة مع المرأة.
- ولا يجوز للمرأة الذمية أن ترى من المرأة المسلمة ما تراه أختها المسلمة، لأن الذمية أجنبية في الدين فلا ترى من المرأة المسلمة إلا ما يراه منها الرجل الأجنبي وهو الوجه والكفان، والله تعالى يقول: (أو نسائهن) وليست الذمية من نسائنا.

- وأما عورة الرجل مع المرأة:

- فللمرأة المسلمة أن تنظر من الرجل المسلم الأجنبي عنها - في أرجح الأقوال: إلى بدنه كله ما عدا ما بين السرة والركبة.
- وقيل لا تنظر من بدنه إلا إلى الوجه والكفين.

والرأي الأول أصح عند العلماء.

- وأما عورة المرأة مع الرجل ففيها تفصيل على النحو التالي:

- إذا كانت أجنبية فجميع بدنها عورة، ولا يجوز له أن ينظر إلى شيء منها إلا الوجه والكفين، لأنها تحتاج إلى إبراز الوجه في البيع والشراء، وإلى إخراج الكف للأخذ والعطاء.
- ونظر الرجل إلى كف المرأة ووجهها على ثلاثة أقسام:

الأول: لا يجوز تعمد النظر إلى وجه الأجنبية لغير غرض فإن وقع بصره عليها غضه، وله كما أسلفنا النظرة الأولى نظرة الفجاءة وليست له الثانية بل عليه.

والثاني: أن يكون هناك غرض من النظر ولا فتنة، وهذا الغرض قد يكون

نكاحا فله أن ينظر إلى وجهها وكفيها، فقد روى الدارمي[1] بسنده عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه خطب امرأة من الأنصار فقال له رسول الله ﷺ: «اذهب فانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما».

وقد يكون الغرض من النظر المبايعة فله أن ينظر إلى وجهها متأملا حتى يعرفها عند الحاجة إليها. وقد يكون الغرض من النظر الشهادة فله ذلك.

وفي جميع الأحوال لا ينظر غير الوجه لأن المعرفة تحصل به.

والثالث: أن يكون النظر للشهوة فذاك محظور، وقد ذكرنا آنفا الحديث النبوي الذي فيه: «العينان تزنيان... وفيه وزنا العين النظر».

وتستثنى من هذه الأحكام الضرورات كنظر الطبيب المسلم الأمين ونظر من يقوم بالختان، ونظر من يخلصها من غرق أو حرق أو نحو، وذلك من رحمة الله بالناس.

● وإذا كانت المرأة ذات محرم من الرجل بنسب أو رضاع أو مصاهرة، فعورتها معه كعورة الرجل ما بين السرة والركبة، وقال بعض العلماء بل عورتها ما يبدو عند المهنة[2].

● وإذا كانت المرأة زوجة للرجل فإنه ينظر إلى جميع بدنها حتى إلى فرجها إلا أنه يكره النظر إلى الفرج عموما حتى أن ينظر الرجل إلى فرج نفسه أو المرأة إلى فرجها.

---

(١) الدارمي هو الحافظ الكبير شيخ الإسلام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام (١٨١ - ٢٥٥هـ) كان قاضي سمرقند فقضى قضية واحدة واستعفى فأعفي، كان من علماء الحديث والتفسير والفقه له في الحديث سنن وله الجامع الصحيح، وله كتاب في التفسير، كانت وفاته يوم التروية بعد العصر، ودفن يوم عرفة يوم الجمعة.

(٢) ما يبدو عند المهنة كما قال العلماء: هو الرأس أي شعر الرأس والساعدان، والساقان، والنحر، وبهذا قال أبوحنيفة رحمه الله.

● فإن كانت امرأة مجوسية أو مرتدة أو وثنية أو متزوجة أو مكاتبة فهي كالأجنبية، أي لا يرى منها غير الوجه والكفين.

● وإن كانت المرأة أمة مملوكة لايحل له الاستمتاع بها، فعورتها كعورة الرجل، وإن كانت ملك يمينه ويحل له الاستمتاع بها فهي في العورة كزوجته له ان يرى جميع بدنها....

– ويلحظ أن أمر الله سبحانه للمؤمنين والمؤمنات بحفظ الفروج، جاء بعد أمره لهم بغض البصر، هذا يشير إلى ان البصر رائد الزنا والطريق إليه، فلما كان النظر داعيا إلى الزنا وذريعة له أغلق الإسلام بابه فامر بكفه ومنعه.

– والمقصود بحفظ الفروج للرجل والمرأة شيئان:

● حفظها بمعنى سترها عن الآخرين.

● وحفظها من الزنا من باب أولى.

وإن كانت الآية هنا مقصود بها الستر كما أوضحنا آنفا.

– وقوله تعالى بعد الأمر بغض البصر وحفظ الفرج ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ يؤكد معنين من الزكاة وهي الطهارة هنا، هما:

● أزكى لهم وأطهر عند الله إذ التزموا باوامره.

● وازكى لكم وأطهر في حياتكم الدنيا، لأن عفة العين وعفة الفرج مطلب شرعي.

وإنما كان ذلك كذلك لانه يمنع من ارتكاب الذنوب والمعاصي وفي مقدمتها الزنا.

● ومن فعل شيئا ذلك فلم يغض بصره أو لم يستر عورته فإن الله تبارك وتعالى لا يخفى عليه أمره، ولا يعجزه حسابه وعقابه ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وقديما قالوا: النظر بريد الزنا.

● أخرج ابن مردويه بسنده عن عليّ كرّم الله وجهه قال: مرّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما للآخر إلا إعجابا به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط وهو ينظر إليها إذ استقبله حائط فشق أنفه، فقال: والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأخبره أمري، فأتاه فقص عليه قصته، فقال النبي ﷺ: هذه عقوبة ذنبك، وأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾ الآيتان.

– وأما النهي في الآية:

فقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ فهو نهي للمرأة المسلمة عن أن تظهر مواضع الزينة منها، سواء أكانت الزينة التي تستلفت نظر الرجل زينة خِلْقية أي محاسن خلقها الله بها، أم كانت زينة مما يتزين به النساء عادة، من فضل لباس وحليّ ونحوه.

وهذا التفسير للزينة أرجح من تفسير من قالوا: إن الزينة هي ما تتزين به المرأة فحسب، دون الذي خلقها الله عليه من زينة، ذلك أن الله تعالى أمر بستر محاسن الخِلقة بالخمار، ونهى عن إبداء مواضع الزينة.

وقد حصر العلماء ما تتزين به المرأة في ثلاثة أمور:

الأول: الأصباغ،

مثل الكحل والخطاب بالوشمة في حاجبيها، والغمرة[1] في خديها، والحناء في كفيها وقدميها.

والثاني: الحليّ.

كالخاتم والسوار والخلخال، والدملج ـ وهو سوار يحيط بالعضد ـ والقلادة

(١) الغمرة: طلاء الوجه.

والإكليل والوشاح والقرط.

والثالث: الثياب.

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١] وأراد من هذه الزينة الثياب.

– واستثنى الله تبارك وتعالى من النهي عن إبداء الزينة ما ظهر من هذه الزينة، ولتوضيح هذا الذي استثنى من التحريم سواء أكان من الزينة أم من مواضعها نحتاج إلي التفصيل التالي:

● الذين قالوا: إن الزينة هي محاسن الخلقة قالوا: استثني من النهي عن إبداء الزينة ما يظهر من الإنسان في العادة الجارية، وذلك في النساء الوجه والكفان، وفي الرجال الأطراف من الوجه واليدين والرجلين، فقد أمر الرجال والنساء بستر ما لا تؤدي الضرورة إلى كشفه، وأبيح كشف ما اعتاد النساء كشفه. وممن رأوا هذا الرأي القفّال(١).

● وفي قدم المرأة رأيان أرجحهما أنهما عورة.

● وفي صوت المرأة رأيان والأرجح أن صوتها ليس بعورة.

● والذي قالوا إن الزينة هي ما عدا الخلقة فقالوا في توجيه تأويلهم للآية إن الله سبحانه وتعالى إنما ذكر الزينة لأنه لاخلاف في أنه يحل النظر إليها حالما لم تكن متصلة بأعضاء المرأة، فلما حرم الله سبحانه النظر إليها حال اتصالهما ببدن المرأة كان ذلك بمبالغة في حرمة النظر إلى أعضاء المرأة.

---

(١) القفّال هو محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي (٢٩١ – ٣٦٥هـ) أبو بكر، من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب، وعن القفال انتشر مذهب الإمام الشافعي في بلاد ما وراء النهر وهي موطن القفال، رحل إلى خراسان والعراق والشام والحجاز، وهو أول من صنف في الجدل الحسن من الفقهاء، ومن كتبه: أصول الفقه، ومحاسن الشريعة، وشرح رسالة الشافعي.

وعلى هذا القول يحل النظر إلى زينة وجهها من الوشمة والغمرة وزينة بدنها من الخطاب والحناء والخواتيم والثياب.

والسبب في تجويز النظر إليها أن تسترها فيه حرج، لأن المرأة لا بد لها من مناولة الأشياء بيدها والحاجة إلى كشف وجهها في الشهادة والمحاكمة والنكاح.

- والامر الخامس في الآيتين هو:

امر لهن بأن يضربن بخمرهن على جيوبهن في قوله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

● والخمر جمع خمار وهو القناع الذي تغطي به المرأة راسها ويجمع على مقانع.

● والجيب فتحة تدخل منها الرأس في القميص ونحوه.

ومعنى الآية كما قال المفسرون:

«إن نساء الجاهلية كنَّ يشددن خمرهن من خلفهن، وإن جيوبهم كان من قدام، فكان ينكشف نحورهن، وقلائدهن، فامرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليغطى بذلك أعناقهن ونحورهن وما يحيط به من شعر وزينة من الحليّ في الأذن والنحر وموضع العقدة منها[1]».

وفي لفظ الضرب مبالغة في الإلقاء، والباء للإصلاق.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت خيرا من نساء الأنصار، لما نزلت هذه الآية قامت كل واحد منهم إلى مرطها - جمع مروط وهو كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به وتتلفع به المرأة - فصدعت منه صدعة - أي قطعت أو شقَّت - فاختمرت فاصبحن كان على رؤوسهن الغربان».

---

(١) الرازي: التفسير الكبير ٢٣/ ١٧٩ مرجع سابق.

وقال سعيد بن جبير[1]: (وليضربن) وليشددن (بخمرهن على جيوبهن) يعني على النحر والصدر فلا يرى منه شيء[2].

وروى ابن حاتم بسنده عن صفية بنت شيبة قالت: بينا نحن عند عائشة قالت: فذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة رضي الله عنها: إن لنساء قريش لفضلا، وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا لكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل، لقد أنزلت سورة النور ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ انقلب رجالهن إليهم يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته، وعلى كل ذي قرابته فما منهم امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت - أي اختمرت - به تصديقا وإيمانا بما أنزل إلى من كتابه، فاصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رءوسهن الغربان»[3].

– والنهي الثاني في الآية:

نهي عن إبداء الزينة إلا لأنواع من الناس تربطهم بهن قرابات واشجة وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ...﴾ الآية.

● والمستثنون من أن تبدي المرأة أمامهم زينتها كما ذكروا في الآية الكريمة اثنا

(١) هو سعيد بن جبير الأسدي بالولاء الكوفي أبو عبد الله (٤٥ – ٩٥هـ) تابعي جليل كان أعلمهم على الإطلاق، وهو حبشي الأصل. أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وعبد الله ابن عمر رضي الله عنهم، وكان عبد الله بن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال: أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء؟ يعني سعيدا.

ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على عبد الملك بن مروان كان سعيد معه، فلما قتل عبد الرحمن ذهب سعيد إلى مكة فقبض عليه واليها خالد القسري وأرسله إلى الحجاج فقتله. قال الإمام أحمد: قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه.

(٢) الرازي بتفسيره: ٢٣/ ١٧٩– ١٨٠. مرجع سابق.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٨٤ ط الحلبي ـ مصر دون تاريخ.

عشر نوعا كلهم ممن يمتون إلى المرأة بقرابة ومن شأنهم مع هذه القرابة أن يدخلوا على المرأة، وهؤلاء هم:

١- الأزواج وقد عبرت عنه الآية بالبعول ـ جمع بعل ـ وهو الزوج، ويطلق أيضا على الزوجة أيضاً.

٢- والآباء الحقيقيون أو الحكميون كالجدود والأعمام والأخوال.

٣- وآباء الأزواج.

٤- والأبناء حقيقة أو الأبناء من الرضاع.

٥- وأبناء الأزواج.

٦- والإخوان حقيقة أو من الرضاعة.

٧- وأبناء الإخوان.

٧- وأبناء الأخوات.

٩- ونسائهن اللاتي لهن بهم مزيد اختصاص، وقيل هن المؤمنات من النساء لأن المشركة والكتابية لهما حكم خاص.

١٠- وما ملكت يمينهن، أي عبيدهن.

١١- والتابعون الذين ليس لهم رغبة في النساء، وهم في الغالب خدم لا يشتهون النساء لنقص فيهم كالخصيان ونحوهم.

١٢- والأطفال الذي لم يبلغوا الحلم، ولم تحدثهم أنفسهم لصغر سنهم بشهوة النساء.

● وقد سكتت الآية عن آخرين يدخلون في حكم هؤلاء الاثني عشر، وهم:

١- الأعمام.

٢- والأخوال.

٣- وكل من كان في مرتبة من صرحت به الآية لكنه يدلي إلى المرأة بصلة عن طريق الرضاعة، فقد روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وأحمد بن حنبل بأسانيدهم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يحرم من الرضاعة من يحرم النسب».

٤- وزوج البنت قياسا على ابن الزوج لاشتراكهما في حرمة الصهر.

٥- وأم الزوجة قياسا على أب الزوج.

- ونهي آخر في الآية الكريمة:

هو نهي المؤمنات عن الضرب بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ حيث ينهى سبحانه المرأة عن أن يقرع الخلخال بالآخر عند الرجال، نهى سبحانه عن ذلك لأنه من عمل الشيطان، وهذا يقتضي النهي عن كل ما من شانه ان يذكر الرجال بلهو النساء، أو يثير شهوة أو لذة من كل ما يُرى أو يسمع من زينة، او حركة كالتثني والغناء وكلمات الغزل، ويدخل في ذلك التطيب الذي يغلب عبيقه، فقد نهيت المرأة عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها، ولوكانت ذاهبة إلى المسجد، كي لا يشم الرجال طيبها.

روى الترمذي بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «كل عين زانية، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا» يعني زانية.

وروى الترمذي بسنده عن ميمونة بنت سعد رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الرافلة في الزينة في غير أهلها، كمثل ظلمة يوم القيامة لا نور لها».

ويدخل في هذا النهي صوت المرأة، فصوتها ليس بعورة - كما أسلفنا - فلا يحرم عليها أن تسمعه لرجل ، لكن ذلك مشروط بالا تلينه او تنغمه وتخضع فيه بالقول .

واستماع الرجل إلى صوت المرأة مباح إلا إذا أثار عنده شهور أو التذّ به، فإنه

عندئذ لا يجوز له الاستماع إليه.

وفي هذه الآية الكريمة فوائد عديدة ذكرها العلماء، نذكر منها ما يلي:

١- لما نهى الله سبحانه عن الاستماع إلى الصوت الدال على الزينة وهو صوت الخلخال، كان في ذلك دليلا على منع إظهار الزينة نفسها من باب أولى.

٢- ولأن المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الأجانب عنها إذا كان صوتها أقرب إلى الفتنة من صوت خلخالها، من أجل ذلك كره العلماء أذان النساء لأنه يحتاج إلى رفع الصوت، وهي منهية عن ذلك.

٣- وفي الآية دليل على تحريم النظر إلى وجه المرأة بشهوة إذا كان ذلك أقرب إلى الفتنة.

٤- والتعطر والتطيب من المرأة حتى لو كانت ذاهبة إلى المسجد يفهم النهي عنه من هذه الآية لأن بالعطر يعلم ما تخفي المرأة من زينة، ويدل على تحريم التعطر والتطيب للمرأة خارج بيتها حديث نبوي شريف رواه أبو دادو بسنده عن عبيد مولى أبي رهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقيته امرأة شم منها ريحا لطيب، ولذيلها إعصار، فقال: يا أمية الجبار جئت من المسجد، قالت نعم، قال لها تطيبت؟ قال: نعم، قال: إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول: «لا يقبل الله صلاة امرأة طيبت لهذا المسجد حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة».

٥- ويفهم من الآية منع تبرج النساء ومشيهن في وسط الطريق ويدل على منع ذلك حديث نبوي شريف رواه أبو داود بسنده عن حمزة بن أسيد الأنصاري عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ وهو خارج من المسجد وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله ﷺ: للنساء استأخرن فإنه ليس لكن ان تحتضن الطريق، عليكن بحافات الطريق، فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها به.

- وأمر أخير في الآية هو: أمر من الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات جميعا بأن

يتوبوا إلى الله من كل خطأ أو خلل أو تجاوز يقع فيه أحد منهم أو منهن أيا كان سبب الوقوع في هذا الخطأ أو التجاوز، فقال: تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فالتوبة حساب للنفس على ما فرط منها من الخطأ أو اللمم.

وقد قال الفخر الرازي في تأويل هذه الآية الكريمة ما يلي[١]:

في التوبة وجهان:

أحدهما: أن تكاليف الله تبارك وتعالى في كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وإن ضبط نفسه واجتهد، ولا ينفك عن تقصير يقع فيه، فلذلك وصى المؤمنين جميعا بالتوبة والاستغفار وتأميل الفلاح إذا تابوا واستغفروا.

والثاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة.

فإن قيل: قد صحت التوبة بالإسلام، والإسلام يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة؟

قلنا: قال بعض العلماء: إن من أذنب ذنبا ثم تاب عنه، لزمه كلما ذكره أن يجدد عنه التوبة، لأنه يلزم أن يستمر على ندمه إلى أن يلقى ربه، والله أعلم.

- وأما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فلها معان كثيرة، وذلك أن (لعل) تفيد الترجي والإشفاق، والترجي والإشفاق لا يحصلان إلا عند الجهل بالعاقبة، وذلك على الله سبحانه وتعالى مُحال، فلا بد فيه من التأويل على واحد من الوجوه التالية:

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير: ٢٣/ ١٨٣ مرجع سابق.

أحدها:

ان يكون الترجي والإشفاق الذي تفيده لعل، راجعا إلى العباد، لا إلى الله سبحانه وتعالى.

وثانيها:

ان يحمل على أن من عادة الملوك والعظماء أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطنون انفسهم على إنجازها على ان يقولوا: لعل وعسى، ونحوها من الكلمات. أو للطف منهم بالرمزة أو الابتسامة، أو النظرة الحلوة، فإذا عثر على شيء من ذلك لم يبق للطالب شك في الفوز بالمطلوب فعلى هذا الطريق ورد لفظ (لعل) في كلام الله تعالى.

وثالثها:

ما قيل: من أن لعل بمعنى كي. قال صاحب الكشاف، ولعل لا يكون بمعنى كي، ولكن كلمة لعل للإطماع، والكريم الرحيم إذا أطمع في ما يُطمع فيه لا محالة تجري أطماعه مجرى وعده المحتوم، فلهذا السبب قيل: لعلّ في كلام الله تعالى بمعنى: كيْ.

ورابعها:

انه تعالى فعل بالمكلفين ما لو فعله غيره لاقتضى رجاء حصول المقصود. لأنه تعالى لما أعطاهم القدرة على الخير والشر، وخلق لهم العقول الهادية وأزاح اعذارهم، فكل من فعل ذلك بغيره فإنه يرجو منه حصول المقصود، فالمراد من لفظة (لعلّ) فعل ما لو فعله غيره لكان موجبا للرجاء.

وخامسها:

قال القفّال: (لعلّ) مأخوذ من تكرار الشيء كقوله: عَلَلاً بعد نهل، واللام فيه لام التاكيد كاللام التي تدخل في لقد، فأصل (لعلّ) (علّ) لانهم يقولون علّك ان

تفعل كذا أي لعلك.

فإذا كانت حقيقته التكرير والتأكيد كان قول القائل: افعل كذا لعلك تظفر بحاجتك، معناه: افعله فإن فعلك له يؤكد طلبك له ويقويك عليه»(١).

والمعنى المراد والله أعلم كما قال ابن كثير رحمه الله: أي افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله، وترك ما نهي عنه، والله تعالى هو المستعان»(٢).

ولا يفوتنا وقد شرحنا الآية الكريمة: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أن نقول كما قال أسلافنا من العلماء الصالحين: إن هذه الآية أصل في وجوب التوبة إلى الله عن الذنوب والمعاصي والمخالفات لأمر الله أو نهيه سبحانه وتعالى.

وإن آية كريمة أخرى تحدد نوع التوبة المقبوله وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

وأن آية كريمة ثالثة توضح فضل التقوى هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وأن أحاديث نبوية شريفة تحدثت عن التوبة في مجال وجوبها وفي مجال شروطها، وفي مجال فضلها ومكانتها مما سنذكر بعضها بعد قليل.

فلا بد لنا من ثلاث كلمات، في هذه المجالات الثلاثة والله الستعان.

أما وجوب التوبة:

فلأن النصوص الإسلامية أوجبتها كقوله:

---

(١) الرازي: تفسيره: ٢/ ٩٢.

(٢) ابن كثير: تفسيره: ٣/ ٢٨٦.

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ [هود: ٣].

وما رواه الإمام مسلم بسنده عن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة».

وما رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، قال قال رسول الله ﷺ: لَلَّهُ افرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة» ورواه مسلم أيضا.

وما رواه مسلم بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها».

وهذه التوبة التي أوجبتها الشريعة على كل عاص أو مخطئ، إنما تكون عن الذنوب جميعا صغائرها وكبائرها.

والذنب هو كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل.

● والكبائر قد عدها بعض الصحابة رضوان الله عليهم أربعا وبعضهم عدها سبعا وبعضهم تسعا وبعضهم عدها إحدى عشرة وبعضهم تجاوز بها هذه الأعداد.

● وكان ابن عباس رضي الله عنهما إذا بلغه قول ابن عمر رضي الله عنهما الكبائر سبع يقول: هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع. وقال مرة: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة.

● وقال بعض العلماء: كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر.

● وقال بعضهم: كل من أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة.

● وقال الإمام أبو حامد الغزالي: وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر، وغيرهم:

أربعة في القلب وهي :

– الشرك بالله.

– والإصرار على المعصية، معصية الله.

–والقنوط من رحمته.

– والأمن من مكره.

وأربع في اللسان هي :

– شهادة الزور.

– وقذف المحصن.

– واليمين الغموس (التي يحق بها باطلا أو يبطل بها حقا).

– والسحر.

وثلاث في البطن وهي :

– شرب الخمر والمسكر من كل شراب.

– وأكل مال اليتيم ظلما.

– وأكل الربا وهو يعلم.

واثنتان في الفرج وهما :

– الزنا.

– واللواط.

واثنتان في اليدين وهما :

– القتل.

– والسرقة.

وواحدة في الرجلين وهي:

– الفرار من الزحف (فرار الواحد من الاثنين والعشرة من العشرين). وواحدة في جميع الجسد وهي:

– عقوق الوالدين...

قال ذلك الغزالي وهو يوضح قول أبي طالب المكي[1] الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار (الأحاديث النبوية) ثم علق الغزالي على قول أبي طالب المكي بقوله: هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء، إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه...»[2].

● وأما الصغائر فهي ما دون ذلك. وهذا ليس حدا فاصلا بين الكبائر والصغائر.

قال الإمام الغزالي: «والحق في ذلك أن الذنوب مقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إياها، وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصغائر، وإلى ما يشك فيه لا يدري حكمه. فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن...»[3].

أما شروط التوبة، فهي كثيرة: وأجمع ما قيل في شروطها ما قاله الإمام النووي رحمه الله[4] حيث قال:

---

(١) أبو طالب المكي هو محمد بن علي بن عطية الحارثي (٠٠٠ – ٣٨٦هـ) واعظ زاهد فقيه متصوف من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ بمكة المكرمة وبها اشتهر، ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال، وسكن بغداد ووعظ بها، وبها توفي من مؤلفاته: قوت القلوب في التصوف وله علم القلب، ولكن له آراء غير مقبولة في الصفات.

(٢)، (٣) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين. ٤ / ١٦ ط العثمانية القاهرة ١٣٥٢هـ.

(٤) هو: محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (٦٣١ – ٦٧٦هـ) علامة بالفقه والحديث. مولده ووفاته في نوى من قرى حوران السورية تعلم بدمشق وعاش بها زمنا طويلا ومن مؤلفاته: تهذيب الأسماء واللغات، ومنهاج الطالبين، والمنهاج في شرح صحيح مسلم وغيرها.

«التوبة واجبة من كل ذنب».

فإذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط:

أحدهما: أن يقلع عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبدا.

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته.

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة:

هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كان غيبة استحله منها»(١).

وإذا استوفت التوبة شروطها فهي مقبوله عند الله تبارك وتعالى، على هذا أجمع علماء الأمة سلفا عن خلف وأيدوا ذلك بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة.

وأجمل بعض العلماء شروط التوبة في أن تكون توبة نصوحا، وقالوا: «التوبة النصوح: أن تكون توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث التائب وتجمعه وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات».

وأما فضل التوبة: فهو فضل عظيم.

وحسب التوبة فضلا أن الله تبارك وتعالى يفرح بها وبالتائب، كما جاء ذلك في الحديث الشريف الذي سقناه آنفا، وأنه سبحانه يبسط يده بالليل ليتوب مسيء

---

(١) النووي: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ﷺ ١٠ - ١١ ط الاستقامة القاهرة ١٣٥٧هـ - ١٩٣٩م.

النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، وحسبها فضلا أن الله سبحانه ينزلها هذه المنزلة ويقبلها إذا كانت توبة نصوحا.

ومنزلة التوبة منزلة رفيعة حتى قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «من نزل منزلة التوبة وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام، فإن التوبة الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها»[1].

وإذا كان من شروط التوبة الندم والرجوع عن المعصية والذنب فإن هذه الإنابة أي الرجوع عن المعصية لها فضل كبير عند الله سبحانه وتعالى، وللرجاعين المنيبين عنده أجر عظيم، فقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧].

وهذه التوبة التي استوجبت على التائب الرجوع عن الذنب تضمنت أربع فضائل هي:

فضيلة محبة الله بالرجوع عن معصيته.

وفضيلة الخضوع له بالاستجابة له في ترك المعاصي.

وفضيلة الإقبال عليه بالإقبال على طاعته.

وفضيلة الإعراض عمن سواه من الموسومين بالمعاصي.

وبعد فلعلنا قد شرحنا هذه الآية الكريمة الأم في باب التوبة وهي قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن كان هذ الشرح وافيا فمن فضل الله سبحانه وتوفيقه، وإن كان فيه نقص أو قصور، فمني وحدي، وأستغفر ربي وأتوب إليه من كل تقصير.

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١/ ٤٦٦ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م.

■ المواقف التربوية العامة التي تستفاد من هاتين الآيتين الكريمتين وهي كثيرة نذكرمنها ما يلي:

١- نتعلم من الآيتين الكريمتين أحكام المجالسة وآدابها بعد الدخول الذي سبقه الاستئذان، وبخاصة إذا كان المجلس فيه نساء دعت الحاجة إلى مجالستهن.

ومن تلك الأحكام والآداب ما يلي:

- لا يجوز للداخل إلى مجلس أن يحدق بصره إلى امرأة فيه، بل عليه أن يغض بصره، والا ينظر إلا النظر الذي يصعبُ صرفه، والذي هو معفو عنه.

وهذا هو شأن المرأة المسلمة في نظرها إلى الرجل في المجلس على نحو ما سنبين بعد قليل.

ولما كان الغض التام للبصر غير ممكن، علمتنا الآية الكريمة أن نغض من البصر أي بعضه، ومعنى ذلك أن المنظور إليه ما ينبغي أن ننظر فيه إلى ما لا يليق النظر إليه.

وذلك كله يستحضره المسلم من أحكام الحلال والحرام في النظر والناظر والمنظور إليه.

- ولا يجوز للجالس في مجلس أن يتحدث إلى النساء إلا إذا كانت هناك حاجة لهذا الحديث، وأن يراعي في كلامه الجدية وحسن اختيار الألفاظ، وأن يبتعد تماما عن التبسط والممازحة، وعلى المرأة إذا حدثت الرجل أن يكون ذلك الحديث لضرورة وأن تراعي الجدية في كلامها وأن تحسن اختيار الألفاظ، وأن تحتفظ لنفسها بقدر من الكلفة بينها وبين من تحدثه من الرجال.

٢- ونتعلم من الآيات أن غض البصر منه ما هو واجب ومنه ما هو دون ذلك، ولتوضيح ذلك نقول:

● فمن الواجب: غض البصر عما حرم الله النظر إليه، وذلك باب واسع يتناول

كثيرا من الأشياء التي حرم الله النظر إليها كمحاسن امرأة أجنبية وعورتها وعورة الرجل، والنظر إلى قعر البيت دون استئذان وقبل الدخول، والنظر إلى مكتوب بغير إذن صاحبه، والنظر إلى الأمرد بشهوة وما لا أستطيع إحصاءه هنا - ومكانه في كتب الفقه الإسلامي في أبواب الحظر والإباحة، وفي كتب الحلال والحرام من الكتب الإسلامية العامة ككتاب الإمام الغزالي[١]: إحياء علوم الدين، وكتاب زاد المعاد لابن القيم[٢] ونحوها.

● ومما هو أقل من الواجب ما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين دخل مشربة النبي ﷺ فقال: فرفعت بصري إلى السقف فرأيت أَهَبَة معلقة، والأهبة وعاء من جلد أو قطعة من جلد. فقد نظر عمر إلى تلك الأهبة، ولم يكن في ذلك بأس.

وغض البصر عموما من أدب المسلمين ومن خلق الصالحين وإن كان غير واجب وجوبا شرعيا.

٣- ونتعلم من الآيتين الكريمتين أن غض البصر عموما يباعد الإنسان عن الشر، وما عسى أن يترتب على النظر من الحرام، وهذا النظر إذا كان إلى محاسن امرأة

---

(١) الإمام الغزالي هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ) حجة الإسلام، فيلسوف متصوف، له نحو مائتي مصنَّف، ولد وتوفي في الطابران (قصبة طوس بخراسان) ورحل إلى نيسابور وبغداد والحجاز ومصر ثم عاد إلى بلده من أهم مؤلفاته: إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، والاقتصاد في الاعتقاد، ومقاصد الفلاسفة، والمنقذ من الضلال، وفضائح الباطنية. وغيرها.

(٢) ابن القيم هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي (٦٩١ - ٧٥١هـ) من كبار العلماء والمصلحين. ولد وتوفي في دمشق، وكان تلميذا لابن تيمة رحمه الله، له تصانيف كثيرة منها: إعلام الموقعين، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية، وزاد المعاد، ومفتاح دار السعادة وحادي الأرواح، وإغاثة اللهفان، وطريق الهجرتين وغيرها.

أجنبية مثلا فإنما هو بريد الزنا والطريق إليه.

ولقد روى أبو داود(١) بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «يا علي لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة». وروى الطبراني بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النظر سهم من سهام إبليس، من تركه مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه».

وروى الطبراني بسنده عن أبي أمامة رضي الله عنه - مرفوعا - عن النبي ﷺ قال: «لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم، ولتقيمن وجوهكم، أو لتكسفن وجوهكم».

وهذه النصوص الإسلامية توجب غض البصر عما حرم الله وتوضح خطر النظر إلى تلك المحارم وتصفه بانه سهم من سهام إبليس وما ذلك إلا لوقاية المجتمع من أصحاب العيون الزائغة، والأبصار التي لا تتقي الله، وتؤكد هذ النصوص الشريفة ان غض البصر من القيم الخلقية الإسلامية التي تحفظ للمؤمنين والمؤمنات مروءاتهم وكراماتهم. وتسد طريق الزيغ والانحراف، وتنظم تعامل المؤمنين والمؤمنات إذا ضمتهم مجالس واحدة في بيوتهم أو في مجتمعاتهم لأي داعٍ من دواعي التجمع واللقاء.

وما تُؤتى المجتمعات الإسلامية من شيء أخطر من اجتماع الرجال بالنساء الأجنبيات دون تحفظ ودون اعتبار لآداب غض البصر، وآداب الكلام، وآداب الزيارة وآداب الاستئذان، إن الأخذ بهذه الآداب تكريم للنساء وتكريم للرجال،

---

(١) أبو داود هو سليمان بن الأشعث بن بشير الأزدي السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥هـ) إمام أهل الحديث في زمانه، رحل رحلات كثيرة أصله من سجستان، له مؤلفات جليلة القدر على راسها: السنن، وهو احد الكتب الستة المعتمدة في السنة، جمع فيه ٤٨٠٠ حديث انتخبها من ٥٠٠,٠٠٠ حديث، وله: المراسيل في الحديث، وله غيرها.

وتكريم للحياة الاجتماعية التي يرعى الإسلام قيمها الخلقية، ويقيم لها أكبر وزن.

إن كرامة المرأة المسلمة تستوجب على الرجل أن يحترمها في النظرة وفي الكلمة التي تقال والكلمة التي تسمع، وأن تصون هي كرامتها عن التبسط مع الرجال الأجانب وإزالة الكلفة معهم، وكل ذلك إنما ينظمه ويحسم قضاياه جميعا تلك الآية الكريمة: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾.

إن المجتمع المسلم حصين بأخلاق الإسلام وآدابه، منضبط بأحكام الإسلام وقوانينه، ولذلك يستطيع دائما أن يصنع الحضارة الإنسانية الراشدة.

٤- وتتعلم النساء من الآية الثانية: أن التزام ما أمر الله به عموما وما أمر به في غض البصر على وجه الخصوص، وفي عدم إبداء الزينة إلا لمن أباح الله لها أن تبدي زينتها أمامهم، تتعلم أن ذلك طهارة لقلبها، وتزكية لنفسها، صيانة لكرامتها، ورعاية لمكانتها في المجتمع المسلم بنتا وأختا وزوجة وأما وعمة وخالة وبنت أخ وبنت أخت، وأنه لا استقرار لحياتها ولا أمان لحاضرها ومستقبلها إلا بالالتزام بهذه الأحكام وتلك الآداب.

وتتأكد أن التكريم الحقيقي لها هو ألا تتجاوز ما أمر الله به أو حبب فيه وندب إليه.

ومن نافلة القول وتكرار ما هو معلوم لدى المسلمين أن نؤكد أن للمرأة المسلمة أن ترى الرجال الأجانب وأن تتعامل معهم إن دعت إلى هذا التعامل أي دواع مشروعة، مع الأخذ في الاعتبار بأحكام النظر وأحكام الكلام التي أوضحنا آنفا.

ولقد ثبت في السنة الصحيحة أن رسول الله ﷺ، جعل ينظر إلى الأحباش وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد في المسجد، وعائشة رضي الله عنها تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها منهم حتى مَلَّتْ ورجعتْ.

روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ

رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث[١] فاضطجع على الفراش وحول وجهه، ودخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ، قال: دعهما، فلما غفل غمزتهما فخرجتا، وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب، فإمَّا سألت النبي ﷺ وإما قال: تشتهين تنظرين فقلت: نعم، فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول: دونكم يا بني أرفدة[٢] حتى إذا مَلِلْتُ قال: حسبك؟ قلت: نعم، قال: فاذهبي».

وهذا الحديث الشريف غني ببيانه عن الشرح والبيان.

٥- وتتعلم النساء من هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أن يأخذن أنفسهن بأحكام الإسلام وآدابه في التعامل مع الأجانب من الرجال، فلا تتعمد امرأة مسلمة أن تلفت نظر رجل مسلم أجنبي عنها إليها أو إلى زينتها التي من شأنها أن تخفي، سواء أكان هذا اللَّفْتُ بكلام أو حركة فإن ذلك مما حرم الله، لما يترتب عليه من ضرر[٣] وضرار[٤].

فليس للمرأة المسلمة بمحضر الرجال أن ترقق صوتها ولا أن تلينه فضلا عن أن تتعمد الإثارة به، لأن هذا كله داخل في الخضوع بالقول الذي نهى الله عنه.

وليس لها أن تتطيب فيشم رائحتها الرجال حتى ولو كانت في بيتها بمجلس فيه رجال أجانب عنها، فضلا عن تحريم التطيب عند الخروج من البيت حتى لو كانت ذاهبة إلى المسجد كما أوضحنا آنفا.

وليس لها أن تمشي مشية تلفت إليها انتباه الرجال، فضلا عن أن تضرب

(١) بُعاث: موضع قرب يثرب وفيه كانت آخر موقعة بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهي يوم بعاث.

(٢) أرفدة: لقب للحبشة، وقيل اسم جدهم الأكبر.

(٣) الضرر: أن تلحق بأحد مكروها أو أذى.

(٤) والضرار: المخالفة والمضايقة، وأن تضيم غيرك.

بخلخالها أو كعب حذائها في أيامنا هذه، فإن كل ذلك مما يدخل تحت المنع في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

وهكذا يصون الإسلام المجتمع المسلم رجاله ونساءه عن الريب ووسوسات الشياطين وأمراض القلوب.

وليس الأمر مختلفا عند الرجال إذا وضعنا أمامنا الهدف من الآية الكريمة، فليس للرجل أن يمشي أو يتكلم بطريقة يجذب بها انتباه النساء، فإن ذلك ما يفسد النساء على أزواجهن، وقد نهى عنه الإسلام، فقد روى أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من خبّب[1] امرأة على زوجها، أو عبدا على سيده» إن تلك هي الصيانة الحقيقية للمجتمع المسلم من دواعي الفساد والإفساد.

٦- ونتعلم من الآيتين الكريمتين أن أوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه وأحكام الشريعة وآدابها، إنما جاءت لتستقيم بها الإنسانية على الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، ولكي لا تخرج عن طبيعة هذه الفطرة وحدودها.

نعم للنفس الإنسانية ضعفها البشري، وللشيطان وساوسه وأحابيله إذ يزين للإنسان الشهوات ويغريه بالملذات فإذا به ينحرف عن فطرته السوية، ينسيه أمر ربه فيخالفه فيقع فيما حرم الله، وهو بهذا يغضب ربه ويضر بنفسه وبغيره ويخسر دنياه وآخرته.

غير أن رحمة الله بعباده أكبر وأوسع، إذ يفتح لهم باب التوبة من الذنوب والرجوع والندم، بل يطالبهم حرصا عليهم وحبا لهم بأن يتوبوا إليه إذا وقعوا في صغير من الذنب أو كبير منه، ويعلن لهم رحمة بهم أنه يقبل توبة من تاب ويعفو عن سيئات ما أساء.

---

(١) خبّب: خدع وغش وأفسد.

إن الإنسان العاقل في ظل هذه الرحمة الواسعة، عليه أن يسارع إلى حساب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب في الآخرة، هذا إذا أراد لنفسه الفلاح، وإذا رغب في الإنابة إلى الله وإسلام أمره إليه، بصدق التوبة وإخلاصها ونصوحها، وحسبه رضا عن ربه أن نادى عليه جل شأنه قائلا: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

إنها دروس عظيمة يتعلمها المسلمون والمسلمات من هاتين الآيتين الكريمتين، لينعموا بسعادة الدارين.

■ والمواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة في الآيتين الكريمتين كثيرة نذكرمها ما يوفق الله إليه فيما يلي:

١- على الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية وقد ناط الله تعالى بهم دعوة الناس إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم أن ينبهوا المدعوين - بعد تنبيههم لأنفسهم - إلى أن غض البصر عن كل ما حرم الله مَدَّ البصر إليه هو البداية الصحيحة للاستقامة على أمر الدين، وللاستمرار على طريق الحق والخير والهدى ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ [هود: ١١٢].

وأن يفقهوهم بأن الذي حرمه الله تعالى في مدّ البصر إليه أعم وأشمل وأعمق من أن ينحصر في تحريم النظر إلى محاسن الأجنبية فقط، وإنما يمتد هذا التحريم ليشمل في مجال النظر أموراً كثيرة نذكر منها على سبيل التذكير والتذكر ما يلي:

● حرّم الله النظر إلى محاسن المرأة الأجنبية وعورتها على نحوما فصلنا آنفا.

● وحرّم النظر إلى عورات الرجال، بل إلى وجوه الغلمان المُرّد إذا كان في تلك النظر تلذذ وشهوة.

● وحرم النظر إلى عورات المحارم على النحو الذي فصلنا هناك.

● وحرم النظر إلى داخل البيوت قبل الاستئذان والاستئناس والسماح بالدخول.

● وحرم النظر إلى نعمة أنعمها الله على أحد من خلقه بحسد أو تعالٍ وتكبر.

● وحرم النظر إلى الأفعال القبيحة بمعنى الرضا عنها والسكوت عليها وإقرارها، وإنما أوجب سبحانه وتعالى النهي عن هذه الأفعال ونصح فاعليها والعمل على منعها باليد أو اللسان أو القلب وهو أضعف الإيمان.

كل ذلك وغيره مما لم نذكره حرّمه الله وهو يطالبنا بغض البصر عن محارمه، وليس غض البصر منصبا على محاسن الأجنبية وحدها.

والدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية يجب أن يكونوا أكثر عفة من غيرهم من الناس، فهم أولى الناس بأن يستجيبوا بكل قوة إلى جميع ما أمر الله به أو ندب إليه، وأن ينفروا بكل قوة عن كل ما نهى الله عنه أو كره فيه.

إن الدعاة والحركيين مطالبون دائما بحكم تصديهم للدعوة إلى الله بأن يكونوا دائما على درجة الإحسان، وإعطاء القدوة من أنفسهم وما كل من يقولون ويفعلون.

إن خللا بسيطا يقع فيه الداعية، فيمارس صغيرة من الصغائر، تعوقه في العلم وتحول بينه وبين النجاح والتوفيق حينا ليس قصيرا من الزمان!!!

وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يبصروا أنفسهم ويبصروا الناس بأن أمر الله للمؤمنين والمؤمنات بحفظ الفروج أعم كذلك وأشمل وأعمق من أن يقف الأمر به عند حد مجانبة الزنا!!!

فمن حفظ الفرج المأمور به أمور ليست من الزنا وإنما هي محرمة لأنه قد تكون من دواعي الزنا ومقدماته، ونحن نعرف في أصول فقه الإسلام أن «ما أدى إلى الحرام حرام» وأن «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

وعلى سبيل المثال فإن أموراً كثيرة حرمها وليست بزنا ومنها ما نذكر بعضه فيما يلي:

● تحريم الخلوة بامرأة أجنبية، لأن مع الخلوة يكون الشيطان ويكون ما يوسوس به الشيطان.

● وتحريم النظرة الثانية أو الفاحصة المتأملة في وجه امرأة أو في كفيها ـ مع أن الوجه والكفان ليسا بعورة ـ لكن هذا بشرط أمن الفتنة وإلا حرم النظر.

● وتحريم الجلوس مع النساء لغير ضرورة.

● وتحريم مضاحكة النساء وإزالة الكلفة معهن.

● وتحريم تخبيب المرأة بمعنى إفسادها على زوجها بأن يمتدح رجل أجنبي عنها بصفاته أو بماله وجاهه ما يشعرها بأن زوجها أقل منه فتفسد عليه.

● وتحريم مسّ يد المرأة الأجنبية بالمصافحة، أو مسّ أي جزء من جسدها من باب أولى.

● وتحريم رؤية عورة الأم والأخت والبنت وكل ذات محرم ممن لا يحل له الزواج منهن.

وكل ذلك داخل في الأمر بحفظ الفروج، وليس الزنا وحده هو الذي حرمته الآية ولا اللواط وحده ولا المسافحة وحدها.

● والدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية أولى الناس بأن تقف جوارحهم عن هذه المحرمات ، بل عليهم أن يجتنبوا الصغائر واللمم، وكل ما كرّه الله فيه، أو ندب إلى تركه.

كما أن على الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية إذا علموا أن أحد المدعوين وقع في أحد هذه الأخطاء أو غيرها، أن يعاملوه بالرفق والحسنى، ومن استطاع منهم أن يستر عليه فليستر، فإن ذلك هو خلق الإسلام.

ولو أخذ الدعاة المدعوين بشدة وتشديد فإن ذلك من شأنه أن ينفر المدعوين

من الدعاة من جانب وأن يصيبهم باليأس من جانب آخر، وأين إذن باب التوبة المفتوح على مصراعيه حتى يغرغر المذنب؟ ومتى يخبرونهم بان الله يقبل التوبة عن عباده ويفرح بها؟

وأين كلمة الدعاة وموعظتهم الحسنة وتحبيبهم الناس فيما عند الله؟ أيكون ذلك بالتشدد وإصدار الأحكام على الناس بالمعصية والفسق وأحيانا بالكفر والعياذ بالله؟ إن الدعاة في مثل هذه الظروف مطالبون بصفح وتسامح يشبه ما كان عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وليس في ذلك مبالغة أو تهويل، لأن هؤلاء الدعاة هم ورثة الأنبياء!!!

٣- وعلى الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يفقهوا الناس بأن الأمر بغض البصر وحفظ الفرج للرجال والنساء، ليس تشددا كما يزعم بعض الغافلين، وليس هو العزلة الصارمة التي يتصورها بعض المسلمين بين الرجال والنساء كما أنه ليس امتهانا ولا تنكرا لشهوات الإنسان وحاجة كل جنس منهما بحكم الفطرة إلى الجنس الآخر، كما يهذي بذلك بعض الشاذين المنحرفين عن الفطرة.

ليس الأمر بغض البصر وحفظ الفرج شيء من تلك الدعاوى التي يدعيها الذين يهرفون بما لا يعرفون، وإنما هو الإرشاد الصحيح والترشيد لهذه الطاقة الجنسية في الرجل والمرأة بحيث تعبر هذه الطاقة عن نفسها في إطار ما أحل الله ورسوله، وفي هذه تنقية للمجتمع كله من الفساد والمجون والخلاعة والانحراف بالفطرة، وما يترتب على هذا الانحراف من تضييع الحرث والنسل، ومن جلب مزيد من القلق والاضطراب النفسي والعصبي، وعديد من الأمراض العضوية.

وإن نظرة سريعة إلى المجتمعات التي تهاونت في علاقة الرجل بالمرأة، أو تلك المجتمعات التي جعلت تلك العلاقة بين الرجل والمرأة حرة لا تخضع لقيد، وأن تمارس بغير حياء، بل أحيانا في الأماكن العامة، إن هذه النظرة السريعة إلى هذه المجتمعات تؤكد أن الناس هناك قد نزلوا بهذه العلاقة إلى مستوى الحيوانات، وأقل

من بعض الحيوانات التي تستتر عند ممارسة الصلة بين الجنسين فيها!!!

● والدعاة والحركيون أولى الناس بأن تكون علاقاتهم بالنساء عند الحاجة إلى هذه المجالسة أوالمدارسة أنموذجا يحتذى في تقوى الله، وفي الالتزام الدقيق بآداب الشريعة بعد أحكامها.

لا بد أن أنبه إلى أن هذه العلاقة التي تعطي الأنموذج الذي يحتذى لا ينبغي أن تكون تشددا يدفع إليه الخوف والحذر، ولا تبسطا يدعو إليه الرغبة في أن تعرف عنهم المرونة وسعة الصدر، ليس هذا بمقبول ولا ذاك.

وإنما المطلوب بدقة هو الالتزام بآداب الإسلام وأخلاقه.

٤- وعلى الدعاة والحركيين أن ينبهوا إلى أن النفس الإنسانية في عمومها يعتريها الضعف فتختان نفسها، أو تبرر لها الأخطاء أو تخدعها عن الحق، مع أن الله سبحانه وتعالى كما يقول سبحانه: ﴿خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من الأعمال ظاهرها وباطنها، سواء أكانت هذه الأعمال من أعمال البصر أو أعمال السمع أو اللسان أو اليدين أو الرجلين.

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى سوف يحاسب على كل هذه الأعمال ويجازي عليها، فعلى الإنسان أن يكون على حذر من ذلك، بل أن يكون على تعقل ووعي، فمهما كانت متع الإنسان وشهواته في الدنيا على جانب عظيم من وجهة نظره إلا أنها بكل تأكيد لا تساوي لحظات عذاب في جهنم.

ما دام الأمر أو النهي صادرا عن الله تبارك وتعالى فإن امتثال الإنسان واستجابته لما أمر الله ولما نهى هي الأصل، بل هي التي تحقق للإنسان مصلحة الدنيا والآخرة، كما أن الخروج على هذا الامتثال معصية تصيب صاحبها بالذل في الدنيا، وتجعله أهلا للحساب والعقاب في الآخرة.

ومن أجل ذلك عَقَّبَ الله تبارك وتعالى على كل الأوامر والنواهي في هاتين

الآيتين الكريمتين بقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

ولعل هذا التعقيب يشير - والله أعلم - إلى أن الله سبحانه يخبر الناس أنه يعلم أنهم سوف يقصرون في مجال ما أمروا به وما نهوا عنه، ومع ذلك يفتح لهم باب التوبة، بل يأمرهم من أجل مصلحتهم - أن يتوبوا إليه - إذا هم أرادوا لأنفسهم الفلاح في الدنيا والآخرة.

والدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية عليهم قبل غيرهم أن يقدروا ضعف النفس البشرية أمام شهواتها وملذاتها، وأن يعلموا أن كثيرا من هذه النفوس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي.

إذا قدر الدعاة ذلك فيما بينهم التمس بعضهم لبعض الأعذار فيما قد بدر أو يبدر من واحد منهم من عمل يأتي نتيجة لهذا الضعف البشري في معظم بني آدم، وليس هذا بعيب في الدعاة الذين يلتمسون الأعذار لغيرهم ولكنه بعد نظر وسعة أفق، وفتح لباب التوبة أما الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ويأتون بعض اللمم، والله سبحانه كما قال عن نفسه: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢] فهل يفتحون لهم باب التوبة والندم وتجديد الإيمان ودعمه بالعمل الصالح والهداية، أم يحولون بينهم وبين ذلك؟

* * *

الآيات من الثانية والثلاثين إلى الرابعة والثلاثين
في الحض على الزواج ووضع المعايير الصحيحة له، وللعفة
وتشجيع الزواج بالمكاتبة، ورفض مهر البغي
وتوضيح لبعض أهداف القرآن

﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

هذه الآيات الكريمة تخاطب المؤمنين، وتطالبهم بالزواج إعفافاً للنفس عن الحرام وتعلمهم كيف يختارون الأزواج للنساء اللاتي يكن في ولايتهم، وكيف يختارون الزوجات، وتضع لذلك كله المعايير الدقيقة في القبول وفي الاختيار، وتعلمهم أن من لم يستطع منهم الزواج فليستعفف ولا يرتكب جريمة الزنا بحال. حتى يمكنه الله من الزواج.

● وتفتح الآيات الطريق أمام العبيد والإماء ليدخلوا في عقد الكتابة مع مواليهم، لينالوا حريتهم بالعمل والمال، ويمتعوا بحقوقهم الإنسانية التي منحها الله لهم، فالعبودية والرق عارض يأتي بظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وهكذا يفتح الإسلام باب تحرير العبيد والإماء على مصراعيه عن طريق العتق وعن طريق المكاتبة، وعن طريق التدبير إذا تزوج الرجل بأمته فولدت له، فإنها تعتق بعد موته، إذ التدبير هو تعليق عتق العبد على موت سيده.

● وتقرر الآيات منع إكراه السيد لأمته على الزنا ليحصل هو على المال، أو يحصل على ولد الزنا ليسترقه إن كان ولدا، وربما يستغل المولود بعد ذلك في البغاء إن كان بنتا، وكانت هذه أمور سائدة في الجاهلية فمنعها الإسلام.

● وتوضح الآيات الكريمة ان القرآن الكريم قد اشتمل ـ فيما اشتمل عليه ـ على الدلائل البينة والأحكام الواضحة، وأخبر عن أحوال الأمم السابقة، وما حل بهم من عقاب حين خالفوا ما أمروا به أو ما نهوا عنه، كما اشتمل القرآن الكريم على الزجر عن ارتكاب المعاصي، والعظة للمتقين وغيرهم، وإنما خص المتقين ومدحهم بالذكر في قوله سبحانه ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لإشارة جليلة لطيفة هي ان المتقين المتعظين بالقرآن الكريم هم الناس، وأن غيرهم لا يتقون الله فيأتمرون بامره، وينتهون عن نهيه ليسوا من الناس وإنما هم أقل من ذلك، لأنهم لم يهتدوا ولم يستدلوا بعقولهم على وجوب الإيمان بالله، ولم يستجيبوا لاتباع منهج الله الذي بلغه لهم عن طريق الرسول الخاتم ﷺ، وهو منهج يتناول كل شئون الحياة بغير استثناء، ويتعامل معها من خلال الأمر: افعل كذا أيها الإنسان، ومن خلال النهي: لا تفعل كذا أيها الإنسان، وفي استجابته لهذا المنهج نجاحه وفلاحه في الدنيا والآخرة، وفي هذه الاستجابة دليل التقوى ودليل إنسانيته واستفادته من عقله، ومن الرسول الخاتم ﷺ.

إن القرآن الكريم الكتاب الخاتم المنزل الى الرسول الخاتم هو كما وصفه الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

والمعنى: زوّجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من أحرار رجالكم ونسائكم، ومن أهل الصلاح من عبيدكم وإمائكم.

والأيِّم: من لا زوج له من النساء أو الرجال.

والأمر في هذه الآية: ﴿وَأَنكِحُوا﴾ يحتمل الوجوب، كما يحتمل الندب، لأنه عام مجمل، فإن كان النساء أو الرجال يخشى عليهم الوقوع في الحرج أو

الضرر في الدين أو الدنيا بترك التزويج، كان تزويجهم واجبا. وإن لم يكونوا كذلك كان تزويجهم مستحبا، كما قال بذلك الإمام مالك والإمام أبو حنيفة رحمها الله.

ويدخل في هذا الأمر سواء أكان للوجوب أو للندب تزويج الصالحين من العباد والإماء، لأن حاجتهم إلى التزويج والتزوج كحاجة الأحرار، لأنه لا فرق في هذه الحاجة بين حر وعبد، وقد قلنا آنفا إن العبودية عارض أدى إليها ظلم الإنسان للإنسان.

● وهذا الأمر الإلهي الكريم جاء في هذه الآيات بعد الآيات التي أمرت بغض البصر من الرجال والنساء، وأمرت بحفظ الفرج من الزنا، ومن اطلاع الأجانب على العورات التي أمر الله بسترها، سوّت في هذا وذاك بين الرجال والنساء، وإنما جاء هذا الأمر بالتزويج بعد ذلك الأمر بغض البصر وحفظ الفرج، ليفسح الطريق أمام الغريزة الجنسية أن تعبر عن نفسها في إطار الشرعية والعفة والنكاح لا السفاح، حماية للمجتمع كله من الانحراف في التعبير عن هذه الغريزة التي أودعها الله في الإنسان ليحفظ بها نوعه إلى أن يشاء الله.

● ومعنى الأمر بإنكاح الأيامى: أي تزويج من ليس له زوج، لأن احتياج الرجل إلى المرأة واحتياج المرأة إلى االرجل من دواعي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولا رهبانية في الإسلام، ولا تبتل، ولا تجاهل لحاجة الجنس إلى الجنس الآخر، فالأصل أن يساعد المسلم في تزويج المسلمين بعضهم ببعض وأن ييسر ذلك ما استطاع، ولذلك جاءت الأحاديث النبوية الشريفة ترغب في الزواج وتمنع من وضع العقاب أمام الراغبين فيه.

روى الدارمي بسنده عن عبد الله بن مسعود[1] رضي الله عنه قال: كنا مع

---

(١) هو عبد الله بن مسعود الهذلي أبو عبد الرحمن (٠٠٠ - ٣٢هـ) صحابي من أكابرهم فضلا وعقلا وقربا من رسول الله ﷺ من أهل مكة سبق إلى الإسلام وكان أول من جهر بالقرآن بمكة، قال عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «وعاء ملئ علما» تولى بيت مال =

رسول الله ﷺ شباب ليس لنا شيء، فقال: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإن الصوم له وجاء».

وروى الدارمي بسنده عن سعيد بن المسيب(١) أنه سمع سعد بن أبي وقّاص(٢) رضي الله تعالى عنه يقول: لقد ردّ ذلك رسول الله ﷺ على عثمان(٣) ولو أجاز لنا التبتل لاختصينا».

وروى الدارمي بسنده عن أبي العجفاء السلمي(٤) رضي الله عنه قال سمعت عمر بن الخطاب يخطب، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: الا. لا تغالوا في صداق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله كان أولاكم بها رسول الله

= الكوفة بعد وفاة النبي ﷺ، وقدم إلى المدينة في خلافة عثمان رضي الله عنه فتوفي فيها عن نحو ستين سنة روى ٨٤٨ حديثا نبويا كما قال بذلك العلماء.

(١) سعيد بن المسيب سبق التعريف به.

(٢) هو سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي (٢٣ ق.هـ - ٢هـ) أحد العشرة المبشرين بالجنة صحابي جليل فتح العراق والمدائن وأول من رمى بسهم في سبيل الله وأحد الستة الذين عينهم عمر للخلافة، كان واليا على الكوفة في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما له في كتب الحديث ٢٧١ حديثا نبويا.

(٣) هو عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحي (٠٠٠ - ٢هـ) صحابي كان من حكماء العرب في الجاهلية يحرم الخمر، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلا وهاجر إلى الحبشة مرتين، وأراد أن يتبتل ويسيح في الأرض زهدا في الحياة فمنعه النبي ﷺ وقال له: يا عثمان إن الله لم يبعثني بالرهبانية (مرتين أو ثلاثا) كان أول من مات بالمدينة المنورة من المهاجرين وقد قبله النبي ﷺ ميتا، وكان أول من دفن بالبقيع.

(٤) أبو العجفاء هو مجاشع بن مسعود بن ثعلبة السلمي (٠٠٠ - ٣٦هـ) صحابي من القادة الشجعان استخلفه المغيرة بن شعبة على البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه وغزا كابل وفتح حصن أبرديز بفارس، له خمس أحاديث في الصحيحين وغيرهما وكان مشهورا بالكرم والسخاء.

ﷺ . ما أصدق امرأة من نسائه ولا أُصدقت امرأة من بناته فوق ثنتي عشرة أوقية[1] ألا وإن أحدكم ليغالي بصداق امرأته حتى يبقى لها في نفسه عداوة، حتى يقول: كلفت لك علق القربة أو عرق القربة»[2].

● ومعنى الصالحين في الآية: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ﴾ أي الأتقياء، أي زوجوهم ولا تكلوهم إلي تقواهم لتكون هي سبب العفة لهم، لأن ذلك يوقعهم في العنت والمشقة، وذاك اعتراف من الشارع الحكيم بأن ترك الزواج مشقة وعَنَت، فلا ينبغي أن يتسبب أحد من المسلمين فيه لأحد آخر.

وهذا يؤيده وجوب الزواج على من استطاع الباءة كما جاء في الحديث الشريف الذي ذكرناه آنفا، والحديث النبوي الذي رواه الدارمي بسنده عن ابن أبي نجيح رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قدر على أن ينكح فلم ينكح فليس مِنَّا».

هذا في شأن الصالحين إذا تقدموا راغبين في الزواج وجب أن تسهل لهم الأمور وتيسر لهم المهور.

أما غير الصالحين فإن العلماء يرون أن تزويجهم آكد وأقوى لحسم الشر في المجتمع، ويقول العلماء أصحاب هذا الرأي: إن ذلك يفهم من دلالة الفحوى، فتزويج هؤلاء من باب أولى.

على أن بعض المفسرين فسروا كلمة (الصالحين) بأنهم القادرون على أعباء الزواج الصالحون له، ولأعباء الزوجية الأخرى المعنوية والمادية.

– وأسلوب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني في مجمله وقبل أن نفصله أن رفض التزويج أو الزواج

---

(١) الأوقية جزء من اثني عشرة جزء من الرطل المصري.

(٢) هذا التعبير كله كناية عن أنه تكلف لها حتى ما هو في حاجة إليه.

بسبب الفقر افتيات على قضاء الله وقدره، فربما يغني الله الفقراء من فضله فهو سبحانه الغني الواسع الغني العالم بما يصلح شئون عباده.

وتفصيل أركان هذا الشرط كما يلي:

«إن»: أداة الشرط.

«ويكونوا فقراء»: فعل الشرط «يكونوا».

و«يغنهم الله من فضله»: جواب الشرط.

والمعنى الذي استقر عليه أغلب المفسرين لهذه الآية الكريمة هو: لا تعدلوا عن تزويجهم لفقرهم، لأن الله وعدكم ووعدهم بالغنى والسعة.

«روى الفخر الرازي(١) بسنده عن أبي بكر - رضي الله عنه - قال: «أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى».

وعن عمر وابن عباس رضي الله عنهم مثله.

وقال ابن عباس: «التمسوا الرزق بالنكاح».

وشكى رجل إلى رسول الله ﷺ الحاجة فقال: «عليك بالباءة».

وقال طلحة بن مُصرف(٢): «تزوجوا فإنه أوسع لكم في رزقكم، وأوسع لكم

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري فخر الدين الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦هـ) الإمام المفسر، قالوا: إنه أوحد زمانه في المنقول والمعقول وعلوم الأوائل وهو قرشي النسب ولد في الري وإليها ينسب: «الرازي» وتوفي في هراة وله تصانيف كثيرة على رأسها تفسيره: مفاتيح الغيب، ولوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات، ومعالم أصول الدين، ومحصل افكار المتقدين والمتاخرين من العلماء الحكماء والمتكلمين، وكتاب في الهندسة وغيرها كثير.

(٢) هو طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب الهمذاني اليامي (٠٠- ١١٢هـ) أبو محمد، اقرأ أهل الكوفة في عصره، كان يسمى سيد القراء، وهو من رجال الحديث الثقات. ذكره ابن حبان في كتابه: الثقات وكان من أهل الورع والنسك روى عن عدد من -

في أخلاقكم، ويزيد في مروءتكم».

على أن بعض العلماء يرون أن ذلك وعدا من الله سبحانه وتعالى ويكون المعنى عندهم: لا تنظروا إلى فقر من يخطب إليكم أو فقر من تريدون تزويجها، ففي فضل الله ما يغنيهم، والمال غاد ورائح، وليس في الفقر ما يمنع من الرغبة في النكاح.

والرأي الأول أقوى والله أعلم(١).

● ومن الأوامر في الآية الكريمة أمر بالاستعفاف لمن لا يجد القدرة على النكاح وهو قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أي ليلتزم العفة من كان لا يجد ما ينكح به النساء، حتى يغنيه الله من فضله، أي ييسر لهم النكاح بأنفسهم أو بإذن أوليائهم ومواليهم.

أخرج الإمام أحمد والترمذي ـ وصححه ـ والنسائي وابن ماجة وابن حبان والحاكم ـ وصححه ـ والبيهقي في سننه بأسانيدهم عن أبي هريرة رضي الله عنه(٢) قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة حق على الله تعالى عونهم، الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء والغازي في سبيل الله تعالى.

= الصحابة وعدد من التابعين رضي الله عنهم أجمعين، وروى عنه عدد من العلماء بالحديث منه الأعمش.

(١) الفخر الرازي: تفسيره الكبير: ٢٣/ ١٨٦ مرجع سابق.

(٢) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي الملقب بأبي هريرة (٢١ق.هـ - ٥٩هـ) كان أكثر الصحابة حفظا للحديث النبوي وأكثرهم رواية له روى ٥٣٧٤ حديثا وروى عنه أكثر من ثمانمائة ما بين صحابي وتابعي، وتولى إمارة المدينة المنورة مدة، وولي البحرين في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم رآه لين العريكة مشغولا بالعبادة فعزله، ثم أراده بعد ذلك في عمل فاعتذر توفي بالمدينة المنورة، وكان أكثر مقامه بها، وكني أبا هريرة، لهرة صغيرة كان يحملها معه.

وأخرج الديلمي[1] بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، ان النبي ﷺ قال: «التمسوا الرزق بالنكاح» والمعنى والله أعلم: ان من كان مضيقا عليه في الرزق إذا تزوج فإن لزوجته رزقا كتبه الله لها، ولأولاده منها أرزاق كتبها الله لهم فإذا انضم كل هذا بعضه إلى بعض زاد الرزق واتسع.

● وفي الآيات أمر موجه إلى مَنْ يملكون رقيقا من رجال أو نساء بأن يكاتبوا هؤلاء الرقيق إن علموا فيهم خيرا، وان يعينوهم في مكاتبتهم ليحصلوا على الحرية ويخرجوا من الرق والعبودية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾.

والكتابة للعبد أو الأمة أن يقول له سيده: كاتبتك على كذا ويحدد ما كاتبه عليه، بحيث إذا أدى ما كوتب عليه يصبح حرا، والمكاتبة عقد من العقود الشرعية يخضع لما تخضع له هذ العقود من شروط وآداب[2].

وقبول السيد لأن يكاتب عبده تقرب إلى االله تعالى، لأنه من العمل الصالح الذي يدّخر أجره عند الله تبارك تعالى.

---

(١) هو محمد بن الحسن الديلمي (٠٠٠ – ٧١١هـ) فقيه زيدي أصله من الديلم - وهم من العجم كانوا يسكنون اذربيجان - انتقل إلى اليمن وسكن صنعاء، وتوفي بوادي مرّ في رجوعه إلى بلاده، له كتاب قواعد عقائد آل محمد وهو من أصول كتب الزيدية، وله غيره من الكتب.

(٢) يرى الفقهاء أن عقد الكتابة أن يقول لمملوكه: كاتبتك على كذا ويسمي مالا معلوما يؤديه على نجمين (قسطين) أو أكثر، ويبين عدد النجوم وما يؤدي في كل نجم، ويقول: إذا أدّيْتَ ذلك المال فانت حر، أو ينوي ذلك بقلبه، ويقول العبد قبلتُ. ويشترط ان يكون المكاتب عاقلاً بالغاً، ويشترط في المكاتب ان يكون مكلفا مطلقا، فإن كان صبيا أو مجنونا أو محجوراً عليه بالسّفه لا تصح مكاتبته - كما لا يصح بيعه - لان قوله تعالى: ﴿ فكاتبوهم ﴾ خطاب فلا يتناول غير العقلاء.

● وفي الآية الكريمة ترغيب للسيد أن يكاتب عبده أو أمته إذا طلبوا ذلك، بعد أن رغبهم في ترويج الصالحين من العبيد والإماء، وذلك إذا علموا فيهم خيرا أي صلاحا في الدين وأمانة وقوة.

● والأمر في قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ اختلف العلماء فيه، هل هو أمر إيجاب أم أمر استحباب؟

● قالت طائفة من العلماء إنه أمر إيجاب واستدلوا على ذلك بظاهر الآية ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ ويدل عليه سبب نزول الآية فإنها نزلت في غلام لحويطب بن عبد العُزّى يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية، فكاتبه على مائة دينار، ووهب له منها عشرين دينارا، كما استدلوا أن الأمر للإيجاب بما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر أنسا أن يكاتب «سيرين أبا محمد بن سيرين» فأبى، فرفع عليه الدرة وضربه وقال ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ وحلف عليه ليكاتبنه، ولو لم يكن ذلك واجبا لكان ضربه بالدرة ظلما، ولم ينكر على عمر أحد من الصحابة رضي الله عنهم فجرى ذلك مجرى الإجماع.

● وقالت طائفة من العلماء إنه أمر استحباب، واستدلوا على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «لايحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه»[1].

● وفي الآية أمر لمن يملكون العبيد المكاتبين بأن يحطوا عنهم من مال الكتابة ما رغبوا فيه، فإن لم يحددوا، فالأصل أن يحط عنه سُبْعَ ما كاتبه عليه من مال. كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما في مكاتبه إذ حط عنه خمسة آلاف درهم من خمسة وثلاثين ألفاً كان قد كاتبه عليها.

وقيل يحط الربع، كما ورد عن علي رضي الله عنه.

ويمكن أن يكون الأمر بالإعانة في المكاتبة لسائر المسلمين حتى الذين لم يملكوا عبيدا ولا كاتبوا أحدا، لأن الله تعالى جعل للمكاتبين سهما من سهام الزكاة

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير: ٢٣/ ١٨٩ مرجع سابق.

الثمانية وهو سهم «وفي الرقاب» وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز للسيد أن يدفع زكاته المفروضة عليه إلى عبده الذي كاتبه.

● أما تفسير كلمة الخير في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً﴾ فقال بعض العلماء إنها الحرفة والقدرة على الكسب، واستدلوا على ذلك بما روي عن النبي ﷺ: «إن علمتم لهم حرفة فلا تدعوهم كلاً على الناس»[1].

وقال ابن سيرين: خيرا أي صلاة.

وقال النخعي: وفاء وصدقا.

وقال الحسن: صلاحا في الدين.

وقال الشافعي: أمانة وقوة.

وقال بعضهم: مالاً، وهو ضعيف وذلك أن مال العبد لسيده.

● وأما تفسير كلمة آتوهم في قوله تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ فهو: أن يحط السيد عن عبده المكاتب جزءا من مال الكتابة على نحو ما بينا آنفا، وقيل: يدفع إليه جزءا مما أخذ منه، وقيل: إن هذا أمر من الله تعالى للسادة وللناس أن يعينوا المكاتب على كتابته بما يمكنهم، فقد روي أن رجلا قال للنبي ﷺ: «علمني عملا يدخلني الجنة. قال: «لئن أقصرت الخطبة لقد أعظمت المسألة، أعتق النسمة، وفك الرقبة، فقال: أليسا واحدا؟ فقا: لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها».

– وأما النهي ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

فذاك نهي عن إكراه السيد لأمته على الزنا ليحصل من وراء ذلك عن منفعة دنيوية.

---

(١) المرجع السابق: ٢٣/ ١٩٠.

● وكان الناس يفعلون ذلك في الجاهلية.

● وكان لعبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق في المدينة المنورة ست جوارٍ، يكرههن على البغاء ـ الزنا ـ وضرب عليهن ضرائب، فشكت اثنتان منهن إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية الكريمة.

وروى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء عبد الله ابن أبيّ إلى رسول الله ﷺ ومعه جارية من أجمل النساء تسمى معاذة، فقال: يا رسول الله. هذه لأيتام فلان، أفلا تأمرها بالزنا فيصيبون من منافعها؟ فقال ﷺ: لا، فاعاد الكلام فنزلت الآية ﴿وَلَا تُكْرِهُوا...﴾ الآية.

وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه[1]: جاءت جارية لبعض الناس فقالت: إن سيدي يكرهني على البغاء. فنزلت الآية[2].

● وهنا حكم يفهم من سياق الآية الكريمة وهو أن الإكراه على الزنا إن كان بالتخويف بإتلاف النفس فلا حرج على المكرهة أما إن كان بالتخويف بما دون ذلك فلا تصير مكرهة.

● والإكراه على الزنا كالإكراه على كلمة الكفر، وإن كانت الآية مختصة بالإماء إلا أن حال الحرائر كذلك.

● وقول تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى كسبهن من المال، وأولادهم من الزنا.

ـ وأما الخبر المؤكد فهو أن الله تبارك وتعالى غفور لمن أكرهت على الزنا رحيم

---

(١) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الخزرجي الأنصاري (١٦ق.هـ ـ ٧٨هـ) صحابي وابن صحابي غزا تسع عشر غزوة، وروى عن النبي ﷺ ١٥٤٠ حديثا رواها له البخاري ومسلم وأصحاب السنن روى عنه جماعة من الصحابة، كان له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم فيها.

(٢) السابق: ٢٣/ ١٩٢.

بها، إذ لا إثم في الإسلام على المكره ولا عقوبة فالإكراه عذر للمكرهة يزيل عنها الإثم والعقوبة.

ويرى بعض العلماء أن المغفرة والرحمة تشمل المكرِه لما تشمل المُكْرَهة بشرط أن يتوب، وهذا وجه ضعيف من التأويل. وقد أُكِد هذا الخبر بإنّ.

– وأما الخبر المؤكد بأكثر من أداة توكيد فهو في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

وذلك أن الله تبارك وتعالى يخبر عن وصف القرآن الكريم في هذه الآية بثلاث صفات:

- أنه جاء إلى المؤمنين بآيات مفصلات واضحات.
- وأنه جاء بما وضّح أحوال السابقين، وما حل بهم من عقاب استحقوه لأنهم عصوا الله ورسله عليهم السلام.
- وأنه جاء بالتحذير والوعيد على فعل المعاصي، وفي ذلك عظة للمتقين وللناس جميعا إن هم فكروا بعقول خالية من الهوى.

وقد أكد هذا الخبر باللام في قوله: (لقد) إذ هي لام القسم. وأُكد بقد في قوله: (لقد) وقد: حرف تحقيق يفيد الاهتمام بما يجيء بعده.

وإنما كان ما بعد (قد) هامًا لأنه اشتمل على ما ينفع الناس في معاشهم ومعادهم، وما يقيم نظم جماعتهم على أحسن الأسس، وبما يميز الحق عن الباطل.

وبما يزيل عن الأذهان التباس الحق بالباطل، والصواب بالخطأ، لأنه يعلم الناس طرق النظر الصائب، والتفكير الصحيح.

وبما يضربه من أمثال من حياة الأمم السابقة، لتكون أمة الإسلام على حذر من معصية الله ورسوله، حتى لا يحدث لهم العقاب الذي حدث للأمم السالفة.

وبما يشتمل عليه القرآن الكريم من عظة، والعظة هي الزجر المقترن بالتخويف،

وقيل هي التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والصواب أن العظة تشمل المعنيين.

والقرآن عظة بكل معنى من هذين المعنيين فهو قد اشتمل على الزجر المقترن بالتخويف، وعلى التذكر بالخير فيما ترق له القلوب.

وكل هذا الذي ذكرنا جاء بعد «قد» التي يهتم بما بعدها والله سبحانه وتعالى أعلم.

وهنا تتوقف الآيات عن الاسترسال في ذكر الأحكام لتتحدث عن موضوع آخر له صلة وثيقة بالعقيدة على نحو ما سنبين إذا أذن الله تعالى.

■ وفي الآيات الكريمة من المواقف التربوية العامة ما نشير إلى بعضه فيما يلي والله المستعان:

١- أن الإسلام لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شيء إلا إذا كان ذلك في صالح المجتمع المسلم بل المجتمع الإنساني كله، في دينه ودنياه، وما يأمر به الإسلام وما ينهى عنه أي الأحكام الشرعية، غالبا ما يأتي بعدها ما يشير أو يؤكد وجوب التقيد بها، وفي كثير من الأحيان تُعقب هذا الأحكام بما يعين على تنفيذها، وهذا وذاك من رحمة الله بالإنسان، ومن الأدلة النيرة على أن أحكام الشريعة هي الحل لكل مشكلات الإنسان.

وعلى سبيل المثال:

في هذه الآيات الكريمة سبقت بآيات تدعو إلى العفة والإعفاف عن طريق غض البصر وحفظ الفرج، ولأن غض البصر صعب وحفظ الفرج صعب كذلك، لما أودع الله في الإنسان من ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إل الرجل - جاء الحل في هذه الآيات الكريمة، الحل بالزواج والتزويج، للتعبير عن هذه الرغبة بطريقة مشروعة تحفظ على المجتمع نظامه ونظافته وعفة أفراده.

أمرت الآيات الأولياء والآباء أن يزوجوا من كان بلا زوج وهن الأيامى ما دام

قد تقدم إلى الى التزوج منهن من كان موضع رضا في الدين والأمانة، فقد روى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض».

إذا جاء هذا الذي يرضى خلقه ودينه من الأحرار أو العبيد زوج، وما لم يزوج فإن الولي أو الأب قد ساعد بهذا الرفض على أن توجد الفتنة في الأرض والفساد العريض.

وفي الوقت نفسه أوضحت الشريعة المعايير التي تختار على أساسها المرأة لتكون زوجة، فقد روى النسائي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

هذا هو الحل لموضوع العلاقة بين الرجل والمرأة، وهو السبيل للقضاء على البغاء وعلى مقدماته ودواعيه، ويعزز هذا الحل تلك التيسيرات التي وضعها التشريع الإسلامي للزواج والتزوج مما تحدثنا عنه آنفا.

٢- ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن العزوف عن تزويج الفقراء خلل في فقه الأب أو الولي، وعدم ثقة فيما عند الله من فضل ورزق، وكأنه بغفلته قد رأى أن الفقر صفة لازمة، مع أن الأرزاق كلها بيد الله، والله واسع عليم.

وقد شرح الإمام الغزالي أبو حامد رحمه الله معنى السَّعة فقال: «والسعة تضاف إلى العلم إذا اتسع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتضاف إلى الإحسان وبذل النعم.

وكيفما قدِّر، وعلى أي شيء نزل، فالواسع المطلق هو الله تعالى، لأنه إن نُظر إلى علمه فلا ساحل لبحر معلوماته وإن نظر إلى إحسانه ونعمه فلا نهاية لمقدوراته».

وإن قوله تعالى : ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ تسد الطريق أمام الرافضين للزواج والتزويج بسبب الفقر، تسده سداً محكما بالتذكير بأن الله سبحانه يغني الفقير من فضله وأنه سبحانه واسع عليم.

أفلا يفيق الباحثون عن أملاك الزوج وأملاك الزوجة وما يحوزونه من أعراض الدنيا؟ أفلا يفيقون من غفلة فقدهم للثقة في الله سبحانه وفي فضله وسعة عطائه؟

إن القرآن إنما نزل لعلاج هؤلاء الغافلين.

٣-ونتعلم من الآيات الكريمة أن من أصابته حاجة أو فقر أو عجز عن الوفاء بمقتضيات الزواج، فحيل بينه وبين هذا الحلال والاستعفاف، فليس له أبداً أن يلجأ إلى التعبير عن حاجته إلى الزواج بالمخادنة أو السفاح، لأن ذلك حرمه الله تعالى، وما دام قد حرم فإنه لو فعل أضر بفاعله وأضر بالمجتمع كله.

ولكن ما الحل لهذا الذي يرغب في الزواج ولا يملك أدواته وأسبابه؟

إن الحل الأمثل هو ما أوضحته الآية الكريمة وهو الاستعفاف والتمسك بالعفة والفضيلة والصبر حتى يغنيه الله ويهيئ له الأسباب ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.

وجاءت السنة لتوضح وتفصل كيفية الحل لمن يرغب في الزواج ولا يملك أسبابه في الحديث الشريف الذي ذكرنا آنفا، وفي آخر: «.... ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء».

وفي الآية معنى تربوي عميق بعيد الغور يهدي كل إنسان في الحياة، وهو أن كل من حزبه أمر من أمور الدنيا وأراد الخلاص منه فلم تسمح له الظروف والإمكانات، فإن عليه الانتظار والصبر بعد الأخذ بالأسباب، والتمسك بالفضيلة والعفة حتى يغنيه الله من فضله، لأن الله واسع الفضل عليم بما يصلح عباده.

ألا ما أجمل أن يكون شعار المؤمنين: لنستعفف حتى يغنينا الله من فضله

ليواجهوا به كل مشكلة.

٤- ونتعلم من الآيات الكريمة أن من كان تحت يده رقيق إناث أو ذكور فإن عليه أن يسرع ما وسعه إلى تحريرهم من هذه العبودية التي فرضت عليهم ظلما وعدوانا، سواء أكان تحريرهم بالعتق لما روى أبو داود بسنده عن عمر بن عنبسة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة كانت فداء له من النار» أم كان تحريرهم بالمكاتبة مع عونهم فيما كوتبوا عليه بأن يحط عنهم السبع أو الربع على نحو ما أوضحنا آنفا، ولو زاد فيما يحط عنهم لكان خيرا له عند الله تعالى.

ولعل هذه المكاتبة، وندب المولى أن يساعد مكاتبه هي من عدة الله تعالى لهؤلاء الرقيق بان يغنيهم من فضله إذا كانوا يرغبون في الزواج إعفافا لأنفسهم مع قدرتهم على ذلك، ففتح الله لهم باب المكاتبة أي باب الحرية والغنى.

وكل ذلك إنما هو احترام من الإسلام لإنسانية الإنسان، وتقدير لحوائجه النفسية والجسدية، وتخليص له من ربقة العبودية التي فرضت عليه ظلما في غالب الأحيان.

إن ذلك أحد حلول مشكلة الرقيق كما جاء به الإسلام.

ونتعلم من الآيات الكريمة أن احتراف الزنا أو التشجيع عليه محرم في كل حين وعلى أي حال، وأن أولئك الذي يتكسبون من الزنا أو من وراء الزنا يرتكبون كبيرة حرمها الله، بل حرم كل أسبابها.

وقد جاء الإسلام بهذا التحريم القاطع ليطهر المجتمع الإنساني من هذه الجريمة التي تعد من أقدح الجرائم لما يترتب عليها من مفاسد لا تحصى لكثرتها، وحسبها أنها فاحشة وساءت سبيلا لفاعلها.

وتلك الجريمة - البغاء أو الزنا - كانت معروفة قبل الإسلام بزمن غير قصير، وفي مجتمعات غير قليلة.

وقد كان البغاء معروفا بل مشروعا في بعض الشرائع التي سبقت وجود الإسلام

ـ الشرائع الأرضية لا السماوية ـ فقد جاء في العهد القديم في سفر التكوين في الإصحاح الثامن والثلاثين من الكتاب الذي بين أيديهم اليوم، ما نصه:

«فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلففت وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمنة... فنظرها يهوذا وحسبها زانية، لأنها كانت قد غطت وجهها، فمال إليها على الطريق وقال: هاتي أدخل عليك، فقالت: ماذا تعطيني لكي تدخل عليّ؟ فقال: أرسل جدي معزى من الغنم...ودخل عليها فحبلت منه»(١).

وكذلك كان شأن البغاء في الجاهلية، حتى كانت البغايا تضعن على بيوتهن رايات ليعرفها الزناة من الرجال.

وكان لعبد الله بن أبي بن سلول ست من البغايا معروفة أسماؤهن، وكان يتكسب من بغائهن، وبلغت به القِحة أن يطلب من رسول الله ﷺ أن يأذن لإحداهن في الزنا، فرفض ﷺ ـ كما أوضحنا آنفا ـ.

وكان هذا البغاء في الجاهلية معدودا من أنواع النكاح الأربع المعروفة لدى الناس آنئذ، ولكنه عرف عند الناس، وليس تشريعا سماويا.

ولقد جرَّم الإسلام، وحرم على من يملكون إماءً أن يكرهوهن على البغاء ليتكسبوا من زناهن، حرم الإسلام هذا الأجر وعده من أخبث الأموال، ومن أكبرها شرا، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن رافع بن خديج(٢) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «شر الكسب مهر البغي ـ وقد سمى أجر الزانية مهرا ـ وثمن الكلب وكسب الحجام».

---

(١) من المؤكد أن مثل هذا الزنا لا يمكن أن يشرعه الله أو يرضاه.

(٢) هو رافع بن خديج بن رافع الأنصاري الأوسي الحارثي (١٢ ق. هـ - ٧٤هـ) صحابي، كان عريف قومه بالمدينة شهد أحدا والخندق، وروى عن النبي ﷺ ٧٨ حديثا. وتوفي بالمدينة متأثراً بجراحه.

وفي رواية للترمذي عن رافع بن خديج أيضا، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثمن الكلب خبيث، ومهر البغي خبيث وكسب الحجام خبيث».

وقد كان البغاء في الجاهلية في بعض الحرائر باختيارهن للارتزاق، ومن هؤلاء كانت عناق صاحبة مرثد بن أبي مرثد التي تقدم الحديث عنها ونحن نشرح قوله تعالى: ﴿الزَّانِي لا يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

والبغاء لا يقل خطرا في إفساد المجتمع عن الزنا وإن كان البغاء في العلن والزنا في السر.

والمجتمعات الغربية اليوم تمارس البغاء إذا أردنا الدقة في وصف ما هم عليه من كسر لقيود الزواج، ورغبة في التمرد على نظام الزواج وقيمه، فلقد تركوا في الغرب الزنا، وما يحيط به من سرية وكتمان ولجئوا إلى إعلان الزنا وأخذ أجر عليه، وهو بعينه البغاء الذي حرمه الله تعالى.

ولم يعد عندهم حياء من البغاء، فلماذا يلجئون إلى الزنا؟ ولم يعد لديهم مشكلة في إلحاق أبناء البغايا بآبائهم، لأن الطفل غالبا مجهول الأب، فهو يلحق بعائلة أمه، أو بعائلة من سوف يتزوج بأمه البغي فيما بعد!!!

وما جرني إلى الحديث عن البغاء في الغرب إلا تبجح الغرب وافتئاته على الإسلام، مع تنكره لأبسط القواعد الإنسانية وهي أن ينسب الولد لأبيه، وألا تتجر المرأة هناك في عرضها وشرفها!!!

ويتبجحون هناك بزعمهم أن الإسلام لا يعطي للمرأة حقوقها!!! فماذا يعرفون عن الإسلام؟ لا يعرفون عنه سوى الحقد عليه إلا قليلا ممن ينصفون.

وماذا يعرفون عن حقوق المرأة التي كرمها الإسلام وصانها؟ أمن حقوقها أن تطارد الرجال وأن تبيع جسدها باسم الحرية أو باسم حقوق الإنسان؟

إن المرأة في المجتمعات الغربية معظمها، تذكرنا ببغايا الجاهلية من الإماء!![1].

وليس فيما قلت شيء من التحامل على هذه المجتمعات الغربية فإن من يزر أي بلد غربي في أوربا أو أمريكا يجد هذا واضحا لكل ذي عين، بل على قارعة الطريق أحيانا، ومن لم يزر الغرب يقرأ قصصه ويشاهد «أفلام السينما» وموضوعات المسلسلات، التي تصب علينا اليوم صبا في العالم الإسلامي وهي توشك أن تغرق العالم الإسلامي في بحر من الانحلال الأخلاقي المتلاطم.

ولقد سرت هذه العدوى إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي فاصبح بعض الكتاب وبعض مؤلفي المسرح والسينما يحذون حذوهم ويحاولون إقناع المجتمع المسلم بهذا البغاء!!!

إن الإسلام الحنيف وهو يحارب البغاء والزنا إنما يطهر المجتمع المسلم من أفتك الآفات وأبشعها، ليحافظ على عفة الرجال وعفة النساء ونقاء الأنساب، ونسبة الأبناء إلى آبائهم، وهو بذلك يحترم المرأة ويصون كرامتها، ويرتفع بها عن مستوى ما وضعتها فيه الحضارة الغربية إذ جعلتها متعة جسدية تباع كما تباع السلع الخبيثة الضارة.

٦- ونتعلم من الآية الكريمة التي جاءت آخر هذه الآيات الثلاث وهي: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أن نفزع إلى القرآن عند كل أمر يحزبنا، ففيه العلاج والحل، وفيه الأدلة الواضحة والعلامات البارزة التي تهدي الى حلول جميع مشكلات الإنسان في حياته كلها، فما من خير للبشرية في معاشها ومعادها إلا وقد أمر القرآن به أو بنظيره وما من شر للبشرية إلا نهى عنه.

---

(١) للتوسع في هذا: انظر للمؤلف المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله - نشر دار الوفاء ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

وما من شيء أو علم نافع إلا وبينه القرآن الكريم، فقد قال الله تعالى مخاطبا رسوله الخاتم ﷺ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء، وقال مجاهد: كل حلال وكل حرام.

وقال الإمام ابن كثير القرشي(١): « . . . فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع، من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه يحتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»(٢). وما من عبرة من تواريخ السابقين من الأمم إلا ونبه إليها.

والتاريخ في عمومه كتاب نافع لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ومهما تكن كتب التاريخ التي سبقت نزول القرآن الكريم، أو كتبت بعد نزوله، مهما تكن فيها درجة الثقة والدقة، فإنها لن تخلو أبدا من الزيغ، والضلال أو المبالغة أو التهوين من الناس والأحداث، هذا شأن كتب التاريخ معظمها، وتلك سنة البشر في كتابة تاريخهم.

أما القليل النادر من كتب التاريخ الدقيقة الموثقة، فإن بعض النقاد البصراء لا يولونها نفس الثقة، وإنما يصدقون منها ويكذبون، وهم على حق أو بعض الحق في موقفهم هذا.

أما ما ذكر في القرآن الكريم عن أحوال الأمم السابقة ومواقفها من رسلها وأنبيائها، فلا يمكن أن يقارن بما جاء في كتب التاريخ، وكيف نقارن ما حكاه الله

---

(١) هو إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء عماد الدين (٧٠١- ٧٧٤هـ) حافظ للسنة مؤرخ فيه، ولد في قرية من أعمال بصري الشام وانتقل إلى دمشق ورحل في طلب العلم وتوفي بدمشق ومن كتبه: البداية والنهاية في التاريخ، وتفسير القرآن العظيم والباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث وغيرها.

(٢) ابن كثير: تفسيره: ٢/ ٥٨٢ ط الحلبي ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

سبحانه وتعالى، بما يحكيه البشر وما يحكمهم من أهواء؟

إن ما جاء في القرآن الكريم من قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام هو المصدر الوحيد الموثوق فيه الذي هو تنزيل من حكيم حميد.

لقد أعطى القرآن الكريم العبرة من هذ القصص، ولم يكن مجرد تسلية أو قراءة عابرة دون اعتبار، وإنما كان كما قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

وما من عظة للإنسان تدعوه إلى الخير وتصرفه عن الشر إلا والقرآن الكريم أصلها الصحيح ومصدرها الوثيق.

● وإذا كانت العظة أو الموعظة - كا قال أسلافنا -: كلام أو حالة يعرف منها المرء موضع الزلل، فينتهي عن اقتراف أمثالها، فإن القرآن الكريم مليء بهذه المواعظ العظيمة.

● وإذا كان الوعظ زجرا مقترنا بتخويف - كما قال بذلك بعض العلماء - فإن في القرآن من ذلك ما هو كثير وبالغ التأثير.

● وإذا كانت العظة تذكير بالخير فيما يرق له القلب - كما قال بذلك بعض العلماء - فإن القرآن الكريم غني بما يرقق القلوب ويجلو عنها الصدأ والران، ولا عجب في ذلك فقد وصفه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بانه مأدبة الله فتعلموا من مأدبته ما استطعتم[1] إن هذا القرآن حبل الله والنور والشفاء والنافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه...»[2].

● والقرآن موعظة للمتقين، نتعلم منها أن مَنْ لم يتعظ بالقرآن فليس من المتقين

---

(١) وقد روي مثل هذا مرفوعا بنص طويل ولكن علماء الحديث رجحوا أنه موقوف على ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الدارمي: سننه: ٢/ ٤٣١ ط دار إحياء السنة النبوية دون تاريخ.

الذين يخافون الله تعالى فيأتمرون بأمره وينتهون عما نهى الله عنه، ومن كان أمره كذلك لا يخاف خالقه سبحانه وتعالى، فهو مغلق القلب فاسد العقل، وإذا قسا قلب الإنسان حتى أغلق دون الخوف من الله، وفسد عقله حتى لم يعد يميز الصحيح من السقيم، فماذا بقي له من صفات الإنسانية؟ ما بقي إلا الجسد والشهوات وهذه يشاركها فيها الحيوان.

■ ومن المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة، ما نشير إلى بعضه فيما يلي، والله المستعان.

١- على الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن ينبهوا الناس إلى حقيقة كبرى لو فقهوها انصلح لهم أمر أنفسهم وأمر معاشهم، وهي أن التعبير عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها بمختلف ما تشتمل عليه هذ الفطرة من غرائز ورغبات، هذا التعبير مشروع بل مطلوب ولكن من خلال قنواته الشرعية التي لا يجوز العدول عنها في التعبير عن تلك الغرائز والرغائب.

● والقائلون بكبت هذه الغرائز زهدا أو ورعا مع القدرة على التعبير عنها بالطريق الشرعي، مخطئون، يحاربون الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

فلا كبت هذه الغرائز جائز ولا التعبير عنها في غير القنوات الشرعية جائز كذلك، من أجل أن يعيش الإنسان حياة إنسانية راضية مرضية.

● وقضية العفة والاستعفاف بالنسبة للغريزة الجنسية، مجالها الصحيح هو الزواج الشرعي، وفق المعايير التي حددتها السنة النبوية للزوجة أو الزوج كما أوضحنا آنفا.

وانحراف هذه الغرائز وضلالها هو اللجوء إلى التعبير عنها بوسائل لم يشرعها الله سبحانه وتعالى، كما أن كبتها خطأ كما قلنا آنفا.

● وتوقف الزواج أو التزويج بسبب الفقر، غفلة وسفه لأن المعيار الصحيح

لحسن اختيار الزوج والزوجة هو الصلاح والتقوى كما دلت على ذلك الأحاديث النبوية التي ذكرناها آنفا.

● وهذا المعيار هو الذي يعدل سائر الموازين المختلفة عن بعض الناس، فيغيروا مقولاتهم المأثورة عن كثير منهم، وهي قولهم: أكرمنا عند الله أغنانا مالا وجاها، إلى المقولة الصحيحة التي تقيمهم على الصراط المستقيم صراط الله وهي: أكرمنا عند الله أتقانا.

● وأن من كان حسن النية والقصد، فأراد من التزويج أو الزواج الإعفاف، لم ير في الفقر حائلا دون التزويج أو الزواج، فإن المؤكد المقطوع به هو أن الله تعالى يغني هذا الفقير من فضله الواسع العميم.

● وهذه القضية الهامة وهي الإعفاف بالزواج ترمز عندنا إلى أمور كثيرة نشير منها إلى ما يلي:

● لا ينبغي أن نفضل على الصلاح والتقوى أي اعتبار من جاه وغنى في الزواج أو غيره من أمور الحياة كلها صغيرها وكبيرها حتى تستقيم الحياة للإنسان فيحقق بها سعادة الدنيا والآخرة، وما المال إلا غاد ورائح لأنه عرض زائل، والثابت هو الخلق والدين أي الصلاح والتقوى.

● ويتعلم الدعاة من قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ أن أمور الدعوة والحركة كلها تخضع لهذا التغيير، الذي بيد الله تبارك وتعالى، فقد يضيق على الدعوة والدعاة وقد ترصد حركات العاملين من أجل الإسلام، بل قد تكمم الأفواه على يد ظالم من الظالمين، ولكن ما ينبغي أن يفقد الدعاة الأمل في أن يغنيهم الله في مجالي الدعوة من فضله، والله واسع عليم.

● ولا يجوز للمسلمين أن يضعوا العقبات المادية أو المالية أمام من يريدون الزواج، لأن خير النساء أقلهن مهورا وكلفة، كما هو معروف لدى المسلمين.

وهذا الأدب يبعدنا عن التكلف والمبالغة والمغالاة، ويجعل ترك هذه الصفات

أمرا واجبا على المسلم في كل موقف من المواقف، وبخاصة في مجال الدعوة والحركة، فرب تكلف نفّر مدعوا، ورب مبالغة أدت إلى تراجع مدعو أو نكوصه، ونصوص الإسلام التي نهت عن التكلف كثيرة معروفة.

٢- وعليهم أن ينبهوا إلى أن الاستعفاف مطلب شرعي للبصر وللفرج ولليد وللسان ولكل جارحة من جوارح الإنسان بحيث تلتزم بمنهج الله سبحانه وتعالى.

● وإذا كانت الآية الكريمة جاءت في الاستعفاف بالزواج عند القدرة على أعباء الزواج، فإن الاستعفاف بالصوم والصبر هو العلاج عند عدم القدرة على الزواج.

غير أن الآية تعلمنا أن نعف عما لا نستطيع بالصبر، والصبر ضياء يضيء للمؤمن طريق الحق والخير والهدى، وجاء في الحديث النبوي الشريف ما رواه البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر».

وإن أدب المسلم إذا أراد شيئا فلم يقدر عليه أن يستعفَّ حتى يمكنه الله تعالى منه برحمة مه وفضل، فليس للمؤمن مبرر للّهاث وراء ما لا يستطيع، ولا مبرر لليأس وانقطاع الأمل في فضل الله ورحمته وسعته.

● ذلك هو الشأن في أمور الحياة كلها الزواج وغير الزواج، وهو نفس الشأن في أمور الدعوة والحركة، وعلى سبيل المثال نقول سائلين الله التوفيق.

● إن ما لا يستطيع الدعاة إلى الله إدراكه اليوم من النجاح في العلم من أجل الإسلام، لا يبيح لهم أن يحاولوا إدراكه من أي جهة، إلا أن يكون هذا الوجه صحيحا شرعه الله تبارك وتعالى، وإنما شأن الدعاة والحركيين أن يعملوا ويأخذوا بالأسباب، ثم ينتظروا حتى يغنيهم الله من فضله.

● وإن ما يصيب أهل الدعوة والحركة من متاعب وصعاب، وما يوضع في

طريقهم من عقبات وعراقيل، ما ينبغي أن يدخل إلى نفوسهم شيئا من اليأس أو الإحباط الذي قد يؤدي بهم إلى الانسحاب من الميدان، وذلك أن اليأس ليس من خلق المسلم لأنه على وجه الحقيقة يأس من عفو الله ورحمته.

وإنما شأن الدعاة والحركيين مع ما يصيبهم من نصب أو وصب أن يحتسبوا عند الله وأن يمضوا في طريق العمل، حتى يأتي الله بالفرج والمخرج ويغنيهم من فضله بما يريدون.

● وليس للدعاة ولا للعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يفقدوا الصبر مهما تباعد النصر، وليس لهم أن يتعجلوا النصر لأن ذلك في واحد من تحليلاته رفض لقضاء الله وقدره، بل زعزعة للإيمان كله والعياذ بالله.

● وليس للدعاة ولا للحركيين من أجل أن يصلوا إلى النصر أن يقدموا تنازلات تمس المبدأ والثوابت فهذا ليس من حقهم مهما تكن الظروف المحيطة - إلا أن يكرهوا - وإنما عليهم أن يستعفوا وينتظروا حتى يأتي الله بالفتح أو أمر من عنده، موقنين أن المتغيرات كلها في يد الله سبحانه وهو وحده الفعال لما يريد، القادر على أن يبعث على أعداء الإسلام عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض، وعلى الدعاة أن ينظروا كيف يصرف الله الآيات، ليحق الحق ويبطل الباطل.

● إن التنازلات في الغالب تبدأ بالصغائر والمتغيرات ولكن العدو يستعذبها ولا يرضيه بعد ذلك إلا الكبائر والثوابت، وتاريخ المتنازلين يؤكد ذلك ويقدم عليه الشواهد والبراهين.

● ألا ما أحوج الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يضعوا نصب أعينهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [ن: ٩] فإن الآية تنبه إلى أن العدو قد يغري باللين والميل، حتى يقدم الدعاة لينا وميلا مماثلا، فتضيع الثوابت وتخسر الدعوة وتضل الحركة، وهذا هو هدف الأعداء الذين يلهثون وراءه، وما ينبغي أن يمكنوا منه بحال.

● إن التنازلات صحائف سوداء في تاريخ المتنازلين، لا هم ثبتوا على مبادئهم واعتزوا بثوابتهم، ولا هم حققوا شيئا مما تنازلوا من أجله عن مبادئهم، وما كان للعدو أن يحترم متنازلا أو يمكنه من تحقيق ما يريد !!!

٣- وعلى الدعاة والحركيين أن يعلموا أنفسهم ويعلموا الناس أن الكرم والسخاء والسماحة أخلاق يجب أن يتحلى بها المسلم على كل حال، فإن الله تبارك وتعالى عندما شرع عقد المكاتبة وحبب في عون المكاتب حتى يتخلص من الرق إنما جعل ذلك من كرم المولى وسماحته وسخائه وتقربه إلى الله سبحانه وتعالى، وجاء التعبير بفعل الأمر: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ﴾ ليشير فنفهم عنه سبحانه إلى أن الكرم والسماحة من الصفات الأساسية في المؤمن، وأن البخل من الصفات التي بغض فيها الإسلام وحذر منها، فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيئ الملكة....».

وروى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن انسابكم هذه ليست بسباب على أحد، وإنما أنتم ولد آدم، طفُّ الصاع، لمَ تملئونه، ليس لأحد فضل إلا بالدين أو عمل صالح، حسب الرجل أن يكون فاحشا بذيا بخيلا جبانا».

وحسب الذي يعين مكاتبا أن يستمع إلى قول الله تعالى: ﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً ﴾.

فكأن الله سبحانه قد طالب الموالي بإكرام عبيدهم مرتين، مرة بمكاتبتهم ومرة بمعونتهم بالمال، وما ذلك إلا أن صفة الكرم أصيلة في كل مؤمن، وهي في الوقت نفسه من صفات الله وأسمائه الحسنى (الكريم).

● إنها رحمة الإسلام بهؤلاء الذين فرض عليهم الرق، حتى ينتشلهم من وهدة الرق والعبودية.

٤- وعلى الدعاة والحركيين أن يعلموا الناس من خلال التدبر في هذ الآيات الكريمة أن الغاية النبيلة الشريفة لا بد أن تكون الوسائل إل تحقيقها نبيلة شريفة كذلك. وان يؤكدوا أكذوبة المقولة الزاعمة أن الغاية تبرر الوسيلة.

● إن الذي يرغبون في الحصول على المال من طرق محرمة مجرمة، بل من طرق مشبوهة - كعبد الله بن أبي بن سلول واضرابه - لهم في هذه الآية الكريمة درس عميق وعبرة بالغة ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وكذلك شان الرغبة في الحصول على جاه او اي منفعة لا بد ان تكون الوسيلة إليها شريفة مشروعة.

● إن عبد الله بن أبي بن سلول ضرب مثلا في خبث الوسيلة مع تقبل الغاية، حيث أراد ان ياخذ من مهر البغي لينفق على أيتام، وعلى الرغم من ان الإنفاق على اليتامى من ابر الاعمال التي يتقرب بها إلى الله لكن ينبغي ان يكون هذا الإنفاق من مال طيب؛ ومهر البغي خبيث كما ذكرنا ذلك في كلمات المعصوم ﷺ.

ولقد حاول الخبيث ان ياخذ إذنا بهذه الجريمة من الرسول ﷺ مخادعا بنبل الغاية وهي الإنفاق على اليتامى، ولكن هيهات، ما كان للنبوة أن تخدع، وكما كان لدهاء أبي وأمثاله إلا أن ينكشف أمام نور الحق، وعظمة الشرع ونبل مقاصده.

● إن ابتغاء عرض الحياة بوسيلة غير مشروعة مرفوض دائما، بل من كبائر ما حرم الله.

● وهناك أنماط عديدة في هذه المجالات يمكن أن نشير إلى بعضها فيما يلي:

أ- لا يجوز التربح ولا الاتجار في الأعراض واحتراف البغاء وإدارة أعماله، ومؤسساته كما يوصف في بعض البلدان لان هذا الكسب حرام وخبيث، وجالب لغضب الله تبارك وتعالى.

ب- ولا يجوز الاتجار ولا التربح من الخمر ببيعها وشرائها وجلبها وصناعتها،

ولا من المخدرات أو المفترات أو نحوها مما حرم الله تعالى.

ج- ولا يجوز التربح من الميسر وإدارة موائده ومؤسساته، فضلا عن المشاركة فيه، أيا كانت صور الميسر وأدواته.

د- ولا يجوز التربح من الرشاوي ولا من شهادة الزور، وكل ما يؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل والظلم ومطل الحقوق.

هـ- ولا يجوز التربح من الاحتكار أو الغش أو التدليس أو بيع الأخ على بيع أخيه أو نحوه.

و- ولا يجوز التربح باستغلال النفوذ والمنصب والجاه، أو بالتقرب من الحكام.

كل ذلك وغيره كثير ما لا يتسع المجال للحديث فيه، هو ابتغاء عرض الحياة الدنيا ولكن بوسيلة محرمة، لذلك كان حراما، وإنما حرم لما ينطوي عليه من ظلم وطمع وغش وخداع، وكل ذلك مما حرم الله تعالى، ومما حرم رسوله ، ومخالفة أمر الله وأمر رسوله توجب العقاب في الدنيا وفي الآخرة.

٥- وعلى الدعاة أن ينبهوا إلى أن الغاية لا تبرر الوسيلة أبداً في مجالات الدعوة والحركة كلها.

وأود أن أنبه هنا إلى بعض الملابسات التي قد يبدو لبعض الدعاة فيها مبرر، والأصل أن تكون الأمور صريحة خالصة لا لبس فيها ولا غموض ، ومن ذلك على سبيل المثال:

● بعض الدعاة يمنّي بعض المدعوين بعرض من أعراض الدنيا بحجة أن هذا يرغبه في العمل أو يدفع به إلى الأمام، وهذا نوع من اللبس ما ينبغي أن يكون، لأن القرآن الكريم وضح عمل الدعاة إلى الله في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

فالداعي إلى الله يمارس أحسن القول، وأحسن القول لا بد أن يكون صدقا

وأمانة ووفاء.

والداعي إلى الله يمارس العمل الصالح، وليس من العمل الصالح العدات بما لا يملك الداعي، ولا فتح باب الأماني والمطامع في أعراض الحياة الدنيا.

والداعي يعلن في كل قوله يقوله وفي كل عمل يعمله أنه من المسلمين الملتزمين بمنهج الله سبحانه وتعالى في كل أمره، دون إخفاء لهذا الالتزام ودون خوف من هذا الإعلان، فإن هذا الإعلان تشريف لصاحبه لا ينبغي أن يخفيه خشية ظالم أو مستبد، وعلامَ الخشية، وكل إنسان يواجه ما قُدِّر عليه؟

إن الخشية من إعلان الإسلام والانتماء إلى الإسلام جبن لا يليق بمسلم، وهو في ذات الوقت تمرد أو رفض لقضاء الله وقدره.

٦- وعلى الدعاة أن يعلموا الناس أن ملجأهم ومفزعهم في كل أمر هو القرآن الكريم، فقد جاء فيه من الأحكام والآداب ما من شأنه أن يصلح البشرية كلها لو أنها أخذت بما فيه، وذلك أن القرآن الكريم آخر الكتب السماوية نزولاً، وأكملها وأتمها وأكثرها ملاءمة لصالح البشرية في دينها ودنياها.

● وعلى الدعاة إلى الله أن يبينوا للناس فضل القرآن الكريم على سائر الكتب التي سبقته، كما ورد ذلك التفضيل على لسان رسول الله ﷺ، فما رواه الدارمي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه موقوفا: «السبع الطوال مثل التوراة، والمئين مثل الإنجيل والمثاني مثل الزبور، وسائر القرآن بعدُ فضل».

● إن المسلمين إذا علموا فضل القرآن على غيره من الكتب تعلقوا بالقرآن وعملوا بما فيه، وعمروا به قلوبهم وبيوتهم فكان لهم بذلك الخير كل الخير، والعصمة من كل شر، وكانوا في رحمة من الله وفضل وذكرهم الله في ملأ من عنده.

وروى الترمذي بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول

الله ﷺ: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «الم» حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف».

وروى الترمذي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «... ومن سلك طريق يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليه السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن أبطأ به علمه لم يسرع به نسبه».

● إن من مشكلات المسلمين اليوم هجر القرآن بترك تلاوته أو ترك العمل بما فيه، ومن هنا جعل بعض المسلمين القرآن كتابا كغيره من الكتب يرجعون إليه من حين إلى حين، أو يتبركون بقراءته فحسب، كأنّه أيقونة[1] أو تميمة[2]، والأصل أن يكون القرآن المرجع الأول والآخير للمسلم في كل أمر من أمور معاشه ومعاده.

● وعلى الدعاة من أجل علاج هجر المسلمين للقرآن أن يذكروهم دائما

(١) الأيقونة: مأخوذة من الكلمة اليونانية «أيقونو لوجيا» أي علم دراسة الصور، ولها معنى رمزي في المسيحية بالغ التعقيد نتج من أنهم يرمزون لروح القدس بصورة حمامة، مما جعل الناس ينظرون إلى الصور فيرون فيها شيئا آخر، مما أكسب هذه الصور لديهم قوة غيبية خطيرة أدت إلى قيام حركة تحطيم الأيقونات في عهد بعض أباطرة بيزنطة. «الموسوعة العربية الميسرة».

(٢) والتميمة: هي ما يعلق في العنق لدفع العين والحسد.

ويعرفها علماء الاجتماع بأنها: جسم طبيعي أو صناعي حي أو جماد يسود الاعتقاد بأنه يشتمل على قوة فعالة غير طبيعية، خاصة إذا كان أثره يرجع إلى حلول الروح فيه وبالتالي فإنه ينشد استرضاء هذه الروح، وتستخدم التمائم لأغراض سحرية لطرد الشر.

وقد استخدم التمائم قدماء المصريين والعبرانيون والنصارى وجعلوا الصليب تميمة في بعض الأحيان وجعلوا التمائم أحجبة تضم بعض الأشياء المقدسة أو تضم نصوصا دينية، والتمائم عموما تدل على نوع من المادية في الدين أو الاتجاه إلى أن الألوهية جسم أو قوة طبيعة.

بالحديث النبوي الشريف الجامع في القرآن، الذي يمكن ان نفهم منه معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ...﴾ الآية.

- من أهداف القرآن الكريم:

خرّج الترمذي عن الحارث الأعور(1) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وستكون فتن كقطع الليل المظلم قلت: يا رسول الله وما المخرج منها قال: «كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. هو حبل الله المتين ونوره المبين، والذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الردّ ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم. خذها إليك يا أعور».

---

(1) هو الحارث بن عبد الله الأعور الهمداني أبو زهير الكوفي (...- ٦٥هـ) تابعي روى عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما، وعن زيد بن ثابت وبقيرة امرأة سلمان رضي الله عنهما. وروى عنه الشعبي والسبيعي وعطاء بن أبي رباح وغيرهم.
وقد قال الشعبي: حدثني الحارث وهو كذاب!!! فكيف يكذبه وهو يروي عنه، قال ابن عبد البر في كتاب العلم: أظن الشعبي عوقب بقوله في الحارث كذاب، ولم يبن من الحارث كذبه وإنما نقم الشعبي على الحارث إفراطه في حب علي رضي الله عنه لأن الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وإلى انه أول من أسلم.
وقال ابن شاهين في الثقات: قال أحمد بن صالح المصري: الحارث الأعور، ما أحْفَظه وما أحسن ما روى عن علي رضي الله عنه، وأثنى عليه، وقال الحافظ ابن حجر: وقرأت بخط الذهبي في الميزان والنّسائي ـ مع تعنته في الرجال ـ قد احتج به. وقال يحيى بن معين وقد سئل عن الحارث: ما زال المحدثون يقبلون حديثه.

هذا هو القرآن وتلك هي ميزاته وأهدافه في حياة الناس يجب أن تعيش في حس المسلمين ومشاعرهم.

● وعلى الدعاة إلى الله أن يذكروا المدعوين، ويعلموهم علما هو اليقين بأن القرآن الكريم توضحه السنة النبوية أي أن السنة مكملة للقرآن ومفصلة لمجمله، وأن الإيمان بالسنة النبوية كالإيمان بالقرآن الكريم سواء بسواء، فقد ورد أن النبي ﷺ قال: فيما رواه أبو داود بسنده عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السبع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يغصبهم بمثل قراه».

وروى الترمذي بسنده عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا هل عسى رجل يبلغه الحديث عني وهو متكئ على أريكته فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حراما حرمناه، وإن ما حرّم رسول كما حرّم الله».

● إن على الدعاة أن يؤكدوا للناس أن السنة النبوية هي القرآن الكريم سواء في الأخذ بما فيها من أحكام وآداب، وأن ذلك ما يتم إلا إذا أصبح كل مسلم مصاحبا للسنة النبوية يقرأ في أحد كتبها الصحيحة ويتدبر، يعمل بما فيها كله دون استثناء.

إن هذا ينبغي إن يكون جزءا من الصحوة الإسلامية، ومن حركة الإحياء والتجديد في هذه الفترة التي نعيشها اليوم، وإلا فلن يكون للمسلمين كيان، وكيف يكون لهم كيان وهم يهجرون الكتاب والسنة، أو يتخذونهما تراثا يجب احترامه وتقديسه مع عزله عن حياتهم ومشكلاتهم؟

* * *

الآيات من الخامسة والثلاثين إلى الأربعين

في : بيان هُدى الله، وتوضيح أعمال المؤمنين وأعمال الكافرين

عن طريق ضرب الأمثال

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

■ هذه الآيات الكريمة تتحدث عن الله تبارك وتعالى في مجال أنه سبحانه خالق أصول الهداية العامة. والمعارف الصحيحة للناس جميعا، بإرساله رسوله الخاتم ﷺ إليهم بالهدى ودين الحق والنور المبين.

فالله سبحانه وتعالى بهذه الهداية نور السموات والأرض:

● وتمثل الآية الأولى من هذه الآيات: نور الله تعالى - ولله المثل الأعلى - بمشكاة فيها مصباح في زجاجة تتلألأ كأنها كوكب يوقد من شجرة.... وهو تمثيل يقرب إلى ذهن السامع حقيقة هداية الله ونوره للخلق.

● وتمثل الآية الثانية والثالثة: وضوح دلائل الإيمان وتضرب لهذه الدلائل مثلا بهؤلاء الرجال الذين يسبحون الله بالغدو والآصال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. فقد فهموا وعرفوا وتوجهوا الوجهة الصحيحة.

● وتتحدث الآية الرابعة عن جزاء الله تعالى لهؤلاء المؤمنين بأحسن ما عملوا بل يزيدهم من فضله وعطائه.

● وتمثل الآية الخامسة والسادسة الكفر وأصحابه، وأعمال أصحابه التي تشبه السراب الخادع الذي لا يوجد فيه نفع، أو تمثل أعمالهم بأنها ظلمات في بحر متلاطم الأمواج يعلوه سحاب يجعله أشد ظلمة حتى إن أحدهم إذا أخرج يده وهي أقرب ما يكون إلى نظره لم يكد يراها من شدة الظلام، ولا عجب من أن يكون الكفار كذلك فقد فقدوا هدى الله ونوره، ومن فقد هذا عاش في ظلام وعميت عليه دلائل الإيمان على الرغم من وضوحها.

● وهذا التمثيل إنما يوضح للناس حقيقة كبرى هي أن الإيمان والعمل الصالح هو استجابة الفطرة السليمة لخالقها سبحانه ولما أحاطها به من أدلة واضحة وبراهين ساطعة، بحيث لو ترك الإنسان نفسه على فطرتها دون وسوسة الشياطين ودون استبداد الشهوات والغرائز لكان من المؤمنين الصالحين وكان له عند الله أفضل الجزاء.

كما يوضح أن الكفر والكافرين عميت عليهم الحقيقة وساقهم الشيطان والعناد والشهوات إلى الكفر وإلى الأعمال الفاسدة ولسَوف يكون جزاؤهم مشبها لعملهم.

● والآيات الكريمة حافلة بالأخبار، والتشبيهات التي تقرب إلى أذهان

السامعين الفكرة والهدف، وترسم صورة واضحة المعالم للإيمان والأمثلة الواضحة، ولأعمال المؤمنين المشتملة على ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، لا يشغلهم عن ذلك عمل آخر من تجارة أو بيع لأنهم يخافون الله سبحانه وتعالى.

كما ترسم صورة للكفر وأعمال الكافرين وتراكم الظلمات فيها والحيرة والتخبط والضلال، ثم توضح جزاء المؤمنين والكافرين ولتوضيح ذلك نقول سائلين الله التوفيق والسداد:

● يخبر الله تبارك وتعالى عن نفسه بأنه سبحانه نور وهداية للسموات والأرض ومن فيهن وما فيهن، ومعنى ذلك أن التماس الهداية والنور من غيره سبحانه ضلال وضياع.

وكلمة النور: معناه اللغوي الضوء وسطوعه.

وتعني في هذه الآية الهداية، وقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه نور فقال: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾.

ووصف بها القرآن الكريم فقال: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال الراغب الأصبهاني(١): «النور: الضوء المنتشر الذي يعين على الإبصار، وذلك ضربان: دنيوي وأخروي.

فالدنيوي ضربان:

ضرب معقول بعين البصيرة وهو ما انتشر من الأمور الإلهية كنور العقل ونور القرآن.

وضرب محسوس بعين البصر وهو ما انتشر من الأجسام المنيرة كالقمرين

---

(١) الراغب الأصبهاني: المفردات في غريب القرآن ط الحلبي ـ القاهرة ١٣٨١هـ ١٩٦١م.

والنجوم والنيران.

● فمن النور الإلهي قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾.... ومن المحسوس الذي بعين البصر نحو قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا...﴾ [يونس: ٨].

● ومن النور الأخروي قوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...﴾.

[الحديد: ١٢]

● وسمى الله تعالى نفسه نورا من حيث هو المُنوِّر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وتسميته تعالى بذلك لمبالغة فعله».

● وقال بعض المفسرين: أحسن ما نفسر به قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أن الله موجد كل ما يعبَّر عنه بالنور، وخاصة أسباب المعرفة الحق والحجة القائمة، والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالَمَيْن العلوي والسفلي، وهو من استعمال المشترك في معانيه»(١).

● والتشبيه أو التمثيل هو: تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين وهدايتهم، بهيئة المصباح الذي حفت به قوة الإشراق، فهو نور الله لا محالة: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾ الآية.

● والمشكاة فرجة في الجدار مثل الكوة لكنها غير نافذة، وهذا أصح ما جاء في كتب اللغة، وقالوا: إنها كلمة حبشية أدخلها العرب في كلامهم.

● والمصباح: اسم للإناء الذي يوقد فيه بالزيت للإنارة، وهو اسم آله أي آلة الإصباح أو الإضاءة.

●والزجاجة: اسم إناء يصنع من الزجاج، وكانوا يتخذون من الزجاج قناديل

(١) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ١٨/٢١٣ ط الدار التونسية للنشر دون تاريخ.

للإسراج بمصابيح الزيت، والعرب يسمون الزجاج القوارير.

● والكوكب: النجم.

● والدرّيّ الساطع.

● ويوقد: من الإيقاد وهو وضع الوقود، وما يزاد في النار المشتعلة ليقوي لهبها، واريد به هنا ما يُمَدّ به المصباح من الزيت.

● والنور: هو معرفة الحق على ما هو عليه، المكتسبة من وحي الله وهو القرآن الكريم، شبه بالمصباح المحفوف بكل ما يزيد نوره انتشارا وإشراقا.

● ومن أحسن ما قيل - فيما أعلم - في هذا التمثيل أو التشبيه وأجمعه ما ذكره الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله في تفسيره: التحرير والتنوير.

● قال: فالمشكاة: يشبهها ما في الإرشاد الإلهي من انضباط اليقين، وإحاطة الدلالة بالمدلولات دون تردد ولا انثلام، وحفظ المصباح من الانطفاء يشبهه حفظ الله سبحانه للقرآن بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

[الحجر: ٩]

● ومعاني هداية إرشاد الإسلام: تشبه المصباح في التبصير، والإيضاح، وتبين الحقائق من ذلك الإرشاد.

● وسلامته من أن يطرقه اللبس والشك: يشبه الزجاجة في تجلية حال ما تحتوي عليه كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ [النور: ٣٤].

● والوحي الذي أبلغ الله به حقائق الديانة من القرآن والسنة: يشبه الشجرة المباركة التي تعطي ثمرة يستخرج منها دلائل الإرشاد.

● وسماحة الإسلام وانتفاء الحرج عنه: يشبه توسط الشجرة بين طرفي الأفق فهو وسط بين الشدة المحرجة وبين اللين المغيِّط.

● ودوام ذلك الإرشاد وتجدده: يشبه الإيقاد.

● وتعليم النبي ﷺ أمته ببيان القرآن وتشريع الأحكام: يشبه الزيت الصافي الذي حصلت به البصيرة، وهو مع ذلك بَيِّنٌ قريبُ التناول يكاد لا يحتاج إلى معلم.

● وانتصاب النبي ﷺ: يشبه مَسَّ النار للسراج، وهو يومئ إلى استمرار هذا الإرشاد.

● كما أن قوله: ﴿من شجرة﴾: يومئ إلى الحاجة إلى اجتهاد علماء الدين في استخراج إرشاده على مرور الأزمنة، لأن استخراج الزيت من ثمرة الشجرة يتوقف على اعتصار الثمرة وهو الاستنباط»[1].

● ويخبر الله تعالى في قوله جل شأنه: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عن ثلاثة أمور:

● أحدها: أنه سبحانه ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ وذلك لإزالة تعجب العقلاء من عدم اهتداء كثير من الناس بهذا النور الذي هو القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة أي الإسلام، وذلك لأن الهدى بمشيئة الله تعالى قبل أن يكون باهتداء العقول إلى الحق والصواب والهدى.

وأود أن أؤكد أن الناس لو تركوا أنفسهم للفطرة التي فطرهم الله عليها لاهتدوا، ولكنها وسوسات الشياطين.

● وثانيها: أنه سبحانه يضرب الأمثال للناس على رجاء أن يتذكر منهم من يتذكر فيهتدي، ولكنّ بعضهم يعرض فيستمر على ضلاله ولا يستفيد من المثل المضروب له، مع أن الأصل أن تلك الأمثال يهتدي بها الناس لأنهم أصحاب عقول وأفهام!!!

● وثالثها: أنه سبحانه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عليم بهدى المهتدين وضلال

---

(١) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير: ٨/ ٢٤٣ - ٢٤٤ مرجع سابق.

الضالين، وفي هذا الإخبار بانه سبحانه بكل شيء عليم، ما يتضمن تهديدا ووعيدا لأولئك المعاندين الذين لم يهتدوا بما ضرب الله لهم من أمثال.

● وإخبار من الله سبحانه وتعالى عن أحوال المهتدين بنور الله وأنهم يسكنون أو يقيمون أو يتخذون بيوتا أمر الله سبحانه أن ترفع وتشرف بان يذكر فيها اسمه ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾.

● والمردا بالبيوت: إما المساجد بيوت الله، وإما البيوت التي يسكنها المؤمنون.

فإذا كانت المساجد فالمراد برفعها: بناؤها وعمارتها وتعظيمها وتطهيرها من الدنس واللغو ورفع الأصوات ونشدان الضالة وسائر الأفعال التي لا تليق بالمساجد.

وإذا كان المراد بها بيوت المؤمنين فالمراد برفعها: رفعها من الناحية المعنوية والأخلاقية بممارسة صالح الأعمال فيها.

وكلا المعنيين وارد، لأن ذكر الله كما يكون في المسجد يكون في البيت، وليس في شريعة الإسلام ما يقصر الذكر والعبادة على المساجد وحدها، وإنما البيوت تكون مكانا للذكر والعبادة وكذلك سائر الأماكن ما دامت نظيفة طاهرة وملائمة لأن يقام فيها ذكر أو عبادة.

● ومعنى أذن الله أن ترفع: أي أمر بذلك ودعا إليه.

● ورفعها قد يكون ماديا بعمارة المساجد، وقد يكون معنويا بعمارتها بالعبادة والذكر والتسبيح.

● ويذكر فيها اسمه: قال العلماء: أي يتلى فيها كتابه، وقد روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

● والتسبيح هو: تنزيه الله تعالى، وهو عام في العبارات كلها قولاً أو فعلاً أو نيّة: والأشياء كلها تسبح الله وتسجد له، غير أن بعضها يفعل بالتسخير، وبعضها بالاختيار.

● وأخبر سبحانه وتعالى عن صفات المؤمنين وأعمالهم الصالحة، وعن جزائه الكريم لهم، فقال جل شانه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

● والتسبيح في هذا السياق فسره العلماء بانه نفس الصلاة أو هو الصلوات الخمس، أو صلاتا الصبح والعصر، فقد كانتا واجبتين في ابتداء الحال، ثم زيد فيها فاصبحت خمسا.

والتسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به في ذاته وفي أفعاله.

● وصفات الرجال الذين يسبحون الله تعالى بالغدو والآصال هي كما وردت في الآية الكريمة:

أ – انهم لا تلهيهم عن ذكر الله وعبادته وتسبيحه تجارة ولا بيع ولا عرض من أعراض الدنيا.

وقال الحسن: أما والله إن كانوا ليتجرون ولكن إذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شيء فقاموا بالصلاة والزكاة.

ب – وانهم يقيمون الصلاة على مواقيتها، أو يقومون بحقوقها وفق شروطها، وهي صلوات الفرائض، وقيل الفرائض والنوافل.

جـ – وانهم يؤدون الزكاة التي فرض الله عليهم، وقيل بل سائر الصدقات، وقيل المراد بالزكاة: طاعة الله تعالى والإخلاص له.

د – وانهم مع تعبدهم بالذكر والطاعات وأداء الفرائض، والنوافل يخافون يوم الجزاء وهو يوم القيامة. قال بعض المفسرين: وذلك الخوف إنما كان لعلمهم بأنهم ما عبدوا الله حق عبادته، وهذا اليوم المخوف يوم القيامة

تضطرب فيه القلوب من الهول والفزع وتشخص الابصار.

وقيل: إن القلوب والأبصار تتغير أحوالها في ذلك اليوم فتفقه القلوب بعد أن كان مطبوعا عليها لا تفقه، وتبصر الأبصار بعد أن كانت لا تبصر، فإنهم في هذا اليوم قد تحولوا من الشك إلى الظن، ومن الظن إلى اليقين، ومن اليقين إلى المعاينة.

● وأما جزاء الله تعالى لمن كانت هذه صفاتهم فقد أخبرت عنه الآية الكريمة: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

والمعنى والله أعلم - كما قال المفسرون:

● ليجزيهم أحسن ما عملوا قالوا: أحسن ما عملوا هي الفرائض والنوافل أي الطاعات.

وقال مقاتل[1]: إنما ذكر الأحسن تنبيها على أنه لا يجازيهم على مساوئ أعمالهم، بل يغفرها لهم.

وقال بعض المفسرين: يجزيهم جزاء أحسن ما عملوا على الواحد عشراً إلى سبعمائة.

وقال بعضهم: أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم، وإنما يجزيهم الله تعالى بأحسن الأعمال:

● ويزيدهم من فضله: أي يجزيهم بأحسن الأعمال ولا يقتصر على قدر

---

(١) هو مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي أبو الحسن (٠٠٠ - ١٥٠هـ) من أعلام المفسرين. أصله من بلخ، انتقل إلى البصرة ودخل بغداد وحدّث بها، وكانت وفاته في البصرة ومن كتبه: التفسير الكبير، ونوادر التفسير والرد على القدرية، ومتشابه القرآن والناسخ والمنسوخ والقراءات، والوجوه والنظائر. وبعض العلماء عدوه متروك الحديث.

استحقاقهم، بل يزيدهم من فضله، فالزيادة من فضله إلى زيادة أجر.

روى النسائي بسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولي الكرم، ليقيم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الخلق».

وروى الطبراني بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣] قال: أجورهم: يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله: الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة لمن صنع لهم معروفا في الدنيا» وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

[يونس: ٢٦]

وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».

• وأخبر سبحانه وتعالى عن أعمال الذين كفروا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

• لما بين الله تعالى حال المؤمنين وصفاتهم وأنهم في الدنيا يهتدون بنور الله ويعملون الصالحات، وأنهم في الآخرة يفوزون برضا الله وفضله، أتبع ذلك بالحديث عن الكافرين وأعمالهم في الدنيا وجزائهم في الآخرة.

ولتوضيح ذلك نقول:

• ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ... الآية﴾ أي أن الذين جحدوا

توحيد ربهم وكذبوا بهذا القرآن ولم يستجيبوا لما دعاهم إليه الرسول الخاتم من كل ما يحييهم وينفعهم في معاشهم ومعادهم هؤلاء ـ مع هذا الرفض ـ مثل أعمالهم التي عملوها ـ حتى ولو كانت براً وصلة أرحام ونحوها ـ مثل سراب ـ والسراب ما يتراءى للعين وقت الضحى الأكبر في الفلوات شبيها بالماء في نظر الناظر، وليس بماء على وجه الحقيقة.

● والمعنى: حتى إذا جاء الظمآن السرابَ ملتمسا ماءً يستغيث به من عطشه لم يجد هذا السراب شيئا. فكذلك الكافرون بالله، من أعمالهم التي عملوها في غرور يحسبون انها منجيتهم عند الله من عذابه كما حسب الظمآن الذي رأى السراب فظنه ماء يرويه من ظمئه، حتى إذا هلك وصار إلى الحاجة إلى عمله الذي كان يرى أنه نافعه عند الله لم يجده ينفعه شيئا، لانه كان قد عمله على كفر بالله، ووجد الله فوفاه الله حساب أعماله التي عملها في الدنيا، وجازاه بها جزاءه الذي يستحقه وما يظلم ربك أحدا.

● وهذا تمثيل لبعض أعمال الكفار الحسنة كصلة الرحم ونحوها تمثيل لها بالسراب الذي لا يجدي ولا ينفع شيئاً، وهل ينفع بعد الكفر بالله عمل مهما كان صالحا؟

تلك أعمالهم الدنيوية الحسنة في ظاهرها.

● وهناك تمثيل آخر لاعمال الكفار السيئة، حيث شبهها بالظلمات في قوله سبحانه: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ وهذا تمثيل لعقائدهم فإنها تشبه الظلمات.

والمعنى: أن الذين كفروا في أعمالهم السيئة أو عقائدهم ـ وهي سيئة كذلك ـ كالظلمات الكثيفة في بحر متلاطم الأمواج مظلم القعر بسبب غمورة الماء، فإذا ترادفت عليه الأمواج ازدادت الظلمة، فإذا كان فوق الأمواج سحاب بلغت الظلمة

نهايتها، حتى إن اليد وهي أقرب ما يراه الإنسان من جسمه لا يستطيع هذا الكافر أن يراها لشدة الظلمة.

قال الحسن البصري: إن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات:

- ظلمة البحر.
- وظلمة الموج.
- وظلمة السحاب.

وكذلك الكافر له ظلمات ثلاث:

- ظلمة الاعتقاد.
- وظلمة القول.
- وظلمة العمل.

وقال أُبيّ بن كعب رضي الله عنه (١): «الكافر يتقلب في خمس من الظلم: كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره إلى النار» وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ظلمة القلب وظلمة الوجه وظلمة السمع».

- وأخبر سبحانه وتعالى أن من لم يجعل الله له نورا يهتدي به أظلمت عليه الأمور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويلها: من لم يجعل الله له دينا فما له

---

(١) أبي بن كعب بن قيس بن عبدي من بني النجار من الخزرج (... - ٢١هـ) أبو المنذر. صحابي من الأنصار، كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود مطلعا على الكتب القديمة يكتب ويقرأ. ولما أسلم كان من كتّاب الوحي. شهدا بدرا واحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وشهد مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية وكتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس، وأمره عثمان بجمع القرآن الكريم فاشترك في جمعه، وله في الصحيحين ١٦٤ حديثا، وفي الحديث النبوي: أقرأ أمتي أُبّي بن كعب. وقد مات بالمدينة المنورة.

من دين، ومن لم يجعل الله له نورا يمشي به يوم القيامة لم يهتد إلى الجنة كقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال مقاتل: نزلت في عتبة بن ربيعة كان يلتمس الدين في الجاهلية ولبس المسوح ثم كفر في الإسلام.

وقال الماوردي [١]: نزلت في شيبة بن ربيعة، وكان يترهب في الجاهلية ويلبس الصوف ويطلب الدين، فكفر في الإسلام.

وقيل نزلت في عبد الله بن جحش، وكان أسلم وهاجر إلى الحبشة ثم تنصر بعد إسلامه.

وأياً كان من نزلت فيه فإن العبرة في القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والمعنى العام لها أن الله سبحانه لما وصف هداية المؤمن بأنها في غاية الجلاء والوضوح عقّبها بقوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ولما وصف ضلالة الكافر بأنها في نهاية الظلمة عقبها بقوله: «ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور».

والمقصود من ذلك أن يعرف الإنسان أن ظهور الدلائل لا يفيد الإيمان، وظلمة الطريق لا تمنع من الإيمان.

■ ومن المواقف التربوية العامة في الآيات الكريمة ما نشير إلى بعضها فيما يلي:

١ - يتعلم الناس من هذه الآيات أن التماس الهداية والتوفيق إنما يكون من الله

---

(١) علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي (٣٦٤ - ٤٥٠هـ) أقضى قضاة عصره، من العلماء الباحثين، له مصنفات كثيرة جليلة، ولد في البصرة وانتقل إلى بغداد وتولى القضاء في بلدان عديدة ثم جعل أقضى القضاة في أيام القائم بأمر الله العباسي. ينسب إلى بيع ماء الورد توفي في بغداد ومن مصنفاته: الأحكام السلطانية وأدب الدنيا والدين، والحاوي في فقه الشافعية، وأعلام النبوة، وقانون الوزراء، وسياسة الملك، والاقناع في الفقه وغيرها من الكتب.

تعالى وحده، فالله سبحانه كما وصف نفسه نور السموات والأرض ومن فيهن، يهدي بنوره من يشاء.

وكل إنسان عاقل يجب أن يتقرب إلى الله سبحانه بطاعته واتباع رسوله، حتى يتعرض بهذه الطاعة لرحمة الله وهداه وتوفيقه، ومن يدري لعله أن يكون من المهتدين؟

ولكن من حرم نفسه من ذلك حرم نفسه من الهداية، وحال بينها ـ بالمعصية والمخالفة للرسول ـ وبين التوفيق، ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾.

إن هذه الآية تعلمنا الإقبال على الله بطاعته واتباع رسوله الخاتم محمد ﷺ.

٢ – ونتعلم من الآيات أن كل ما يحيط بالإنسان من ظروف وكل ما يمر به من أحداث، بل كل ما تقع عليه عينه من مخلوقات هو من الأفعال والحكم التي يضربها الله للناس لجعلهم يتفكرون ويعقلون ويهتدون ويتعظون، ليؤدي بهم ذلك إلى الإيمان.

وما من مثل[١] يضربه الله للناس إلا ومن بين أهدافه أن يهدي الناس إلى الحق وإلى طريق مستقيم، والله سبحانه وتعالى يريد لخلقه أن يستفيدوا من هذه الأفعال في حياتهم ليصلحوا بهذه الاستفادة معاشهم ومعادهم.

٣ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن عمارة البيوت مسجدا كانت أو مسكنا يجب أن تعمر بالعبادة فيها، وذكر الله سبحانه، وليس مجرد العناية بعمارتها المادية وزخرفتها.

ولقد أوصى رسول الله ﷺ بالبيوت ﴿المساكن﴾ فدعا إلى الصلاة فيها ـ صلاة غير المكتوبة ـ وبذكر الله تعالى وتسبيحه فيها، فقد روى البخاري ومسلم

(١) المثل: قول في شيء يشبه قولا في شيء آخر بينهما مشابهة، ليوضح أحدهما الآخر ويبينه نحو قولهم: الصيف ضيّعت اللبن، فإن هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك فضاع، وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى للناس من أمثال.

بسنديهما عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول ﷺ: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورا».

وروى الترمذي بسنده عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ: «أفضل صلاتكم في بيوتكم إلا المكتوبة».

وروى الحاكم بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرءوا سورة البقرة في بيوتكم، فإن الشيطان لا يدخل بيتا يقرأ فيه سورة البقرة».

وروى الإمام أحمد بسنده عن زيد بن خالد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا بيوتكم قبورا، صلوا فيها».

إن عبادة الله وذكره وتسبيحه في البيوت هو رفع لشأن البيوت وإعلاء لمكانتها في نفوس أصحابها، وبخاصة في نفوس الناشئة من البنين والبنات، وبذلك تقدم للمجتمع المسلم عناصر صالحة لممارسة الحياة الإنسانية الرفيعة القدر.

٤ - ويتعلم الناس من الآيات الكريمة أن المؤمنين حقاً هم الذين لا تلهيهم عن ذكر الله وعبادته تجارة أو بيع، فهم منصرفون إلى ذكر الله وإلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مهما تكاثرت من حولهم المشاغل والهموم، إنهم الذين يدركون بعمق أن ما عند الله خيرا وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، ومن شغلته المشاغل عن ذكر الله، فليس أهلاً لأن يتسامح الله معه يوم القيامة وليس عرضة لكرم الله وإحسانه.

روى النسائي بسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، ليقيم الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله فيقومون، وهم قليل، ثم يحاسب سائر الخلائق».

إنها دروس نافعة في الدين والدنيا، فأين الذين يتعلمون من هذه الدروس؟

٥ – ويتعلم المسلمون من تلك الآيات الكريمة أن من علامات الإيمان الصحيح الخوف من أهوال يوم القيامة وما فيه من فزع، فمن خاف ذلك اليوم وقاه الله شر ما في ذلك اليوم من أهوال. كما قال تعالى في كتاب العزيز: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠ – ١٢].

وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى خلق الرحم يوم خلقها مائة رحمة، فامسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمه واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بالذي عند الله من العقاب لم يأمن النار».

٦ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن أعمال الكافرين سواء منها ما كان حسنا كصلة الرحم، أو سيئا كالغش والظلم ونحوهما، فلا قبول لهذه الأعمال عند الله سبحانه، لأنها لم تنبع عن إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ولم تعبر عن الإسلام وطاعة الله والخضوع له، وإنما خرجت عن عقيدة فاسدة، ومثل ذلك لا يقبله الله.

روى الإمام مسلم بسنده عن أنس[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى لا يظلم المؤمن حسنة، يعطي عليها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن

---

(١) هو أنس بن مالك بن النضر البخاري الخزرجي الانصاري (١٠ق. هـ – ٩٣هـ) أبو ثمامة أو أبو حمزة صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، روى عنه علماء الحديث ٢٢٨٦ حديثا نبويا. ولد بالمدينة وأسلم صغيرا وظل يخدم رسول الله ﷺ إلى أن لحق بربه، وقد رحل أنس إلى دمشق والبصرة، ومات بالبصرة، وقال المؤرخون هو آخر من مات من الصحابة رضوان الله عليهم بالبصرة.

له حسنة يعطى بها خيرا».

■ والمواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة في هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلي والله المستعان:

١ - على الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يعلموا الناس أن الله تبارك وتعالى هو هادي أهل السموات والأرض، ومنه سبحانه نور السموات والأرض، فهو خالق ما فيهما من الضياء والزينة، ومودع ما فيهما من الأدلة والبراهين.

هذا في الجانب المادي من النور.

وأما الجانب المعنوي من النور فهو أنه سبحانه وتعالى نوَّر قلوب البشر بأنوار معروفة هي: نور العقل، ونور الفهم، ونور العلم، ونور اليقين، ونور المعرفة[١]، ونور التوحيد.

ومعنى ذلك أن الإنسان في هذه الحياة عليه أن يلتمس الهدى من الله متخذا إليه الأسباب من العقل والفهم والعلم واليقين والمعرفة والتوحيد، والله سبحانه هو الهادي إلى سواء السبيل.

والطريق الآمن المستقيم إلى الله تعالى هو طاعة الله ورسوله الخاتم ﷺ.

● والدعاة إلى الله ما ينبغي أن ييأسوا أو يحزنوا من أجل أن أحد المدعوين لم يستجب أو لم يسلك طريق الهدى، فإن ذلك الحزن قد علمنا القرآن الكريم وهو يخاطب الرسول إذ كان يشق على نفسه بالحزن الشديد لعدم اهتداء قومه أنه ليس بلازم، قال الله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣].

إن بعض المخلصين من الدعاة قد يصيبهم الحزن لأن واحداً من المدعوين قد بذلت معه مجهودات كبيرة لم تثمر فيه الثمرة التي كان يرجوها المدعو، فيحزن

(١) مراحل المعرفة عند الصوفيين تتدرج في الضياء على النحو التالي: السراج، والنجم، والقمر، والبدر، والشمس، وشمس الشموس، بهذا الترتيب، ولكل مرحلة عندهم ما يميزها.

الداعي لذلك ويأسى له، وربما شكا سوء حظه مع هذا الداعي إلى غيره من الدعاة!!.

إن هذا الداعية المخلص عليه أن يتذكر تلك الآية التي ذكرنا، وأختها التي تخاطب النبي ﷺ بقوله جل شأنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

إن هاتين الآيتين عزاء للدعاة وتوجيه لهم وترشيد لمشاعرهم وتوضيح لأدق معالم الدعوة إلى الله.

٢ - وعلى الدعاة والحركيين أن ينبهوا الناس إلى أن النور المذكور في القرآن الكريم نوعان:

● دنيوي وهو نوعان أيضا: محسوس وهو ما يدرك بعين البصر كضوء الشمس والقمر والنجوم. ومعقول وهو ما يدرك بعين البصيرة كنور العقل ونور القرآن الكريم.

● ونور أخروي وهو: نور الإيمان، ونور الأعمال الصالحة، كما هو في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

والله تبارك وتعالى وهو يصف نفسه بالنور إنما يضرب للناس الأمثال، ليصلح حالهم معاشهم ومعادهم.

والدعاة والحركيون يجب أن تتفتح قلوبهم وعقولهم وأبصارهم على ما يحيط بهم من أمثال، يجدونها في أحوال المدعوين، فرب مدعو نفر فضرب بذلك النفور مثلا للداعية يتعلم منه كيف يفعل، حتى لا ينفر من دعوته إلى الله أحد، ورب مدعو عارض أو أبى، ورب مدعو تحدى أو عادى أو اعتدى، كل تلك أمثال يجب أن يلتقطها قلب الداعية المتفتح على هذه العظات والأمثال.

وربّ مدعو استجاب لأول وهلة، وربّ آخر تحمس حتى بلغ به الحماس حداً كبيرا، وربّ مدعو باع نفسه كلها لله تعالى، فماذا يفعل الداعية مع هؤلاء؟

إن الداعية قلب كبير وعقل متفتح وذراعان مفتوحتان للترحيب بالمستجيبين لدعوة الله، وكل ما يحيط بهم يعلمه ويربيه ويزيده إيمانا ويقينا بصدق ما يدعو إليه.

٣ – وعلى الدعاة والحركيين أن ينبهوا المدعوين إلى أن من رحمة الله تعالى بالناس وتوضيح الأمور لهم أنه كثيرا ما يضرب لهم الأمثال، وأن يذكروهم بالآيات الكريمة التي أوضحت السبب في ضرب الأمثال مثل قوله سبحانه وتعالى:

● ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فالحق والخير والهدى والنافع من الأشياء يبقى، والباطل والسحر والضلال، والضار من الأشياء والأمور، يفني ويذهب جفاء.

● وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥] وختم الآية بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يوحي بأن معرفة هذه الحقائق التي ذكرتها الآية وهي أن الكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة وأن الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة كامنة مستقرة في نفوس الناس وإنما ضرب الله لها الأمثال ليتذكر الناس ما استقر في قلوبهم وعقولهم ولكنهم ينكرونه عنادا واستكبارا.

● وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] أي ما يتعظ بها إلا العقلاء الذين يتدبرون.

● وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.
[الحشر: ٢١]

والمعنى أن هذا القرآن العظيم البالغ التأثير بذاته وبما احتواه وبأنه من عند الله،

لو أنزل على جبل ـ والجبل قوي راسخ شديد ـ لرأيت هذا الجبل على قوته خاضعا خاشعا متشققا من خشية الله سبحانه، وتلك الأمثال نعرضها للناس لعلهم يعقلون ويتدبرون.

إن الدعاة إذا أحيوا في النفوس هذه المعاني لكان إقبالهم على الله أكبر، ولكانت استجابتهم للدعوة أقوى وأسرع.

ويلحظ أن الاستفادة من الأمثال تحتاج إلى تذكر وتعقل وتفكر وعلم وهي خواتيم بعض الآيات الكريمة التي جاء فيها ضرب الأمثال.

ومعنى ذلك أنه لا بد من التأمل والتدبر للوصول إلى الإيمان والهدى، وما يكون ذلك إلا ممن أحسنوا استعمال ما منحهم الله من عقل وفهم وعلم، روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: عقلتُ عن رسول الله ﷺ ألف مَثَل» قال الإمام ابن كثير في التعليق على ذلك: وهذه منقبة عظيمة لعمرو ابن العاص رضي الله عنه، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عمرو بن مُرّة قال: ما مررت بآية في كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعت الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[1].

وعلى الدعاة أن يذكروا الناس دائما أن الله سبحانه يضرب الأمثال للناس وهو بكل شيء عليم، أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال، روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «القلوب أربعة:

● قلب أجرد: فيه مثل السراج يزهر،

---

(١) ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم: ٣/٤١٤، مرجع سابق.

● وقلب أغلف: مربوط على غلافه،

● وقلب منكوس،

● وقلب مصفح،

فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره.

وأما القلب الأغلف فقلب الكافر،

وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عرف ثم أنكر.

وأما القلب المصفح، فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها الدم والقيح، فأي المدَّتَين غلبت على الأخرى غلبت عليه».

إن الناس إذا وعوا هذا وتنبهوا بجهاد الدعاة وعملهم المتواصل، وربطهم بين الناس وبين كتاب الله وسنة رسوله وضع كل منهم نفسه في المكان اللائق به، ذلك المكان الذي اهتدى إليه بوحي الله وبما أفاء الله عليه من عقل وفهم وعلم.

إن تلك مهمة الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية الذين آتاهم الله فقه الدين بما يعرفون من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وآتاهم فقه الدنيا بما منحهم من عقول وأفهام وقدرة على معرفة مقاصد القرآن والسنة، وعلى معرفة ظروف الناس والمتغيرات المستمرة في حياتهم، وكيفية التغلب على المعوقات من هذه المتغيرات، حتى لا يبعد الناس عن دينهم الذي ارتضاه الله لهم.

ألا إن مهمة الدعاة والحركيين عظيمة متشعبة الأطراف مترامية الأمداء، لا يقوم لها خير قيام إلا من جمع إلى الإيمان والإخلاص الفهم والعلم والعمل، وأوتي مرونة في الفكر وسعة في الصدر.

٤ – وعلى الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية أن يبصروا الناس أن عمارة بيوت الله تعالى هي المنطلق الحضاري الذي يمكن المسلمين من إقامة حضارة باذخة قادرة على الرقي بالإنسان في حاضره ومستقبله.

وذلك ان عمارة بيت الله تعني استلهام بيوت الله الخير وحبه للناس، والمشروع الحضاري الإسلامي بدأ بالعقيدة النقية الخالصة من الشوائب، والعبادة الخالصة لله وحده، والعمل الصالح الخالص أيضا لوجه الله تعالى.. ويأتي مصاحبا لذلك الأخذ بكل أسباب العلم والعمل والبحث والتجربة، بل التفوق العلمي في كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية.

وينثني المشروع الحضاري الإسلامي وينعطف على كل حضارة أبدعها الإنسان في الماضي أو في الحاضر يأخذ منها ما يلائم عقيدته وقيمه وفلسفته وترك ما يخالفه او يعارضه، دون أحكام مسبقة على أي من الحضارات.

إن ذلك يستدعي تعظيم بيوت الله لان منها النبع الفياض الذي لا ينضب أبدا !!! أليس فيها ذكر الله وعبادته وتلاوة القرآن وتراص الصفوف في الصلاة؟

أليس في بيوت الله تنمو الاخوة بين المسلمين وتترعرع، ويزكو الإيمان ويتعمق، ويتفقد الأخ أخاه إن غاب عن المسجد بل من مكانه في الصف؟

إنها أماكن ذكر الله بمعناه الواسع الشامل، وإنها الأماكن المحببة إلى المؤمنين الرجال[1]، الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والخوف من الله ومن مخالفة منهجه أو الخروج عن أمره وندبه.

إن الدعوة إلى الله كالعمل في الحركة الإسلامية جهد وعبادة وذكر، وإن العاملين فيها أو من اجلها ما ينبغي ان يشغلهم عنها شيء من أعراض الحياة الدنيا كائنا ما يكون، لان النجاح والتوفيق في مجالي الدعوة والحركة يتطلب إخلاصا وتجردا، فضلا عن الانشغال عنها باي عمل دنيوي.

وقد قال أسلافنا من الصالحين رحمهم الله في هذا المجال كلاما جديرا بالتأمل والتدبر، فقال قالوا: «المساجد بيوته سبحانه وإن الله أذن ان ترفع الحوائج فيها

---

(١) لا نقصد الرجال دون النساء، ولكن نقصد من الرجولة صدقها ومصداقيتها وتحملها للاعباء وترحيبها باداء الواجبات وانشغالها بالهام العالي من الأمور.

فيقصديها، ورفع أقدار تلك البيوت على غيرها من الأبنية والآثار.

المساجد بيوت العبادة، والقلوب بيوت الإرادة، فالعابد يصل بعبادته إلى ثواب الله، والقاصد[1] يصل بإرادته إلى الله»[2].

٥ - وعلى الدعاة والحركيين أن يبصروا أنفسهم ويبصروا الناس أن الأعمال مهما تكن حسنة أو مرضيا عنها عند الناس فليست بشيء ما لم تكن نابعة من إيمان بالله، وتابعة لمنهج الإسلام في العمل الصالح.

وعليهم أن يبصروهم بالا ينخدعوا في أعمال بعض الكفار، التي قد تبدو صالحة كالإحسان وصلة الأرحام ونحوها.

فتلك الأعمال في حقيقتها كالسراب، ومن أمّل أن يشرب من السراب فإنه لا يلبث إلا قليلا حتى يعلم أنه كان تخييلا.

هؤلاء وأمثالهم هم الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا، أو يحسبون أنهم على شيء، وما هم بهؤلاء ولا أولئك.

وعليهم أن يبصروا الناس أن كفر الكافرين وجحودهم الحق لن يضير الحق في شيء، لأن الحق ثابت لا يضره من جحده، وقوي لا يضره من انكره، وبيّن لا يضره من زيف عليه.

إن الكفر وجحود الحق مثل الظلمات المتراكم بعضها فوق بعض، التي لا تتيح لمن يعيش فيها أدنى رؤية، إن هؤلاء هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، هؤلاء هم الذين - بكفرهم وجحودهم - لم يجعل الله لهم نورا، فعاشوا حياتهم ما لهم من نور.

---

(١) يقصد به: صاحب الإرادة.

(٢) القشيري: لطائف الإشارات: ٢/٦١٤ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط. مصورة - القاهرة ١٩٨١م.

تلك حقائق كبرى في حياة الإنسان، على الدعاة أن يبصروا الناس بها، وأن يؤكدوها في أنفسهم أيما تأكيد.

إن الإنسان إذا آمن بهذه الحقائق استطاع أن يحظى برضا الله سبحانه وتعالى، واستطاع أن يعيش بمنأى عن الصراعات النفسية والعصبية، وأن يتلاءم مع المجتمع المسلم الذي يعيش فيه، وأن يسهم في بناء حضارة إسلامية حقة.

٦ - وعلى الدعاة والعاملين في مجال الحركة الإسلامية أن يؤكدوا للناس أن الهدى هدى الله، وأن الرحمة منه سبحانه وتعالى، ومعنى ذلك عملياً أن السعيد الموفق من الناس، من عرّض نفسه لهدى الله ورحمته، بطاعة الله فيما أمر وفيما نهى، وأن الشقي المخفق هو الذي يظلم نفسه بالمعصية فيحول بينها وبين التعرض لهدى الله ورحمته، لأن الله تبارك وتعالى: «يهدي لنوره من يشاء».

والذين شاء الله لهم الهداية هم من علم الله أنهم من أهل الطاعة والتقوى والالتزام بمنهج الله.

ومن رحمة الله تبارك وتعالى بالناس جميعا أن طالبهم بالطاعة، طاعته سبحانه وطاعة رسوله ﷺ، فيدخلون بذلك في الإيمان والإيمان حصن حصين وركن مكين من ذاق حلاوته عرف عز الطاعة وجعل الله له نورا يمشي به في الناس.

ومن رفض طاعة الله ورسوله حرم الإيمان وحرم بالتالي الأمن وعاش خائفا يترقب، فعرف ذل المعصية ولم يجعل الله له نورا، فأين وأنّى له النور؟

إن المدعوين جميعا قريبهم وبعيدهم، من خطا منهم نحو الغاية خطوة أو خطوات، أو بلغ نهاية الطريق فالتزم بالمنهج في كل أمره، إن هؤلاء جميعا لا يستطيعون أن يسهموا في العمل الإسلامي ولا أن يشاركوا في حركة الإحياء والتجديد لأمر الدين إلا إن كانوا من أهل الطاعة والتقوى.

ولا أبالغ إن قلت إنهم لن يكونوا جنودا قادرين على خوض المعارك ضد أعداء الإسلام، بل لا أتصور أن يتم على أيديهم نصر وتمكين لدين الله إلا أن يكون من

الطائعين التقاة.

وما تساءل المخلصون عن إبطاء النصر إلا وأجابوا بأن السبب في نقص الطاعة، ولقد قطع الله تعالى بأنه ينصر من ينصره سبحانه وتعالى، ومعنى أن ينصر الإنسان الله سبحانه أن ينصر دينه ومنهجه وكتابه وسنة نبيه ﷺ، فإن فعل فإن الله تبارك وتعالى ينصره على عدوه، قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] وقال عز شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

إن للعمل من أجل الإسلام أو من أجل المشروع الحضاري الإسلامي معارك متعددة الجبهات:

فهناك جبهة شياطين الجن والإنس.

وهناك الجبهة المتخاذلة التي تؤثر طيبات الحياة الدنيا.

وهناك جبهة الإعداد والاستعداد والأخذ بالأسباب.

وهناك جبهة الأعداء لهذا الدين.

ولكل جبهة ما يلائمها من الإعداد والاستعداد، ومهما تكن الأسباب التي يأخذ بها المسلمون، فإن على رأسها طاعة الله ونصر دينه بعميق الإيمان به، وعديد الأعمال الصالحة التي تترجم هذا الإيمان.

* * *

الآيات من الحادية والأربعين إلى السادسة والأربعين

في : تسبيح المخلوقات كلها لله، وفي مظاهر قدرته سبحانه وتعالى

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾.

■ تخاطب هذه الآيات الكريمة رسول الله ﷺ، ويشمل الخطاب جميع المكلفين، وتقرر عددا من الحقائق الكبرى، نشير إليها فيما يلي:

● تقرير أن كل من في السموات والأرض من إنسان وحيوان ونبات وجماد يسبح لله تعالى وينزهه عما لا يليق به، وإذا كان الأمر كذلك فما بال الكفار لا يسبحون الله تعالى ولا ينزهونه، وتلك من علامات قدرته سبحانه وتعالى.

● وأنه سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض لا لأحد غيره لأنه وحده الخالق لها المتصرف فيها إيجادا واعترافا إبداءً وإعادة، وأن مصير هذه المخلوقات كلها إليه سبحانه وتعالى، وهذا من دلائل قدرته جل شانه.

● وأنه سبحانه وتعالى يمدّ هذا الكون الذي يعيش فيه الإنسان بأسباب الحياة، فينزل عليه الماء الذي جعل منه كل شيء حياً، وان من مظاهر قدرته سبحانه وتعالى

تلك الظروف التي تحيط بنزول الماء أحيانا من رعد وبرق يصيب الله به من يشاء من عباده ويصرفه عمن يشاء.

● وأنه سبحانه وتعالى يقلب الليل والنهار، ليعقب كل منهم صاحبه فيكون ذلك من رحمة الله بالإنسان. حيث يجعل له الليل سكنا والنهار ليسعى فيه على رزقه.

ولا يخفى ما في ذلك من العبرة، ولا ما فيه من مظاهر قدرة الخالق سبحانه، بل طلاقة قدرته التي لا حدود لها ولا أمداء.

● وأنه سبحانه خلق كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان، خلق الإنسان والحيوان من ماءٍ تختلف نطفه من نوع إلى نوع ليكون هذا إنسانا وذاك حيواناً.

وأنه سبحانه جعل هذه المخلوقات من إنسان وحيوان بعضها يمشي على بطنه، وبعضها يمشي على أربع وبعضها يمشي على رجلين، وهذا من دلائل قدرته سبحانه وتعالى التي أكدتها الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

● وأنه سبحانه قد أنزل القرآن الكريم وجعل آياته مبينات للناس عموما، لتقيم عليهم الحجة، حتى لا يجدوا مبررا لكفرهم بالله رب العالمين.

تلك حقائق كبرى نبهت إليها هذه الآيات الكريمة، وأكدت بها طلاقة قدرته سبحانه وتعالى وأن كل شيء يسبح بحمده وينزهه، ليدل على وحدانيته وألوهيته وربوبيته ولبدعو ذلك الناس إلى الإيمان به وتوحيده إلها وربا وخالقا ورازقا، وإليه يرجع الأمر كله.

● وقد اشتملت هذه الآيات الكريمة على استفهامين يفيدان التقرير وعلى عدد من الأخبار التي جاء بعضها مؤكَّدا، وبعضها خاليا من التأكيد لأن الحاجة لا تدعو إلى توكيده إذ لا ينكره أحد من الكافرين فضلا عن المؤمنين.

ولبيان ذلك نقول سائلين الله التوفيق والسداد.

● أما الاستفهام الأول:

ففي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ... الآية﴾.

وهذا الخطاب «تر» للنبي ﷺ ولسائر المكلفين من المؤمنين وغير المؤمنين، والاستفهام هنا غرضه التقرير، أي تقرير حقيقة أن الله يسبح جميع المخلوقات.

والرؤية في قوله: «ألم تر» يمكن أن تكون بصرية من الإبصار أو تكون من العلم، وهي من الإبصار حقيقة ومن العلم مجاز.

وهذا الاستفهام قد يحمل معنى التعجب ـ كما قال بذلك بعض المفسرين ـ ويكون التعجب من حال المشركين الذين منحهم الله تعالى العقول والألباب ومع ذلك لم يدركوا عظمة قدرة الله لإدراك هذه الحقيقة.

وإذا كانت العجماوات كالطيور ونحوها قد عرفت الله وعبدته ونزهته عن كل ما لا يليق به، فكيف يكون حال الإنسان الذي لم يدرك هذا كما أدركته الطيور؟

● والمراد من التسبيح أحد أمرين:

إما دلالة هذه الأشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال.

وإما أن يكون المراد من التسبيح أن هذه المخلوقات تنطق بالتسبيح وتتكلم به.

وهناك احتمال ثالث قال بعض المفسرين وهو أن التسبيح في حق بعض المخلوقات تسبيح دلالة، وفي حق بعضها الآخر تسبيح نطق وبيان.

● وإخبار من الله تعالى بأن الله يسبح له وينزهه كل من في السموات والأرض من مخلوقات، بل ما بين السماء والأرض كالطير التي صفت أجنحتها في الطيران بين السماء والأرض، وما ذلك إلا من دلائل قدرته سبحانه وتعالى، ومن دواعي ودلائل توحيده بالعبادة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ

كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾.

● وقوله سبحانه: ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ يحتمل ثلاثة تأويلات:

الأول: أن المراد: كلٌّ قد علم الله صلاته وتسبيحه، ويدل على ذلك التأويل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾.

والثاني: أن يعود الضمير في صلاته وتسبيحه على لفظ كل اي أنهم يعلمون ما يجب عليهم من الصلاة والتسبيح.

والثالث: أن يكون الضمير راجعا على ذكر الله يعني قد علم كل مسبح وكل مصل صلاة الله التي كلفه إياها.

● وإخبار من الله تعالى بانه جل شانه عليم بما يفعلون اي عليم بما تفعل مخلوقاته سبحانه من صلاة اي عبادة له سبحانه. وتسبيح اي تنزيه له عما لا يليق به، وأنه سبحانه سوف يجازي كل مخلوق من مخلوقاته بما فعل، فيثيب من أطاع ويعذب من عصى.

ولم يحتج هذا الخبر إلى توكيد لأن جميع المشركين يعرفون من داخلهم، وإن أنكروا بالسنتهم في بعض الأحيان أن الله سبحانه خالق كل شيء وأنه إلههم ومعبودهم، عبرت عن ذلك آيات في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧] وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى... ﴾ [الزمر: ٣].

إنها الفطرة التي فطر الله الناس عليه، ولكن الناس ينحرفون بفطرهم عن الحق وعن الهدى، وإن كانوا في داخل أنفسهم يعترفون بالله وبالحق والهدى.

● وإخبار من الله تعالى بانه مالك السموات والأرض وما فيهما ومن فيهما وما بينهما، فهو وحده سبحانه له مطلق التصرف فيهما ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾ بمعنى أن له تمام علم المبدأ وتمام علم المعاد، والآية تدل على أن الكل منه سبحانه وتعالى جميع الأجرام والأعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم، والناس في عمومهم يعرفون ذلك، ويعترفون به.

وأحوال المخلوقات تؤكد هذه الحقيقة وتؤيدها ويشهد عليها تسبيحهم بحمده وتنزيههم له عما لا يليق به سبحانه وتعالى.

● وأن هذه المخلوقات جميعها التي أوجدها وله حق إعدامها، مرجعها جميعا ومصيرها إليه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

وهذا الإخبار بذلك منه سبحانه وتعالى يتضمن طلبا من الله للناس أن يرغبوا فيما عنده لأنه عنده كل شيء، وبيده خزائن السموات والأرض، وأن يتقوه ويستجيبوا لما دعاهم إليه فإن مصيرهم جميعا إليه فمجازيهم على الطاعة أو على المعصية ولا يظلم ربك أحدا.

وفي هذا دليل أي دليل على قدرته ووحدانيته سبحانه وتعالى.

- واستفهام آخر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا...﴾ الآية وهذا الاستفهام غرضه التقرير كسابقه، تقرير الحقائق الكبرى التي نشير إليها فيما يلي:

● أنه سبحانه هو الذي يسوق السحاب ثم يجمع بعضه إلى بعض، فيؤلف بينه، فيخرج من بينه المطر، وينزل من السماء من سحاب كالجبال فيه البَرَد، فيكون هذا المُنَزّل كله سببا في حياة الناس والحيوان والنبات، أو يكون سببا في إهلاك بعض الناس وزرعهم وخدعهم، ومعنى ذلك أنه سبحانه يخلق بهذا الماء أسباب الحياة وأسباب الموت، وهذا دليل عظمته وقدرته جل وعلا.

● وأنه سبحانه يقلب الليل والنهار أي يجعل أحدهما بعد الآخر رحمة بالناس، ليسكنوا ويرتاحوا في الليل ويسعوا على معاشهم في النهار، ولو كانت حياة الناس ليلا مستمرا أو نهارا مستمرا لكانوا في مشقة وتعب بالغين، قال الله

تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ – ٧٣].

وذاك هو أحد أسرار تقليب الليل والنهار ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وهذه الآية الكريمة «كما يرى علماء الفيزياء تسبق ركب العلم إذ تتناول مراحل تكون السحب الركامية وخصائصها وما عرف علميا - أخيرا - من أن السحب الممطرة تبدأ على هيئة وحدات يتالف عدد منها في مجموعات هي السحب الركامية أي السحب التي تنمو في الاتجاه الرأسي وترتفع قممها إلى علو يبلغ خمسة عشر كيلو مترا إلى عشرين كيلو مترا فتبدو كالجبال الشامخة.

والمعروف علميا أن السحابة الركامية الممطرة تمر بمراحل ثلاث هي:

مرحلة الالتحام ثم مرحلة الهطول، ثم مرحلة الانتهاء، كما أن هذه السحب هي وحدها التي تجود بالبَرَد وتشحن بالكهرباء.

وقد يتلاحق حدوث البرق في سلسلة تكاد تكون متصلة، تحدث أربعين تفريخا لشحنتها في الدقيقة الواحدة، فيذهب ذلك ببصر الراصد من شدة الضياء، وهذا هو ما يحدث للملاحين والطيارين الذين يخترقون عواصف الرعد في المناطق الحارة، وينجم عن فقد البصر هذا أضرار بليغة تشكل خطرا حقيقيا على أعمال الطيران وسط العواصف الرعدية»[1].

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم: وزارة الأوقاف بمصر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٤٠١هـ – ١٩٨٦م.

- وإخبار من الله تعالى بانه سبحانه وتعالى خلق كل دابة من ماء وانه جل شأنه نوّع هذه المخلوقات الحية من الماء.

فمنها الزواحف ومنه الحيوان ومنها الإنسان، وإن كان أصلها كلها واحد وهو الماء - أي النطفة - هذا معنى للآية الكريمة.

ويمكن أن نفهم منها معنى آخر هو: أن هذه المخلوقات جميعا لا تعيش إلا بالماء.

ويمكن أن يكون المعنى: ان الماء الحقيقي هو أصل الخلقة، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الانبياء: ٣٠].

وبيان ذلك أن الزواحف تمشي زاحفة على بطنها، ومعظم الحيوان يمشي على أربع، والإنسان يمشي على رجلين، وليس هذا التنوع مستوعبا لجميع مخلوقات الله سبحانه، إذ هناك مخلوقات لله أخرى قد لا تدخل في هذا الحصر، فله سبحانه القدرة على أن خلق أو يخلق ما يشاء بسيطا كان أو مركبا على ما يشاء من الصور والأعضاء والحركات والطبائع والقوى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذه القدرة من دلائل عظمة الله تعالى ومن موجبات توحيده.

يقول علماء «الفيزياء» الطبيعة في تأويل هذه الآية الكريمة:

«الماء في هذه الآية هو ماء التناسل أي المشتمل على الحيوانات المنوية، والآية لم تسبق فقط ركب العلم في بيان نشوء الإنسان من النطفة كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦] بل سبقته كذلك في بيان أن كل دابة تدب على الأرض، خلقت كذلك بطريق التناسل من الحيوانات المنوية، وإن اختلفت أشكال هذه الحيوانات المنوية وخصائصها في كل

نوع من أنواع الدواب.

ومما تحتمله الآية من معان علمية ان الماء قوام تكوين كل كائن حي، فمثلا يحتوي جسم الإنسان على نحو ٧٠٪ من وزنه ماءً اي ان الشخص الذي يزن سبعين كليو جراما في جسمه نحو خمسين كليو جراما من الماء، ولم يكن تكوين الجسم واحتواؤه هذه الكمية الكبيرة من الماء معروفا مطلقا قبل نزول القرآن.

والماء أكثر ضرورة لجسم الإنسان من الغذاء، فبينما الإنسان يمكنه ان يعيش ستين يوما بدون غذاء، لا يمكنه ان يعيش بدون الماء إلا من ثلاثة ايام إلى عشرة أيام على أقصى تقدير.

والماء أساسي في تكوين الدم والسائل اللمفاوي والسائل النخاعي وإفرازات الجسم كالبول والعرق والدموع واللعاب والصفراء واللبن والمخاط والسوائل الموجودة في المفاصل، وهو سبب رخاوة الجسم وليونته، ولو فقد الجسم ثلاثين بالمائة من الماء فإن الإنسان يكون معرضا للموت.

والماء يذيب المواد الغذائية بعد هضمها فيمكن امتصاصها، وهو كذلك يذيب الفضلات عن عضوية ومعدنية في البول والعرق.

وهكذا يكون الماء الجزء الاكبر والأهم من تكوين الجسم، ولذلك يمكن القول: بان كل كائن حي مخلوق من الماء»(١).

– وإخبار مؤكد من الله سبحانه بانه جل وعلا قادر على كل شيء ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ وقد أكد هذا الخبر بإنّ. وقد جاءت هذه الآية بذلك الخبر المؤكد بعد الحديث عن عجائب مخلوقاته التي نعلمها والتي استأثر هو بعلمها مما يؤكد طلاقة القدرة الإلهية وعدم توقفها على سبب من الأسباب، وإنما هي: «كن»

---

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم: مرجع سابق.

فقط كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

[يس: ٨٢]

وإنما أكد هذا الخبر لأن بعض الغافلين يترددون في تصديق طلاقة القدرة الإلهية، ولعلهم من غفلتهم يقيسونها على ما يجدون في أنفسهم أو يعرفون عن غيرهم من قدرات!!!

– وإخبار أقوى تأكيدا من سابقه بأنه سبحانه وتعالى أنزل على نبيه الخاتم محمد ﷺ قرآناً فيه آيات مبينات ليبلغه للناس ويطالبهم بالعمل بما فيه، إذ القرآن الكريم فيه كثير من الدلائل المواضحة التي تخاطب الناس جميعا، وفيه من الأحكام الدينية والدنيوية ما يحقق مصالح الناس جميعا في معاشهم ومعادهم، لو أنهم اعتبروا أنفسهم هم المخاطبين بهذا القرآن الكريم، والتزموا بالأخذ بما فيه، لأنه سبحانه يهدي به من أطاعه إلى طريق الإسلام وهو الصراط المستقيم، المؤدي إلى رضا الله سبحانه وجنته ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وفي هذه الآية يقرر الله تبارك وتعالى أنه أنزل في القرآن الكريم من الأحكام، والحكم، والأمثال البينة المحكمة كثير جدا، وأنه سبحانه يرشد إلى تفهمها وتعقلها والعمل بما فيها أصحاب العقول والبصائر فهو سبحانه: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

● والآيات جمع آية، وقد وردت حكمة آية في القرآن الكريم على وجوه:

الأول: بمعنى العلامة كقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا...﴾

[يس: ٣٣]

والثاني: بمعنى آيات القرآن الكريم: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ...﴾.

والثالث: بمعنى معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا

جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ [القصص: ٣٦].

والرابع: بمعنى عبرة المعتبرين، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً... ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

والخامس: بمعنى الكتاب والبرهان، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [المؤمنون: ٦٦].

والسادس: بمعنى الأمر والنهي ومنه قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ... ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وبهذا المعنى الأخير للآية وهو الأمر والنهي يؤول قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ والله تعالى أعلم.

■ المواقف التربوية العامة في هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلي:

١ – يتعلم الناس من هذه الآيات الكريمة أن يتأملوا ويتدبروا فيما يحيط بهم من عظيم صنع الله وعجيب مخلوقاته، تأملا وتدبرا بعقل مفتوح وقلب راغب في الهدى، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت البصائر والعقول في عمل دائب واتعاظ مستمر، لأن ذلك هو باب الإيمان والطريق المستقيم الموصل إليه.

إن على الإنسان أن يفتح قلبه دائما وأن يفتح عقله دائما لتقبل آيات الله ودلائل عظمته وعلامات رحمته للإنسان فإن تقبل ذلك هدى إلى الصراط المستقيم صراط الله، وإن أغلق قلبه وأغلق عقله عاش في حيرة وتخبط وضلال، وكان كما وصف الله قوما ذراهم لجهنم فقال عنهم ليوضح كيف استحقوا جهنم: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

ومعنى الآية والله أعلم: ان الله تبارك وتعالى خلق كثيرا من الجن والإنس مصيرهم إلى النار يوم القيامة بسبب ان لهم قلوبا لا ينفذون بها إلى الحق، وان لهم أعينا لا يرون بها دلائل قدرة الله سبحانه وتعالى وان لهم آذانا ولكنهم لا يسمعون بها أصوات المواعظ والاعتبارات سماع تدبر واستجابة، هؤلاء الذين انحرفوا بحواسهم تلك عن أن يهتدوا بها إلى آيات الله سبحانه كالانعام لعدم انتفاعهم بما منحهم الله من قلوب وعقول بل أضل من هذه البهائم، لأن البهيمة بالفطرة تطلب ما ينفعها وتبتعد عما يضرها، وهؤلاء لا يفعلون.

● وعلى المسلمين ان يتعلموا من تكرار قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ ... الآية أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي ... الآية﴾ مرتين:

● مرة في تسبيح كل شيء لله سبحانه وتعالى.

● ومرة في خلق الله سبحانه لأسباب حياة المخلوقات، وهو الماء والبَرَد فيكون حياة لقوم وهلاكا لآخرين...

إن على المسلمين خصوصا والناس عموما أن يتعلموا من ذلك ضرورة أن يستعملوا قلوبهم وحواسهم فيما خلقت له.

وهذا القلب وصفه الله تبارك وتعالى في مجال تقبل الخير والهدى بانه قلب سليم، وقلب منيب، وقلب مطمئن، وقلب مهدي، ووصفه في مجال رفض الخير والهدى بانه قلب آثِم، وقلب قد ختم الله عليه، وقلب غافل عن ذكر الله، وبكل هذه الصفات جاءت آيات في القرآن الكريم[1].

وجاء في السنة النبوية وصف القلوب الخيرة المهتدية بانها لينة رقيقة يمر بها الخير والهدى فتتأثر به فتزكو ويعمق فيها الإيمان ويصح العمل.

---

(١) وردت هذه الصفات التي ذكرت في السورة القرآنية التالية بترتيب استشهادي بها: الشعراء: ٨٩، وق: ٣٣، والبقرة: ٢٦٠، والتغابن: ١١، والبقرة: ٢٨٣، والشورى: ٢٤، والكهف: ٢٨.

روى الطبراني بسنده في الأوسط عن ابن عتبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن لله تعالى آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألْيَنها وأرقها».

إن القلب السليم المنيب هو القادر على أن يفقه ما يحيط به من عظيم قدرة الله تعالى وهذا هو قلب المؤمن الذي يعمل الصالحات.

٢ - ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن الله تبارك وتعالى لم يخلق الناس عبثا، وإنما خلقهم ليعبدوه وفق ما شرع، فمن أطاع منهم وعبد الله وعمل الصالحات فله عند الله يوم القيامة الجزاء الأوفى، ومن عصى وخالف فله عند الله العقاب الذي يراه الله سبحانه جزاء عادلا على معصيته.

إن قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ يوحي بتهديد من عصى وخالف، لأن الله تبارك وتعالى لم يخلقه عبثا وإنما ليؤمن ويطيع أو يكفر ويعصي ثم يرجع إلى الله فيحاسبه على إيمانه أو كفره وطاعته أو معصيته، قال الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

إن الذي لم يخلق عبثا عليه أن يعرف بقلبه وفطرته أن الله خلقه ليعبده، وليعمل في الدنيا ـ والله عليم بما يفعلون ثم يحاسب على ما عمل في الآخرة.

إن هذا درس عظيم يتعلمه الناس من قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ ليتقوا الله ويخافوا عقابه، وليوقنوا بأن ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

٣ - ويتعلم المسلمون وغيرهم من هذه الآيات الكريمة، أن أعمال الدنيا ليست منقطعة بحال عن الآخرة، لأن الدنيا كلها وما يمارسه فيها الإنسان من أقوال وأفعال ما هي إلا معبر وممر إلى الدار الآخرة، والسعيد من الناس من تزود من هذه الدنيا للآخرة، وخير الزاد التقوى كما جاء بذلك القرآن الكريم، إن من وضع الدار الآخرة وما يكون فيها نصب عينيه أدرك الحق وعرف حقيقة الدنيا، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا

هذه الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والحيوان كلمة تدل على أحد معنيين:

أحدهما: ما له الحاسة وهو الحيوان المتحرك.

والآخر: ما له البقاء الابدي وهو الدار الآخرة.

وإذا كان: ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فإن هذه الحياة الدنيا وما فيها من قول وعمل وقائل وعامل مصيرهم جميعا إلى الله فموفيهم حسابهم، فليتق الله هذا الإنسان وليعمل في دنياه القصيرة الفانية ما يجده يوم القيامة يوم المصير في تلك الحياة الباقية.

٤ – وليتعلم الناس من الآيات الكريمة ان نعم الله كثيرة، وانها هي سبب الحياة كلها، بل الحياة نفسها نعمة من الله إذا اهتدى الإنسان وأطاع ربه.

وليعوا أن الله سبحانه وإن جعل الماء سبب الحياة، فإنه سبحانه قد يهلك بهذا الماء، أي أن النعمة عند أحد المهتدين قد تكون نقمة عند العصاة والكافرين ويصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء.

وما دام ذلك كذلك فإن الإنسان عليه ان يشكر الله على نعمه والشكر إنما يكون بالطاعة والإخلاص، فقد قال تعالى: ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال: ﴿ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

[العنكبوت: ١٧]

وشكر الله هو: ظهور أثر نعمه على لسان عبده ثناء واعترافا وعلى قلبه عبادة ومحبة، وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

ومن المبشرات أن الشكر مصحوب دائما بالمزيد من النعم فقد قال سبحانه: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

إن شكر الله تبارك وتعالى على نعمه واجب شرعي، لأن من حجبه أو منعه فقد كفر نعم الله، ومن كفر نعم الله، أوبق نفسه واستغنى الله عنه وعن شكره، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

[لقمان: ١٢]

إن الدرس العظيم في هذه الآيات أن يتعلق قلب المؤمن بالله ويلهج بالثناء عليه يشكره ولا يكفره، يدعوه آناء الليل وأطراف النهار لعله يرضى.

٥ – ويتعلم المؤمنون من هذه الآيات الكريمة أن أبسط نعم الله وأكثرها دورانا في حياة الإنسان هي نعمة الليل والنهار وخلفة كل منهما للآخر، وهي من أهم النعم التي تكمن فيها العظة والعبرة لأولي الأبصار والبصائر ممن هدى الله.

لقد امتن الله علينا بنعمة الليل والنهار في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦]، وقال جل شأنه: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً ﴾ [يونس: ٦٧]. وقال جل وعلا: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال جل وعلا: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾.

[الفرقان: ٦٢]

وما دام الليل والنهار نعمة ـ على الرغم من أن معظم الناس لا يحسون بهذه النعمة، فإن على المؤمنين شكر هذه النعمة بأن يعمروا الليل بالعبادة والتسبيح وأن يعمروا النهار بالسعي على الكسب الطيب والعبادة أيضا.

٦ – ويتعلم المؤمنون من الآية الكريمة: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ.... الآية ﴾ أن الله سبحانه وتعالى، خلق كل ما يدب على الأرض ـ أي يتحرك ـ من ماء أبيه وأمه، حيث تصبح أجزاء الماء متساوية متماثلة،

ثم ينقسم هذا الماء إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن، فيختص كل عضو بنوع من الهيئة والصورة، وضرب من الشكل والبنية.

ثم تختلف هيئات الحيوانات في الريش والصوف والوبر والحافر والخف والظفر، ثم في القامة والمنظر، ثم ينقسم ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم، وسِنّ ومخ وعصب وعرق وشعر، ويأتي الإنسان على أجمل صورة وأكرمها بين هذه المخلوقات جميعا، ويسخر الله له هذه المخلوقات جميعا، ينتفع منها بما أحل الله له ويجتنب ما حرم عليه، هذا الإنسان الذي أسبغ الله عليه نعمه.

سبحان الله في بديع صنعه وعجيب خلقه.

إن ذلك كله ينبغي أن يدعو الإنسان إلى النظر في نفسه. وفي هذه المخلوقات، وفي تلك النعم، ما ظهر منها وما بطن، ثم يأخذ العظة والاعتبار، ولن يكون ذلك إلا إذا استيقظ القلب ووعت البصيرة، وعمر القلب والعقل، فإن حدث هذا أوجب الإنسان على نفسه التسبيح والسجود لواجب الوجود، وواهب النعم المعبود بحق سبحانه وتعالى كل ذلك يصل إليه الإنسان صاحب البصيرة إذا تدبر في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ...﴾.

٧ – ويتعلم المؤمنون من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن الكريم من الأحكام والآداب والحكم والأمثال ما يعد كافيا للحياة الإنسانية، وشافيا لها من أمراضها، وقادرا على الأخذ بيدها نحو حياة إنسانية كريمة.

وأنه سبحانه جعل هذا القرآن سهلا ميسرا لا تعقيد فيه ولا غموض، وكل ما جاء فيه من إجمال تكفلت السنة النبوية بتفصيله وبيان مجمله، والنصوص الدالة على سهولة القرآن الكريم ويسر فهمه واستيعابه كثيرة نذكر منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧] وقد ذكرت هذه الآية الكريمة في سورة القمر أربع مرات منها هذه المرة، وقد جاء بعد كل آية حديث عند

قوم سابقين، فهذه الآية جاء بعدها قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨].

والآية الثانية (١) جاء بعدها حديث عن ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ والآية الثالثة(٢) جاء بعدها حديث عن قوم لوط ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ والآية الرابعة(٣) جاء بعدها حديث عن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾.

كما جاء قوله تعالى في تيسير القرآن الكريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧] وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

والسنة النبوية حافلة بالأحاديث التي تدل على يسر هذا الدين وسماحته وهي تطالب المسلمين باليسر والرفق وترك المبالغة والتشدد.

● روى الإمام أحمد بسنده عن عروة(٤) رضي الله عنه عائشة أم المؤمنين خالته قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقني على منكبيه لأنظر إلى زفن(٥) الحبشة حتى كنت التي مللت، فانصرفت عنهم... وقالت: قال رسول الله يومئذ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أرسلت بحنيفية سمحة».

● وروى أحمد بسنده عن ابن عباس(٦) رضي الله عنهما: قيل لرسول الله:

---

(١)، (٢)، (٣) سورة القمر الآيات: ٢٢، ٣٢، ٤٠.

(٤) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي أبو عبد الله (٢٢ - ٩٣هـ) أحد الفقهاء السبعة بالمدينة المنورة، كان صالحا كريما لم يدخل في الفتنة وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وخالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٥) الزَّفْن الرقص وتحريك الجسم.

(٦) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي (٣ق. هـ ٦٨هـ) ابن عم رسول الله ﷺ ولد بمكة ولازم رسول الله ﷺ له في الصحيحين ١٦٦٠ حديثا نبويا، قال عنه -

أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة».

● وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا».

● وروى أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «إن هذا الدين متين فاوغلوا فيه برفق».

ومع هذا التيسير للدين ومع هذا الشمول لكل ما يحتاج إليه الإنسان في دنياه وآخرته، فإن هذا القرآن الآيات المبينات لا يفيد منه المؤمن إلا إذا تدبر في آياته وعرف مقصده وعمل بما فيه، فذلك هو المهتدي إلى الصراط المستقيم.

أما مَنْ عميتْ بصيرته عن القرآن الكريم والسنة النبوية على الرغم من يسر الدين وتيسيره وقدرته على الوفاء بمطالب الإنسان فذلك هو الذي استوت عنده الأنوار والظلم لعمى البصيرة، فلا تنفعه آيات بينات ولا دلائل واضحات، ولا أدلة ولا براهين، وقديما قال الشاعر الحكيم:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

وما أبالغ في شيء إن قلت: إن مشكلة المسلمين اليوم أنهم لا يتعاملون مع القرآن والسنة كما يجب، وإنما يتجاهلون ما فيهما من نظام للحياة الإنسانية لاجئين إلى نظم وضعية فيها كثير مما يخالف قيم الإسلام وأحكامه وآدابه.

إن أهم ما يتعلم من هذه الآية في كلمات هو: أن الله تعالى أنزل القرآن آيات مبينات، وأن من أقبل عليه واستضاء بنوره هداه الله إلى الصراط المستقيم.

■ المواقف التربوية في مجال الدعوة والحركة، وهي كثيرة نذكر منها ما

- أبو هريرة رضي الله عنه: نعم ترجمان القرآن ابن عباس، كان شديد الحفظ، كان له يوم للتأويل ويوم للفقه ويوم للمغازي ويوم للشعر ويوم لوقائع العرب وهناك تفسير ينسب إليه جمعه بعض أهل العلم عن مرويات المفسرين سموه تنوير المقباس في تفسير ابن عباس.

يوفقنا الله إليه فيما يلي:

١ - على الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية أن يذكروا الناس وينبهوهم إلى حقيقة هامة:

هي أن مخلوقات الله جميعا تسبحه سبحانه وتنزهه تسخيرا ودون مخالفة، ما عدا الإنسان فإنه قد خُيِّر بين أن يسبح الله وينزهه باختياره أو يرفض هذا التسبيح والتنزيه.

ولعل من أسرار ذلك أن الإنسان قد منحه الله نعمة العقل ليميز بها الخبيث من الطيب وما يجب مما لا يجوز، ومن أجل أن عقل الإنسان قد يعجز عن هذا التمييز، فإن الله تبارك وتعالى قد أنعم على هذا الإنسان بنعمة الرسل والوحي، فكان الإنسان من بين مخلوقات الله قد منحه الله نعمتين:

نعمة العقل.

ونعمة الوحي.

وكل واحدة من النعمتين وحدها كانت جديرة بأن تضع الإنسان في مصاف المسبحين بحمد ربهم المنزهين له من كل ما لا يليق به، فكيف بالإنسان وقد اجتمعت له النعمتان؟

إن من لا يسبح الله من الناس كافر بنعم الله أولا، ثم هو كافر بالله تعالى بعد ذلك.

● وفي مجال الدعوة والحركة الإسلامية فإن معنى تسبيح الله وتنزيهه يجب أن يمتد ليشمل تنزيه شرع الله عن كل ما لا يليق به، وتنزيه الشريعة يعني أن تكون لمفردات الشريعة كلها مكانة التنزيه في قلب المؤمن وعقله، وينسحب ذلك على الدعوة والحركة والعمل من أجل الإسلام، لأن ذلك مما أوجبه الله بنصوص إسلامية، فكان بهذا من بين مفردات الشريعة[١].

---

(١) للتوسع في معرفة ذلك: فقه الدعوة إلى الله. للمؤلف ـ نشر دار الوفاء.

ومعنى ذلك إقناع المدعوين بان العمل من أجل الإسلام ليس نافلة أو تبرعا وإنما هو واجب أصيل من واجبات الإسلام، أليس قد ثبت وجوبه بالنصوص الإسلامية؟

ولن تقوم للمسلمين قائمة، أو تنجح حركة الإحياء والتجديد بين المسلمين إلا إذا حدث هذا الاقتناع فاعقبه عمل وتنفيذ.

٢ – إن الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية عليهم أن يوضحوا لأنفسهم وللمدعوين ولسائر الناس حقيقة كبرى هي:

ان الإنسان بما أوتي من علم ومال وجاه قد يخدعه الشيطان من خلال هذه النعم ذاتها، فيستغل هذه النعم ويسخرها للمعصية!!!

والمعصية لله هي جالبة للكفر والخروج عن أمر الله.

وهذا الإنسان العاصي الكافر المغرور. ماذا يظن بنفسه؟

أيظن أنه قادر على أن يخرج بهذه المعصية عن عقاب الله سبحانه؟

كذبوا وضلوا، لقد أخبر الله تعالى بانه لن يفوته أحد من هؤلاء الذين كفروا، وقد يعاقبهم في الدنيا وقد يكون عقابهم في الآخرة، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ [الانفال: ٥٩] وقال جل شانه:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

[العنكبوت: ٤]

وقال عز من قائل: ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ [سبا: ٤٩ – ٥٤].

إن هذا الإنسان مهما يكن أمره ومهما يكن كفره فإنه لن يستطيع أن يفوت عذاب الله في الدنيا أو في الآخرة، فما باله يغتر حتى يتصور أنه يستطيع الخروج من ملكوت الله وعن نواميسه في الأولين والآخرين؟

إن أحدا من الإنس أو الجن إذا عصى الله فلن يستطيع أن يهرب بمعصيته من عذاب الله وعقابه يوم القيامة، وذلك أن الله سبحانه له ملك السموات والأرض ما فيهما ومن فيهما وما بينهما فأين يذهب ذلك المغرور؟ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾.

● والعبرة التي ينبغي أن يركز عليها الدعاة هي: أن الإنسان ما دام في قبضة الله في معاشه ومعاده، فعلامَ الضلال والكفر والفسوق والعصيان؟ علامَ هذا وقد جاءه رسول يدعوه لما يحييه وينجيه في معاشه ومعاده؟

أليس ذلك من تمام الغفلة ومن طمس البصيرة؟

إن المتأبي على طاعة الله سبحانه أضل من الحيوان، لأن الحيوان لم يمنح العقل ولا الوحي ومع ذلك فهو مسبح لله، فماذا ينبغي أن يكون موقف الإنسان الذي أنعم الله عليه بالعقل والوحي؟

أفيليق بالإنسان أن يجعل نفسه أقل من الحيوان؟

● وفي مجال الدعوة والحركة تبرز للمعصية أخطار كبيرة، ومن أول أخطارها أنها من معوقات النصر، إذ كيف ينصر الله العصاة؟

وقد وعد بنصر من ينصره؟ ونصر الله بطاعته.

ولا ينبغي أن يستهان بمعصية لأنها من الصغائر، فإن اعتياد الصغائر كبيرة من الكبائر، والعمل الإسلامي الذي يستهدف التمكين لدين الله في الأرض بحاجة إلى الطائعين الأصفياء المخلصين أعمالهم لله.

٣ – إن من أبرز ما يجب أن يقوم به الدعاة أن يتعاملوا مع المدعوين بالرقائق التي ترقق قلوبهم وتزيل عنها الصدأ والتبلد، وغبار الغفلة وأسباب الضياع.

إن الرقائق في مصطلح الدعاة آية كريمة أو حديث شريف، أو كلمة نافذة لمصلح مخلص، وهذه الرقائق تنفذ إلى القلوب دون تردد ولا تباطؤ، وتستقر في الوجدان مزيحة من طريقها ما يزحمها من أعراض الانصراف عن الحق، ثم تزداد فعاليتها في القلب، فتحمل الجوارح على سلوك سواء السبيل.

إن هذه الرقائق هي زاد الدعاة على طريق الدعوة، كلما أوشك الزاد على النفاد تزودا من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأعمال الصحابة والتابعين رضي الله عنهم والكلمات المأثورة للمصلحين المجددين لأمر هذا الدين، وكل تلك المفردات في مجملها هي التقوى وهي خير الزاد كما قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

إن داعية إلى الله أو عاملا في الحركة الإسلامية بغير زاد من الرقائق محكوم على عمله بالعقم أو ضعف الإنتاج.

إن التأمل والتدبر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا...﴾ الآية رقيقة من الرقائق الفاعلة في قلب المؤمن وعقله وجوارحه.

إن دورة المياه من البحر المالح إلى النهر العذب والتأمل فيها وفي صنع الله برقق القلب ويرطبه ويقوي الإيمان ويمده بالغذاء.

وإن هطول البرد والثلوج من السماء ليكون لقوم نعمة ولآخرين نقمة، والتدبر في ذلك وأخذ العبرة منه، يصفي القلوب من أكدارها.

وإن التأمل في هذه النعمة «يصيب به من يشاء من عباده ويصرفه عمن يشاء» يجلو القلب ويزيل عنه أدران التعلق بما ألفه الناس من مقاييس خاطئة ومعايير سقيمة.

• إن الدعوة إلى الله والعمل في الحركة الإسلامية والمضيّ في طريق الإصلاح والتجديد، يحتاج إلى قلب مستنفر، وعقل مشحوذ، وإيمان عميق وفهم دقيق وعمل خالص لوجه الله العظيم.

وهذه الصفات جميعا تشتد الحاجة إليها في مجال الدعوة والحركة، تشتد إليها حاجة الدعاة ليؤثروا في المدعوين ويربطوهم برباط الأخوة في الإسلام وهو أوثق رباط، ويحتاج إليها المدعوون ليكونوا في مجال العمل الإسلامي صفا كأنهم بنيان مرصوص، لا يجد الشيطان لنفسه في هذا الصف فرجة ينفذ من خلالها بهمزه ولمزه ووسوسته ونفثه، وكيف يجد الشيطان هذه الفرجة في صف المؤمنين وقد تساوت المناكب والأقدام وتضامت النفوس المؤمنة في صف واحد؟

بل إن أعوان الشيطان من الفتور والكسل وإيثار الدنيا وكراهية الموت، وخوف الظالم، والقلق من أجل الرزق، كل تلك أعوان الشياطين ولكنها لا يستطيع أن تنفذ من خلال الصف المؤمن!!!

إن هذه المعاني هي التي تصنع الرجال، وتدفع بهم إلى خوض المعارك من أجل التمكين لدين الله في الأرض ضد أعداء الله أعداء الإسلام ومنهجه ونظامه.

٤ - وأمام الدعاة إلى الله والعاملين في مجال الحركة الإسلامية فرصة مواتية لإحداث فقه عميق للدعوة في نفوسهم ونفوس المدعوين وهم يتدبرون قول الله تعالى: ﴿يقلب الله الليل والنهار...﴾.

وتقليب الليل والنهار هو تغيير أحوالهما من طول إلى قصر ومن حر إلى برد، ومن نور إلى ظلام، ومن اعتدال بين هذه الأحوال، وفي ذلك عبرة لأولي البصائر والأبصار، تعمق إيمانهم بخالق الوجود، وتزيل من نفوسهم كل تردد، وتدفع بهم إلى طاعة الله والعمل الصالح.

وفي تأمل ذلك وتدبره أمان للقلب من الصدأ وأمان للعقل من الشطط، وأمان للخلق من الجنوح والاضطراب. ونقل لهم من الضلال إلى الهدى ومن الكفر إلى الإيمان.

وما أنزله الله كتابه آيات مبينات إلا ليحدث هذا في قلوب الناس وعقولهم وجوارحهم.

● والدعاة والحركيون بحاجة إلى أن يربطوا للناس بين تقليب الله سبحانه لليل والنهار، وتقليبه سبحانه للأمور وتدبيرها على أحسن ما تكون.

إن هذا الربط يعني أن كل الأمور وكل المتغيرات بيد الله سبحانه وأن الدعاة والحركيين والعاملين في حقل الإصلاح والتجديد ليسوا أكثر من أسباب إن يشأ الله يجعلها وسائل لتمكين دينه في الأرض وإن يشأ يأت بالأسباب التي أدت إلى انتصار المسلمين في معاركهم مع أعدائهم، أو بالأسباب التي جعلتهم ينهزمون أمام عدوهم لهو الدرس العظيم والعبرة والعظة!!!

وإن المتأمل في ظروف الحركة الإسلامية اليوم وما يحيط بها من الأسباب التي مكنت منها أعداءها، ومع ذلك تمد مدّها وتعطي عطاءها وتستعصي على محاولات السذج الغافلين الذين يريدون أن يطفئوا نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكارهون.

إن الدعاة إلى الله عليهم أن يجعلوا من أنفسهم ومن المدعوين نور الله الذي يضيء بكتابه كل ظلمة ويبدد بسنة رسوله ﷺ كل سحابة داكنة، وما هو إلا زمن يسير حتى يتم الله بهم نوره ولو كره الكافرون والمشركون والكارهون!!!

إن هذا يقين ينبغي أن يعيش في قلوب المشغولين بالدعوة إلى الله وفي عقولهم وفي جوارحهم، والله سبحانه من وراء كل عدو للإسلام والمسلمين يحيط به ويرد كيده إلى نحره.

ولا أجد ما أطمئن به العاملين في حقل الإسلام مثالا أقرب ولا أصرح ولا أوضح مما جرى به قدر الله على نظام «الاتحادات السوفياتية» في هذا العقد الذي نعيشه اليوم!!!

إن هذا النظام كان طاغيا باغيا مفرطا في تحدي الفطرة البشرية خادعا كاذبا مغالطا متحديا لإنسانية الإنسان.

ولقد وجد أعوانا وأذنابا ودعاة من الراغبين أو الراهبين الخائفين فملئوا الدنيا

صياحا ونباحا ومهاترات ومغالطات.

ولقد أتى على هذا النظام حين من الدهر كان الناس يتصورون أنه سوف يكتسح العالم كله، ولقد انطلقت شعارات وارتفعت رايات وجند الجنود الحمر والبيض والسود، وظن أهله أنهم قادرون على الأرض وأهلها، وانطلقت الإذاعات الذليلة العميلة الذاهلة عن تاريخها تغني للاشتراكية وتلوم - على حدّ تعبيرهم الساقط - عديم الاشتراكية وتصفه بأنه خائن المسئولية!!!

ثم شاء الله الذي يقلب الليل والنهار، لهذا النظام أن ينهار لأسباب أو لغير أسباب، فانهار وتناثر وتطايرت أجزاؤه تملأ الأفق خبثا وعفنا ونتنا، وارتمى دعاته وقادته أذلاء صاغرين أمام أعدائهم التقليديين، وزال الكابوس وتنفس الناس الصعداء!!!

من كان يظن أن هذا يحدث بهذه السرعة في عرف الدول والأمم؟

إنه تقليب الله للأمور.

ولا يغرنك فلوله وأذياله الذين يزعمون أنهم أصحاب مبدأ ومعتقد، فإنما هي كبرياء الضالين الذين حسبوا أنهم على شيء.

وربما تعالت لهم صيحة من هنا أو هناك وربما استجابت لهم بعض وسائل الإعلام الرخيصة الغافلة فهيأت لهم بعد هذا السقوط فرصا وكلاما... ولكنهم من فرط خزيهم وعارهم، وعمالتهم وخيانتهم لأديانهم وأوطانهم ينطقون حشرجة الموت ويرقصون مذبوحين رقصات هي آخر ما يدل على أن بهم حراكا.

لقد كان لله سبحانه وتعالى فيهم أيّاما، وما رمى المسلمون الأعداء للإلحاد الذي جاءت به الشيوعية والاشتراكية، ولكن الله رمى، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون.

إن المسلمين بحاجة إلى أن يتأملوا في تقليب الله سبحانه الليل والنهار وللأمور كلها صغيرها وكبيرها، ثم يفرحوا فيما بينهم وبين أنفسهم لا شماته في عدو سقط

ولكن أملا في نصر الله وثقة فيه، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

ولا يحسبن القارئ أني بهذا أفرش الطريق بالورود، وإنما فقط أذكر بأيام الله، وأدعو إلى الأخذ بكافة الأسباب في معركة المصير معركة التمكين لدين الله في الأرض، والله على ما يشاء قدير.

* * *

الآيات من السابعة والأربعين إلى الرابعة والخمسين

في: صفات المنافقين، وتحذير المسلمن من تلك الصفات

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ
وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
(٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ
وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ
لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا
اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ
تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾.

■ هذه الآيات الكريمة تتضمن ما يلي:

أولا: توضيح صفات المنافقين ليعرفهم من ليس لهم بعارف، وأهم هذه الصفات ما يلي:

- أنهم يقولون بألسنتهم ما لا تدين به قلوبهم.
- وأنهم يزعمون أنهم أطاعوا الله ورسوله في الأمر والنهي، ثم يتولون مدبرين عن هذه الطاعة دون مبرر.
- وأنهم عندما يدعون إلى التحاكم إلى رسول الله وإلى شرع الله، فإنهم يرفضون هذا التحاكم حين يرونه ليس في صالحهم، فإن كان في صالحهم قبلوه.

● وأنهم مرضى القلوب، وسيئوا الأخلاق، بظنهم أن النبي ﷺ قد يظلمهم في حكمه.

● واأنهم ظالمون لأنفسهم ولغيرهم باتصافهم بهذه الظلمات.

ثانيا: توضيح الصفات التي يجب أن يكون عليها المؤمنون، بعيدين كل البعد عن صفات المنافقين، وأبرز هذه الصفات هي:

● أنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقبلوا.

وعلامات قبولهم هي:

● قولهم سمعنا لهذه الدعوة وقبلنا،

● وأطعنا ما يحكم به الله ورسوله.

● وأنهم من المفلحين بهذا القبول، فلاح الدنيا والآخرة.

ثالثا: تقرير حقيقة ثابتة في الحياة الدنيا والآخرة وهي:

● أن من أطاع الله ورسوله، وخشي الله فلم يخالف منهجه، واتقى الله في قوله وفعله، فهو الفائز - والفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة - فقد ظفر بخير طاعة الله وما أكثر ما في طاعة الله من خير، وسلموا من عقاب المعصية التي قد تكون في الدنيا ولكنها بكل تاكيد في الآخرة.

رابعا: إبراز صفة في المنافقين تكاد تكون أبرز صفاتهم وهي:

● أنهم يحلفون أيمانا بالله تعالى - لرسوله ﷺ - لئن أمرهم الرسول بالخروج معه في الجهاد ليخرجن معه، مع أنهم لن يفعلوا ذلك أبدا لأنهم منافقون.

● وأن أيمانهم مهما غلظوها فإنها غير صادقة، وكيف يصدقون وحنث اليمين علامة من علاماتهم؟

● وأنهم يزعمون الطاعة، وهو زعم باطل، وطاعة معروف أنهـا كذب لا حقيقة.

● وقد تضمنت الآيات الكريمة أخبارا، وشروطا، وأمرا واستفهاما نوضحها بعون من الله فيما يلي:

● أما الأخبار فمنها:

● إخباره سبحانه وتعالى عن بعض صفات المنافقين، كقولهم:

إنا آمنا بالرسول وأطعنا، وهم في الحقيقة معرضون عن الحق متولون عنه، ومن كان كذلك فهو منافق ليس بمؤمن، لأن الأصل في المنافق أن يبطن الكفر ويظهر الإيمان، فينخلع بذلك من الإيمان ويخرج منه.

● والنفاق هو: الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب آخر، فهم خارجون كما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧] أي الخارجون من الشرع.

● والمنافقون أسوأ مآلا عن الله من الكافرين، ويدل على ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾. [النساء: ١٤٥]

● وجزاء المنافقين في صورته العامة كجزاء الكافرين، كما يتضح ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ [النساء: ١٤٠].

وقد كشفت طواياهم الآية الكريمة: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى - والله أعلم - : أنهم يقولون: صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الله وأطعنا الرسول، ثم تُدبِرُ كل طائفة منهم وتتولى بعد ما قالوا هذا القول، وتدعو إلى التحاكم إلى غير الرسول في خصوماتهم، وليس من كانوا كذلك بالمؤمنين ما داموا قد تركوا الاحتكام إلى رسول الله ﷺ.

■ وأخبار من الله تعالى عن المنافقين بأنهم إذا دعوا إلى كتاب الله وإلى سنة

رسوله ليحكم بينهم فيما اختصموا فيه، إذا فريق منهم يعرضون عن قبول ما حكم به الرسول ﷺ، على حين لو كان لهم الحكم وفي صالحهم ضد خصومهم اتوا إلى رسول الله ﷺ سراعا منقادين لحكمه.

تلك صفاتهم الواضحة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

– واما الاستفهام ففي قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وهذا الاستفهام:

● قد يكون للإنكار عليهم في موقفهم من الإعراض عن حكم رسول الله ﷺ بسبب فساد قلوبهم، وشكهم في نبوة محمد ﷺ، او خوفهم من ان يجور الله عليهم باحكامه فيجور عليهم الرسول ﷺ بتطبيق هذه الاحكام.

ينكر الله عليهم كل هذا بهذا الاستفهام.

● وقد يكون الاستفهام للتنبيه على ضلالهم ونفاقهم، وتاكيد ان الإعراض عن الحق لا يخرج عن صفة من صفاتهم الثلاثة المذكورة في هذه الآية الكريمة وهي:

● مرض القلوب.

● والريبة والشك.

● وخوف جور الله ورسوله عليهم.

ويكون هذا التنبيه إلى تلك الصفات متضمنا معنى التعجب من شأنهم.

● وكلمة القلوب في الآية: تعني العقول مع القلوب.

● وكلمة المرض: تعني الفساد والمقصود به النفاق.

● وكلمة الارتياب تعني: الشك في نبوة محمد ﷺ او الشك في حقيقة الإسلام.

● وكلمة الحيف: تعني الظلم والجور في الحكومة.

– ويرى بعض علماء أسباب النزول ان هذه الآية: ﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ ...﴾ الآية نزلت في «بشر» المنافق وخصم له من اليهود، وكانا قد تخاصما في أرض فجعل اليهودي يجر خصمه إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما وجعل المنافق يجر خصمه إلى كعب بن الأشرف[1] قائلاً: إن محمدا يحيف علينا».

وسواء أكان سبب نزول الآية هو هذا أو غيره، فإن الآية الكريمة تظل دائما موضحة لصفات المنافقين.

ومعنى الآية والله أعلم ـ أن أمر المنافقين في الإعراض عن حكم الله ورسوله لا يخرج عن ان يكون بسبب مرض في قلوبهم او شك في الدين والرسول ﷺ ، أو خوف من جور الله ورسوله عليهم، وكل ذلك كفر محض، وهم بذلك هم الظالمون الجائرون الفاجرون، وحاشا لله ان يظلم احدا وما كان لرسوله أن يظلم أحداً كذلك.

– وإخبار من الله تعالى بما يجب أن يكون عليه المؤمنون في مثل هذه المواقف، وهو أن يقولوا: سمعنا وأطعنا ليكونوا بهذا من المفلحين في الدنيا بإدراك مطالبهم وفي الآخرة بالجنة، وفي ذلك جاءت الآية الكريمة: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

قال قتادة في تفسير هذه الآية الكريمة: «ذكر لنا أن عبادة ابن الصامت ـ وكان

---

(١) هو كعب بن الأشرف من بني بنهان كانت أمه من بني النضير فتهود (٠٠٠ – ٣٠هـ) وكان يقيم في حصن قرب المدينة المنورة ادرك الإسلام ولم يسلم وأكثر من هجاء النبي وأصحابه وشبب بنساء المسلمين ورثى قتلى بدر من المشركين وحرض على قتال المسلمين، فأمر النبي ﷺ بقتله فانطلق إليه خمسة من الأنصار فقتلوه في حصنه.

عقبيا(١)، بدريا(٢) أحد نقباء الأنصار ـ أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة ابن أبي أمية: ألا أنبئك بماذا عليك وبماذا لك؟ قال: بلى قال: فإن عليك السمع والطاعة في عُسْرِك ويُسْرِك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل، وألا تنازع الأمر أهله إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحا، فما أُمرتَ من شيء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله».

وقال قتادة أيضا: «ذكر لنا أن أبا الدرداء قال: لا إسلام إلا بطاعة، ولا خير إلا في جماعة، والنصيحة لله ولرسول وللخليفة والمؤمنين عامة».

وقال أيضا: «ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: عروة الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والطاعة لمن ولاَّه الله أمر المسلمين. رواه ابن أبي حاتم»(٣).

ـ وأما أسلوب الشرط ـ ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

فأداة الشرط: مَنْ وهي شرطية عامة.

وفعل الشرط: يطع وما عطف عليه وهو يخش ويتق.

وجواب الشرط: جملة فأولئك هم الفائزون.

والمعنى ـ والله أعلم ـ أن من يطع الله ورسوله في كل أمر في يسره وعسره ومنشطه ومكرهه، ويخشى الله فيما بدر منه من ذنوب في الماضي، ويتق الله فيما بقي من عمره، فأولئك هم الفائزون بنعيم الدنيا والآخرة.

قال فخر الدين الرازي: «هذه الآية على إيجازها حاوية لكل ما ينبغي

---

(١) عقبيا: أي من أهل بيعة العقبة.

(٢) بدريا: أي من أهل بدر الذين جاهدوا في أول معركة حاسمة في تاريخ المسلمين.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٣/٢٩٩ مرجع سابق.

للمؤمنين أن يفعلوه»[١].

● والطاعة: امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

● والخشية: الخوف وهي تتعلق بما عسى أن يكون قد فرط فيه الإنسان من قبل من التكاليف، وقد تتناول التقصير كله.

● والتقوى: الحذر من مخالفة الله التكاليف في المستقبل.

● والفوْز: الظفر بالمطلوب الصالح.

– وإخبار من الله تعالى بإحدى صفات المنافقين الهامة وهي:

أنهم يحلفون أغلظ الأيمان وأشدها لئن أمرهم الرسول بالخروج معه لقتال عدوه وعدو المؤمنين ليخرجن معه، وهم كاذبون فيما يحلفون عليه.

قال ابن عطية[٢]: وهذه الآية: في المنافقين الذين تولوا حين دعوا إلى الله ورسوله.

وقال القرطبي[٣]: لما بيّن كراهتهم لحكم النبي ﷺ أتوه فقالوا: والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فنزلت هذه الآية.

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٣/٢٩٩ مرجع سابق.

(٢) هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي أبو محمد (٤٨١ – ٥٤٢هـ) وهو غرناطي أندلسي، مفسر فقيه عارف بالأحكام من علماء الحديث تولى قضاء المريّة، وكان كثير الغزوات مع المـُلَثَّمين، له تفسير مخطوط في عشر مجلدات اسمه: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.

(٣) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي الأندلسي (.. – ٦٧١هـ) القرطبي، من كبار المفسرين، صالح متعبد من أهل قرطبة رحل إلى الشرق واستقر في منية ابن خصيب في شمالي أسيوط بمصر وتوفي بها من أهم كتبه تفسيره: الجامع لأحكام القرآن وله كتاب: القبَس في شرح موطأ مالك بن أنس، وله غيرها وكان ورعاً متعبدا طارحا للتكلف.

● والإقسام: هو النطق بالقسم أي اليمين.

● والجهد: منتهى الطاقة، ولذلك يطلق على المشقة.

– وأما النهي:

فقد نهاهم الله سبحانه عن القسم بقوله: ﴿لا تقسموا﴾ لأنه سبحانه يعلم أنهم كاذبون فيما أقسموا عليه لنفاقهم، ولأن باطنهم يختلف عن ظاهرهم. ﴿قل لا تقسموا طاعة معروفة﴾.

وكل من نوى الغدر لا الوفاء في قسمه فإن قسمه يكون قبيحا، وقد نهوا عن القسم لعلم الله بنواياهم، ومما يعزز هذا التفسير ما رواه الطبراني بسنده عن جندب رضي الله عنه[1] قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أسرّ عبد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها».

● ﴿وطاعة معروفة﴾:

تحتمل معنيين:

● أحدهما: طاعتكم المزعومة معروفة لنا، وأنها قول لا فعل معه وكلما حلفتم كذبتم.

● والآخر: أي المطلوب منكم طاعة معروفة لا أيمان كاذبة، وإنه سبحانه وتعالى ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم.

---

(١) هو أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد (... – ٣٢هـ) من بني غفار. صحابي من كبارهم قديم الإسلام يقال أسلم بعد أربعة، ويضرب به المثل في الصدق، وهو أول من حيّا رسول الله ﷺ بتحية الإسلام، روى البخاري ومسلم له ٢٨١ حديثا، سكن بعد وفاة الرسول بادية الشام ثم دمشق ثم عاد إلى المدينة المنورة ثم سكن الربذة من قرى المدينة حتى مات فيها رحمه الله تعالى.

- وأما الأمر فهو:

في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ... ﴾ فقد أمر الله رسوله بقوله: له: «أي قل لهم يا محمد: أطيعوا الله ورسوله» وان لا يكترث بأيمانهم الكاذبة.. بل يطالبهم بطاعة الله ورسوله فيما كلفوا به.

- واسلوب شرط في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ وبيان ذلك كالآتي:

إن: أداة شرط.

وتولوا: فعل الشرط.

وجملة: فإنما عليه ما حمل وعليكم ما عملتم: جواب الشرط.

اي لن يخسر الرسول شيئا بتوليكم وتكذيبكم وإنما انتم الخاسرون لان عليكم وزر تكذيبكم.

- واسلوب شرط ثالث هو:

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ وتوضيحه كالتالي:

إن: أداة الشرط.

وتطيعوه: فعل الشرط.

وتهتدوا: جواب الشرط.

اي إن هدايتكم في طاعته ﷺ.

وهو ﷺ ليس عليه سوى البلاغ المبين.

﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾.

وهذه الآية تحمل معنى التهديد للمنافقين والعصاة.

روى ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه(١) قال: أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له: شيعياء، أن قم في بني إسرائيل فإني ساطلق لسانك بوحي، فقام فقال: يا سماء اسمعي ويا أرض أنصتي، فإن الله يريد أن يقضي شأناً ويدبر أمرا هو منفذه، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة، والآجام في الفيضان والأنهار في الصحاري والنعمة في الفقراء، والملك في الرعاة.

ويريد أن يبعث أمياً من الأميين ليس بفظ ولا غليظ ولا صَخّاب في الأسواق، لو يمر على السراج لم يطفئه من سكينته، ولو يمشي على القصب اليابس لم يسمع من تحت قدميه، أبعثه بشيرا ونذيرا لا يقول الخنى، أفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، وأسدده بكل أمر جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل السكينة لباسه، والبر شعاره والتقوى ضميره، والحكمة منطقه، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته والعدل مسيرته، والهدى إمامه، والإسلام ملّته، وأحمد اسمه، أهدي به بعد الضلالة، وأعلّم به من الجهالة، وأرفع به بعد

(١) هو وهب بن منبّه الأنباري الصنعاني الذماري (٣٤ – ١١٤هـ) أبو عبد الله. مؤرخ كثير الإخبار والنقل عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين، ولا سيما الإسرائيليات.
وهو من التابعين رضي الله عنهم، وأصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن، وأمه من حمير، ولد ومات بصنعاء. ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء صنعاء.
ومن أقواله المأثورة عنه قوله: «سمعت اثنين وتسعين كتابا كلها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس وعشرون في أيدي الناس لا يعلمها إلا قليل ووجدت في كلها أن من أضاف إلى نفسه شيئا من المشيئة فقد كفر».
وحبس في كبره وامتحن، وضربه يوسف بن عمر الثقفي حصر ولاة بني أمية القساة حتى مات وهب رحمه الله. وكان يوسف هذا كما وصفه الذهبي: مهيبا جبارا ظلوما.
وقد صحب وهب ابن عباس رضي الله عنهما ولازمه ثلاث عشرة سنة وله كتب منها: قصص الأنبياء وقصص الأخبار، وذكر الملوك المتوّجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأسفارهم ويقال إنه كان من أصل يهودي.

الخمالة، واعرف بعد الفكرة، واكثر به بعد القلة، واغني به بعد العيلة، واجمع به بعد الفرقة، وأؤلف به بين أمم متفرقة وقلوب مختلفة وأهواء مشتتة واستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر موحدين مؤمنين مخلصين، مصدقين بما جاءت به الرسل»[1].

وبعد ما رواه وهب بن منبه على لسان أشعياء، يتبين لنا أن الكتب السابقة قد قررت أن اتباع محمد فيه الهداية والخير، وكأنها تردد: «وإن تطيعوه تهتدوا».

■ والمواقف التربوية العامة في هذه الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يوفقنا الله إليه فيما يلي:

١ - أن النفاق شر كله، وانه صفة لا تليق بإنسان فضلا عن مؤمن يعبد الله وفق ما شرع، وهو صفة تؤكد ان صاحبها جبان لا يستطيع ان يجاهر من حوله بمعتقده، ومن كانت هذه صفته فهو كما وصفه الرسول ﷺ فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر».

ومهما حاول المنافق ان يخفي خصاله هذه وحقيقة شعوره فلن يستطيع، لأن من سنة الله في خلقه ان الإنسان مهما حاول ان يخفي صفة من صفاته ـ طاعة أو معصية ـ فإنها لا بد أن تظهر عليه، أو يظهر بعض دلائلها.

وقد قال ابن منظور: وفي حديث عمر رضي الله عنه: «من تخلق للناس بما

---

(١) ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٠٠ ط الحلبي دون تاريخ.

يعلم الله أنه ليس من نفسه شاقه الله»[1].

وقديما قال الشاعر الحكيم:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة * وإن خالها تخفى على الناس تعلم

● والأصل في المسلم أن يكون ظاهره كباطنه، وما من صفة تسيء إلى صاحبها كصفة النفاق، ويسمى النفاق رياء في بعض الأحيان لأن المرائي، كالمنافق يظهر أنه متصف بالخير والصلاح على خلاف ما هو عليه.

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «... الرياء بأصل الإيمان، وهو أغلظ أبواب الرياء، وصاحبه مخلد في النار وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة، وباطنه مشحون بالتكذيب، ولكنه يرائي بظاهر الإسلام، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

أي في دلالتهم بقوله على ضمائرهم... والآيات فيهم كثيرة.

وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض، وذلك مما يقل في زماننا ـ أي زمان الغزالي، (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)، ولكن يكثر نفاق من ينسلّ عن الدين باطنا فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميْلاً إلى قول الملحدة، أو يعتقد طيّ بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة، أو يعتقد كفرا أو بدعة وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين في النار، وليس وراء هذا الرياء رياء، وحال هؤلاء أشد حالا من الكفار المجاهرين، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر»[2].

٢ – ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة أن الإعراض عن أحكام الإسلام أو

---

(١) ابن منظور: لسان العرب: ١١/٣٧٥ ط مصورة عن الطبعة الأميرية ببولاق.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين: ٣/٢٦١ ط العثمانية القاهرة ١٣٥٢هـ – ١٩٣٣م.

التكذيب بها، أو الإعراض عن سنة النبي ﷺ كفرٌ بواح، يحل دم صاحبه إن كان من المسلمين كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيمن رفض حكم رسول الله ﷺ.

فقد أخرج ابن المنذر بسنده عن قتادة: أنها أنزلت في بشر المنافق دعاه يهودي في خصومة بينهما إلى رسول الله ﷺ ودعا هو اليهودي إلى كعب بن الأشرف ـ كما ذكرنا آنفا ـ ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودي، فلم يرض بشر المنافق بقضائه عليه الصلاة والسلام، وقال: نتحاكم إلى عمر رضي الله عنه، فلما ذهبا إليه قال له اليهودي: قضى لي النبي ﷺ فلم يرض بقضائه فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، فقال مكانكما حتى أخرج إليكما، فدخل رضي الله عنه بيته، وخرج بسيفه فضرب عنق ذلك المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي لمن لم يرض بقضاء الله تعالى ورسوله، فنزلت: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ﴾ الآية»(1).

وذلك الإعراض عن حكم رسول الله ﷺ نفاق كالكفر يحل دم صاحبه.

وقد نفى الله عن المنافقين صفة الإيمان في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا إعلام من الله تعالى بأن جميعهم منتف عنهم الإيمان، لا الفريق المتولي المعرض عن حكم الله ورسوله وحده.

٣ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن الرضا بالحق مطلبٌ إيماني رئيس، وأن الثبات على الحق وعلى مبدأ الحق هو الأصل، وأن رفض الحق، أو التذبذب فيه وتغيير المواقف حَسْب المصالح خلل إيمانيّ خطير لا يليق بمسلم، بل هو من صفات المنافقين.

ولقد وضح ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ

(1) فخر الدين الرازي: التفسير الكبير: ٢٣/١٩٤ مرجع سابق.

مُذْعِنِينَ﴾.

والمنافقون في هذه الصفة ـ صفة تغليب المصلحة الشخصية على الحق ـ يشبهون اليهود في قبولهم حكم رسول الله ﷺ إذا كان في صالحهم، ورفضه إن لم يكن في صالحهم وقد ضربنا على ذلك أكثر من مثال في تفسيرنا لسورة المائدة(١) في الآيات من الحادية والأربعين إلى الآية الخمسين.

إن الإيمان الصحيح يقتضي هذا الثبات على الحق، ولو كان الحق ضد الهوى الذاتي والمصلحة الشخصية، كما يقتضي الصراحة والوضوح، ولا يتلاءم معه نفاق أو رياء.

وإن الإسلام يربي المسلمين على أن يكون باطن المسلم كظاهره، وأن يكون عمل جوارحه تصديقا لمعتقداته وأن تكون هذه الأعمال والأقوال ترجمانا لما في القلوب من إيمان، وأن تكون هذه الأنماط من السلوك التي تعبر عن الإيمان عملا ثابتا راسخا لا تزعزعه أي اعتبارات شخصية، حتى يصبح هذا النمط من السلوك خلقا له وقانوناً يحكم كل أقواله وأعماله.

وهذا فرق ما بين الإيمان والنفاق، أو فرق ما بين الإخلاص لله سبحانه وتعالى ورئاء الناس.

وهنا يمكن أن تثار قضية هامة لها وزنها القيمي والاجتماعي وهي قضية الضرر الذي تلحقه صفة النفاق أو الرياء بالأفراد وبالمجتمع كله، وكيف تهز كيان المجتمع، وتصرفه عما يفيد إلى ما لا يفيد.

ظاهرة النفاق في المجتمعات الحديثة

إن الملاحظ أن النفاق ينتشر في معظم بلدان العالم الثالث أو العالم النامي،

(١) انظر للمؤلف: التربية الإسلامية في سورة المائدة ط دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ القاهرة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

وذلك أن هذا العالم البائس تحكمه «دكتاتوريات» وإن تقنعت «بالديموقراطية» أو أطلقت لها شعارات جوفاء، ونظام الحكم الظالم الذي لا يحترم حقوق الإنسان هو البيئة الصالحة كل الصلاح لترعرع النفاق ورواج سوق المنافقين، ولقد رأيت بعيني في جولاتي في كثير من بلدان العالم الثالث في آسيا وإفريقيا كيف تملأ صور الحاكم المستبد البيوت والشوارع والمصالح الحكومية وكيف تسد الأفق، وكيف تتبارى وسائل الإعلام في خلع جميع صفات الحمد والثناء على الحاكم ، فكل شيء من الإصلاح بتوجيهاته، وكل خلل أو فساد من طغمة تعادي الرئيس وتتحدى إصلاحاته، وكل صحيفة تصدر صفحتها الأولى بأخباره وتزينها بأنواره، وكل أجهزة الإعلام تسخر كل ما فيها لنفاقه، فإذا ما سقط الحاكم في بلد ديست صوره ومزقت بالنعال وسجن حتى الموت أو قتل أو هرب!!!

وأعجب العجب أن منافقي الرئيس السابق هم هم منافقو الذي اغتصب الحكم من بعده، هكذا دون حياء!!! لأن النفاق أصبح فيهم أصيلا.

بل إن الأدهى والأوجع للخلق وللحق أن بعض البلاد يتقلب فيها المنافقون من حزب إلى حزب ما دام الرئيس قد شكل حزبا وأخذ يوزع على قياداته وأعضائه الغنائم والأسلاب أو حقوق المواطنين الضعفاء الذين ترهبهم القسوة فيؤثرون السلامة، إما بالهجرة من البلاد وإما بالسكوت على الذل والهوان وإما - وهذا أسلم الطرق عندهم - بالنفاق والملق والرياء.

إن هذه المجتمعات التي سادها النفاق وكثر فيها المنافقون لن تتقدم خطوة إلى الأمام في سبيل الإصلاح، وكيف تتقدم؟ والتقدم يحتاج إلى حرية رأي وإلى إبداع وإلى حوار وجدال حول الصالح والأصلح؟ وكيف يكون هذا والنفاق سوق رائجة والمنافقون هم الأكثرون؟

إن بعض هذه البلدان تخدع نفسها أو غيرها بالمجالس النيابية.

- وتلك المجالس من علامات الديموقراطية كما يزعمون - ولكنْ ما حدث في

تاريخ مجلس نيابي أن رفض برنامجا! إصلاحيا تقدمت به الحكومة أو الحاكم، وإنما أصبحت وظيفته في ظل مناخ النفاق أن يقبل كل ما يتقدم به الحاكم بل يبحث له عن مبررات!!!

وما أعجب بعض الذين يرون أنفسهم أحزابا معارضة في بعض بلدان هذا العالم الثالث المنكوب بأنظمة حكمه، ما أعجبهم حين يثنون على برامج الحكومة، حتى يجدوا لأنفسهم مقاعد في الانتخابات القادمة، أو يضمنوا لأنفسهم أن يعينهم الرؤساء تعيينا!!!

من أجل هذا النفاق والمنافقين تعيش تلك البلدان النامية في حضيض من العيش لا يليق بكرامة الإنسان، يسكنون القبور، ويشربون المياة الملوثة ويتنفسون الهواء الملوث، ويموت منهم بالجفاف والجوع أعداد كبيرة، هذا يحدث بينما الديمقراطية أو الاشتراكية أو الرأسمالية تقرع الطبول التي تصم الآذان بأن عهود الاستبداد قد ولت وعهود الرخاء يعيش فيها الناس آمنين!!!

إن هذه المجتمعات بهذه النظم المستبدة التي تصنع النفاق تهبط في درك من الديون والتبعية والضعف والضياع، وكل ذلك بسبب النفاق والمنافقين.

لا أذكّر الحكام المستبدين هنا بأمثلتنا الشامخة ونماذجنا الباذخة الذرا في العدل والاستماع إلى الرأي الآخر من أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأضرابهما، فإن ذلك قد يوصف بأنه رجعية أو ظلامية أو غيبية، وبغض النظر عن أي وصف يوصف به كلام رجل جاوز الستين من عمره في حركة وعمل وتجول وتتبع لأحوال هذا العالم النامي أو البائس، بغض النظر عن ذلك، فإني أرى أن مطالبة الحكام المستبدين باتخاذ عمر وأبي بكر نماذج تحتذى دون أن ينسلخوا من جلودهم وأن تزهق أرواحهم قبل أن يستطيعوا.

ولكني أقول لهم: أفيقوا على ما يحيط بكم من نفاق واعلموا أن سكوتكم على أولئك المنافقين فساد للبلاد التي تحكمون بل فساد لكم في الحاضر والمستقبل قريبه وبعيده.

من أجل هذا كله جرّم الإسلام المنافقين وأوجب قتالهم فقال سبحانه وتعالى لرسوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣] وجعل عاقبتهم في الآخرة أسوأ عاقبة ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ [النساء: ١٤٥].

إن الإسلام حرّم النفاق لما يحدثه في نفس المنافق وفي من ينافَق وفي قيم المجتمع وإنتاجه من أضرار، ومن المسلمات في الإسلام أن الضرر والإضرار حرام.

روى الإمام أحمد بسنده عن عبادة بن الصامت[١] رضي الله عنه قال: «وقضى رسول الله أن لا ضرر ولا ضرار».

٤ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن مرض القلب أخطر من مرض البدن، لأن مرض البدن علة ظاهرة لا صلة لها بالإيمان، ومرض القلب علة باطنة تنفي الإيمان نفيا إذا كان المقصود بها النفاق.

وإذا كان مرض العين يحول بين الإنسان وبين الإبصار، فقد يستعيض عنه بإحدى الحواس الأخرى، وهكذا سائر أمراض البدن، فإن مرض القلب بمعناه الواسع ـ الذي يشمل النفاق والجهل والرذائل الخلقية ـ يحول بين الإنسان وبين ما خلق الله القلب من أجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله وعبادته والاستجابة لأمره والانتهاء عما نهى عنه، بل يحول بين الإنسان وبين التلقي عن وحيه سبحانه وتعالى، ومعنى ذلك أن مرض القلب يحول بين الإنسان وبين كل هذا الخير وعلى

---

(١) هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد (٣٨ق.هـ – ٣٤هـ). صحابي جليل أحد النقباء ليلة العقبة شهد بدرا فما بعدها، وروى عن النبي ﷺ ١٨١ حديثا. وقد آخى الرسول بينه وبين مرثد بن أبي مرثد، وهو أحد من جمع القرآن في زمن النبي ﷺ كما ذكر ذلك البخاري في تاريخه الصغير، وأرسله عمر رضي الله عنه إلى فلسطين ليعلم أهلها القرآن، وهو أول من تولى قضاء فلسطين، ومات بها أو بالرملة ودفن في بيت المقدس في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

راسه معرفة الله وحبه والإيمان به والتلقي عنه وحده سبحانه وتعالى.

ومن أجل هذا كان مرض القلب من اخطر أمراض الإنسان واخبثها واشدها فتكاً بالإيمان والتوحيد والعبادة والخلق الحسن، وإذا كان القلب يعرف كل الاشياء ولا يعرف الله فكانه ما عرف شيئا، لان معرفة الله هي أساس المعارف كلها، ومن عرف الله احبه واقبل على عبادته.

ومن علامات محبة الله ان يؤثر الإنسان ما عند الله على ما عند الناس، وعلى اعراض الحياة الدنيا كلها، ومن لم يكن كذلك فقد غوى وضاع، فقد قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

إن الآية الكريمة تحمل تهديدا عنيفا لكل من آثر أهله وقرابته وعشيرته وماله وتجارته ومسكنه الطيب، ان ينتظر ماذا يحل به من عقاب الله ونكاله.

ولن يؤثر الإنسان هذه الأعراض إلا إن كان في قلبه مرض ومن كان في قلبه مرض فليبادر إلى علاجه.

فما علاج أمراض القلوب؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضي ان نتحدث عن أمرين:

أحدهما: ما هي أمراض القلوب؟

والآخر: كيف تعالج أمراض القلوب؟

فنقول وبالله التوفيق.

أمراض القلوب

● أما أمراض القلوب فإنها جميعا تحدث بوسوسة الشيطان وفعله، حيث يتسلط الشيطان على القلب فيريه الباطل حقا، والحق باطلا، ويزين له المعاصي ويبغض إليه الطاعات، ويغريه بالرذائل ويباعد بينه وبين الفضائل.

فإذا فعل الشيطان ذلك بقلب الإنسان فقد أصبح مريضا.

وأهم الأمراض التي يصاب بها القلب ما نشير إلى بعضها فيما يلي:

١ – الكِبْر: وهو حالة للقلب بحيث يعجب الإنسان بنفسه ويرى أنه أكبر من غيره وهو منهي عنه بنصوص إسلامية كثيرة.

٢ – العُجْب: وهو الزهو بالنفس أو بالعمل، وهو من أسباب فساد العمل وإحباطه.

٣ – والبَطَر: وهو سوء احتمال النعمة، وعدم القيام بواجبها، وهو صفة توجب عقاب الله تعالى.

٤ – والغُرور: وهو الانخداع عن الحقيقة بكل ما يغير الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان.

٥ – والحقد: وهو طيّ القلب على العداوة وتحين الفرص لها، والأصل في المسلم أن يكون سمحا عفوا.

٦ – والحسد: وهو تمني زوال النعمة عن صاحبها، وقد حذر الله منه وأوعد بالعقاب عليه.

٧ – والكراهية: وهي أصلا كراهية ما فيه ضرر وأذى للإنسان من الأقوال والأعمال، ولكن الكراهية المذمومة هنا هي كراهية الناس بإضمار الشر لهم. وهي منهي عنها شرعا.

٨ – والانتقام: وهو الرغبة في إيذاء الناس، وعقوبتهم على ما فعلوا والأصل

في المسلم التسامح والعفو.

٩ – والسخرية: وهي الاستهزاء بالناس، وهي منهي عنها شرعا في آية قرآنية كريمة نهيا مباشرا ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ...﴾ الآية [الحجرات: ١١].

١٠ – وظن السوء: وذلك أن الظن عموما منهي عنه، فإذا كان ظن سوء بالناس فالنهي عنه أشد.

١١ – والخيانة: وهي فقد الأمانة أو نقصها، وهي من أسوأ أمراض القلوب.

١٢ – والأَثَرة: وهي تفضيل الإنسان نفسه على غيره من الناس وهي مرض في القلب ذميم ينفي الإنصاف والتواضع.

١٣ – والمكر: وهو صرف الغير عما يقصده من خير بحيلة، وهو منع للخير، وعدوان على الغير وهو مرض في القلب باستثناء ان يكون مكرا محمودا يؤدي إلى الخير.

١٤ – والخبث: وهو إضمار القلب على الشر وعلى ما يكره من رداءة وخساسة، وهو حرام.

١٥ – والفضول: وهو انشغال الإنسان بما لا يعنيه، أو تدخله فيما لا يعنيه وهو منهي عنه.

١٦ – والرياء: وهو القول او العمل الذي يمارسه الإنسان من أجل أن يحصل على رضا الناس أو إعجابهم، وهو مما نهى الله عنه.

١٧ – النفاق: وهو إظهار الخير وإضمار الشر لخداع الناس.

وهو من اخطر امراض القلوب واخبثها واجلبها لعقاب الله تعالى.

١٨ – والبخل: وهو إمساك ما يملكه الإنسان عن الواجبات أو عما لا يجوز الإمساك عنه، وهو مرض ينم عن غفلة وضلال.

١٩ – والجبن: وهو ضعف القلب عن القيام بما يجب أن يقوم به ويقوى عليه.

٢٠ - والغضب: وهو ثوران دم القلب رغبة في الشر أو الانتقام، وهو مرض خبيث إذا كان بقلب أفسده وأفسد عمل الإنسان كله، وهو منهي عنه بأحاديث نبوية كثيرة.

٢١ - وحب الشهوات: وهو نزوع القلب إلى ما يريده دون ضابط من شرع أو عقل.

٢٢ - والبهتان: وهو نوع من الكذب الوقح يبهت أي يدهش ويحير لفظاعته ومخالفته للحقيقة.

وما لا أحصي من أمراض للقلب، نستطيع أن نجملها كلها في قاعدة واحدة هي: كل ما أضمره القلب من صفات منع الشرع من الاتصاف بها، فهو مرض بالقلب يجب علاجه، حتى يستقيم القلب فتستقيم الجوارح على شرع الله.

● وأما علاج هذه الأمراض - وهي جميعا من وسوسة الشيطان وإغرائه وتزيينه وهمزاته، فهي في كلمة وجيزة: «محاربة الشيطان واتخاذه عدواً».

وقد أمرنا الله تبارك وتعالى بمعاداة الشيطان في قوله تعالى:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

[فاطر: ٦]

قال المفسرون: أي فعادوه ولا تطيعوه، ويدلكم على عداوته إخراجه أباكم من الجنة، وضمانه إضلالكم في قوله لربه سبحانه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ...﴾ [النساء: ١١٩] وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧] فأخبرنا جل وعز أن الشيطان لنا عدو مبين، واقتص علينا قصته، وما فعل بأبينا آدم ﷺ، وكيف انتدب لعداوتنا وغرورنا من قبل

وجودنا ومن بعده، ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا»(١).

هذا مجمل العلاج لأمراض القلوب وهو معاداة الشيطان عدونا الأول والأخير.

أما مفردات العلاج في أمراض القلوب فاكثر من أن تحصى، غير أننا نوضح ذلك بعض التوضيح فنقول:

إن كل مرض من الأمراض التي ذكرنا آنفا يعالج باقتلاعه من القلب وإحلال بديله الذي يقبله الله وفي الوقت نفسه يغيظ الشيطان وعلى سبيل المثال(٢):

- يقتلع مرض الكبر من القلب ويحل محله الإنصاف والتواضع.
- ويقتلع مرض البطر من القلب، ويحل محله معرفة قيمة النعمة وأداء واجبها وهو الشكر للمنعم سبحانه وتعالى.
- ويقتلع مرض الغُرور من القلب، ويُحارَبُ الغَرور وهو الشيطان الذي يوسوس بالشهوات وأنواع الباطل.
- ويقتلع مرض الحقد، ويحل محله حب الناس والتعامل معهم بالأخوة والمودة والتعاون على البر والتقوى.
- ويقتلع مرض الحسد من القلب ويحل محله صفة الغبطة وهي الرضا عن عمل الخير، وتمني القيام بمثلها، وتكون الغبطة في المال والعلم على نحو ما هو واضح في الحديث النبوي الشريف.
- وتقتلع الكراهية والانتقام والسخرية من الناس، وسوء الظن بهم وخيانتهم، ليحل محلها حب الناس والصفح عن مسيئهم واحترامهم وحسن الظن بهم والأمانة

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٦/٥٤٠٥ مرجع سابق.

(٢) هذه الأمثلة التي أذكر تقريبية، لأن هذا الموضوع يحتاج إلى كتاب مستقل كبير.

بكل معنى من معانيها.

● وتقتلع أمراض الأثَرة والمكر والخبث والفضول، ليحل محلها حسن تقدير الناس ومعاونتهم على ترك الشر وفعل الخير، والترفع عن الدنايا والخسائس، ودخول الإنسان فيما يعنيه فقط.

● ويقتلع مرض الرياء والنفاق والجبن والبخل، ليحل محله الإخلاص لله، وترك المداهنة والخداع والغش، والكرم والشجاعة، وهكذا.

● ويقتلع من القلب مرض الغضب، ويحل محله الرفق والأناة والصبر والحلم وكل تلك فضائل دعا إليها الإسلام وحبب فيها.

● ويقتلع مرض الإسراف في الشهوات ويحل محله ضبط هذه الشهوات فيما أحل الله وحده.

● ويقتلع من القلب مرض البهتان وتحل محله صفة حسن اختيار الكلمات ورفض إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.

وعلى وجه الإجمال فإن أمراض القلوب رذائل زينها الشيطان للغافلين من الناس، وعلاجها أن تقتلع وتحل محلها الفضائل التي جاء بها الإسلام، وبإيجاز شديد: إن علاج أمراض القلوب هي بإيثار ما عند الله على ما عند الناس.

٥ – ويتعلم المسلمون من الآيات أن يتجنبوا الشك والارتياب في كل ما جاء من عند الله أو اشتملت عليه سنة رسوله ﷺ، يتجنبوا الشك والارتياب فيه أو في أنه الحل والعلاج لكل مشكلات الحياة أو في أنه قادر على أن يصلح للناس أمور معاشهم ومعادهم.

إن أدنى شك في ذلك كله يزعزع الإيمان ويزلزل العقيدة، ويصيب إسلام المسلم بالضعف والهزال، ويفضي في النهاية إلى غضب الله سبحانه وتعالى.

والشك نوع من الجهل، ولكنه أخص منه بمعنى أن كل شك جهل، وليس كل

جهل شكا، ومع الشرك ينتفي الفهم والعلم وتحل في النفس صنوف الحيرة والقلق والاضطراب.

ولا يرتاب في دين الله ولا منهجه ولا في الحق الذي جاء من عنده إلا الكافرون، ومهما كثر عدد المرتابين ومهما كان لهم من النفوذ والجاه والسلطان فإن هذا لا ينبغي أن يخدع أحدا من المسلمين فإنهم في الغالب يكونون غثاء كغثاء السيل سريعا ما ينجرف فيلقى به بعيدا ـ وانظر أحوال ما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي وماذا آل إليه أمر كافريه وملحديه ـ وانتظر ما سيحدث لما يسمى بالنظام العالمي الجديد!!!

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤].

وفي هذه الآيات التي نتعلم منها، نجد المنافقين قد شكوا وارتابوا في مجيء الحكم من عند الله أصلا، وشكوا وارتابوا في صلاحية الحكم وعدالته وقدرته على توصيل الحقوق إلى أهلها، وكل ذلك من علامات النفاق الذي هو أشد من الكفر.

إن هذا درس عظيم للمسلمين على مر العصور والأزمات يتعلمون منه وجوب التسليم لكل ما جاء من عند الله وما جاء به محمد ﷺ من منهج ونظام وأخلاق وآداب دون شك أو ارتياب.

التسليم لكل ما جاء من عند الله

ولو سلم المسلمون بهذا لما عانوا ما يعانونه اليوم من تشتت وضياع وضعف وتبعية، لان ذلك التراجع الحضاري الذي تعيشه الأمة الإسلامية اليوم ليس له من سبب إلا ترك منهج الله والشك في قدرته على الإصلاح والنهوض. والارتماء في أحضان مناهج وضعية لا تعترف لهذا الكون بخالق مدبِّر حكيم.

ولقد كان لحملة التشكيك والارتياب في منهج الله للحياة، صولات وجولات

وجنود وقيادات....

ولن نستطيع أن ننسى في مجال هذه الحملة تيارات ومذاهب بذلت في ذلك جهودا ضخمة، جاء في مقدمتها جيش من المستشرقين من أهل الغرب أو الشرق، شوهوا منهج الله وأساءوا إليه ودسُّوا وأثاروا من حوله الافتراءات والأباطيل.

ولن ننسى الجهود المستميتة التي قام بها الاستعمار في حملة التشكيك في كل ما هو إسلامي ليصرف المسلمين عن منهجهم فيتمكن هو من احتلال بلادهم وتشويه تاريخهم وتراثهم. وإبعادهم تماماً عن دينهم ومنهجهم.

وكذلك كان شأن الصهيونية العنصرية وما زال، تشكيك في كل ما جاء من عند الله، وتشويه للمنهج وافتراءات عليه وعلى قدرته على حل مشكلات الناس.

بل لقد دخلت الصهيونية مرحلة أكبر من التشكيك والتشويه، وهي مرحلة الحرب والمواجهة العسكرية واحتلال فلسطين بقوة عصابات أسهم العالم كله في تسليحها ومدها بكل أنواع العون: الرجال والمال والآلة العسكرية.

ولم يكن خافيا على أحد من المستبصرين أن اليهود تسلموا فلسطين من انجلترا التي كانت تحكم فلسطين بعد ضرب دولة الخلافة العثمانية وإسقاطها، وتعطيل منهج الإسلام فيها.

ولا يزال اليهود أو الصهاينة حتى اليوم يمارسون غرس الشكوك والريب في نفس المسلمين حول دينهم ومنهجهم ونظامهم، ولا يزالوون يجدون هوى في نفوس بعض المسلمين حكاما ومحكومين ووزراء وكبراء، مما جعل العالم الإسلامي يعيش أسوأ أيامه في الفرقة والحيرة والضياع.

وإن ما تزينه الصهيونية اليوم من سوق «شرق أوسطية» مدخل في غاية الخطر لتقوية حملة التشكيك في الإسلام، إنها مدخل يؤدي في النهاية إلى مزيد من التشكيك في منهج الإسلام والارتياب في كل ما هو إسلامي، وإن أخذ شكل سوق اقتصادية تتبادل فيها المنافع، ولا يجد الغافلون فيها أكثر من كونها سوقا قد

تعود عليهم بالرواج!!!

ومن وراء الصهاينة في هذا السوق الغرب كله يؤيد ويشجع ويسوق الحكم والمأثورات على ألسنة الخبراء الغربيين الذين يتنكرون في زي الأصدقاء، أو يلبسون مسوح صناديق النقد والتنمية، والغافلون لا يفيقون، وإنما يؤيدون السوق ويكتبون في أهميتها ومزاياها ما يؤكد غفلتهم إن أحسن بهم الظن وما يؤكد رغبتهم في البعد عن دينهم والشك في منهجه ونظامه إن كان لا بد من إنصافهم فيما يتوجهون إليه.

وما يجوز لنا أن ننسى النظام العالمي الجديد الذي ولد بعد حرب عاصفة الصحراء، وكيف فرغ هذا النظام من كل مشكلاته ولم يبق أمامه إلا الصحوة الإسلامية والتطرف الإسلامي وحركات الإحياء والتجديد في مختلف أقطار العالم الإسلامي، لقد صرح أكثر من رئيس دولة غربية من أعمدة النظام العالمي الجديد بأنه لم يعد أمامهم ـ بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ـ إلا أن يوجهوا جهودهم وضرباتهم للإسلام السياسي ـ كما يقولون ـ.

ولقد آتى هذا النظام الجديد ثماره، فازداد التضييق على الإسلاميين في معظم بلدان العالم الإسلامي، ورفضت فكرة قبول بعض الإسلاميين للعبة الديمقراطية فألغيت الانتخابات التي أدت بهم إلى المجالس النيابية ألغيت علنا ودون خجل أو حياء من التنكر لمبادئ يزعمون احترامها.

كما حيل بين بعض الإسلاميين الذين أطلقوا عليهم كلمة معتدلين !!! كان هناك إسلاميين غير معتدلين ـ وبين الوصول إلى المجالس النيابية بتزوير الانتخابات حينا واعتقال المرشحين حينا، والقبض على أعوانهم في لجان الانتخابات، ويزعمون أنهم ديموقراطيون إذ يرون الديموقراطية حرمانا للإسلاميين من أبسط حقوق المواطنة!!!

٦ ــ ويتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن يثقوا في حب الله سبحانه لعباده، ورعايته لهم وتشريعاته الحانية عليهم لتنقذهم من كل ما يسيء إليهم في

حاضرهم أو مستقبلهم، ولتحميهم من أي خطر يحدق بهم، ولتسود حياتهم الاجتماعية أحكام وأخلاق وآداب تلزمهم جميعا بأداء واجبهم وممارسة حقوقهم، ليحيوا بذلك حياة إنسانية كريمة تليق بتكريم الله تعالى للإنسان.

إن الذين يخَوِّفون بعض غافلي المسلمين من تطبيق منهج الله على عباده، ويروعونهم بقطع يد السارق أو جلد الزاني أو رجمه إنما هم أحفاد المنافقين السابقين الذين قال الله تعالى فيهم في هذه الآيات: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾.

إنهم يخوفونهم من جور هذه الأحكام على المجرمين!!! فما أعجب ما يقولون وما أبعده عن الحق والصواب!!!

إن تعطيل حدود الله هو الذي زعزع الأمن وضيع الأمان ومكّن للجريمة والمجرمين فأصبح الناس خائفين مروعين.

إن هذه الآية الكريمة تستنكر على المنافقين أن يقوم بأنفسهم خوف من أن تكون أحكام الله جائرة عليهم أو لا تحقق العدل والأمن لهم في حاضرهم ومستقبلهم.

الثقة في حب الله للناس..

ومن المسلَّم به لدى عقلاء الناس فضلا عن المؤمنين من الناس أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان وكرمه وفضله على كثير مما خلق ومنحه من النعم ما لا يعد ولا يحصى، لا يمكن أن يشرع له نظاما وأحكاما تجور عليه في شيء من أمور معاشه أو معاده، أو تتضمن أدنى قدر من الظلم لأحد من عباده حتى ولو كانوا مشركين أو كافرين أو منافقين أو من عصاة المؤمنين.

وكيف يخافون أن يُخوِّفون بأن يجور الله عليه ورسوله، وجوهر الشريعة التي جاء بها خاتم الأنبياء ﷺ هو العدل؟

كيف يخافون جور الله عليهم، والله سبحانه له رحمة وسعت كل شيء؟

ورحمته دائما تسبق غضبه؟ وما عذب احدا ولا هو بمعذب احداً من الناس حتى يبعث إليه رسولا بمنهج يأمره وينهاه، فإذا خالف المنهج استحق العقاب؟

وكيف يخافون جور الله، والله سبحانه قال عن نفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وقال جل شانه: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقال جل وعلا: ﴿...فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ [الحجرات: ٩].

وروى البيهقي[1] في سننه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتى يوم القيامة مغلولا، حتى يفكّه العدل أبو يوبقه الجور».

وروى الطبراني في الأوسط بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وثلاث مهلكات: هوًى متّبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه».

ومن أجل ذلك سمى الله تعالى أولئك الذين يخافون جور الله عليهم أو جور رسوله ﷺ ظالمين، في قوله سبحانه في هذه الآية الكريمة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

---

(١) هو أحمد بن الحسن بن علي أبو بكر (٣٨٤ - ٤٥٨هـ) من أئمة الحديث نشأ في بيهق بنيسابور ورحل إلى بغداد والكوفة ومكة المكرمة وعاد إلى نيسابور وبها توفي له فضل كبير على مذهب الإمام الشافعي لنصرته، ومن مؤلفاته: السنن الكبرى، والسنن الصغرى، والمعارف، والأسماء والصفات، ودلائل النبوة - والترغيب والترهيب والمبسوط، ويقال إن مؤلفاته زادت على ألف جزء.

٧ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات انهم إذا دعوا إلى حكم كتاب الله وحكم رسوله ﷺ انْ ينقادوا إلى هذه الاحكام، ولسانهم يردد: سمعنا واطعنا، لان ذلك هو أدب المؤمنين مع الله ورسوله.

روى الإمام مسلم بسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزل قول الله تعالى ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] جاء ناس من الصحابة إلى رسول الله ﷺ فقالوا: كلفنا ما لا نطيق، إن احدنا ليحدث نفسه بما لا يحب ان يثبت في قلبه ثم يحاسب بذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: لعلكم تقولون كما قالت اليهود سمعنا وعصينا، قولوا: سمعنا وأطعنا، فقالوا سمعنا واطعنا، فانزل الله الفرج بعد سنة بقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. [البقرة: ٢٨٦].

ذلك أدب المؤمنين مع الله ورسوله السمع والطاعة، وذاك الأدب مبعثه الثقة في الله ورسوله وما جاء منهما من احكام.

مع الاطمئنان المطلق إلى ان كل ما جاء من عند الله ورسوله هو خير لهم في كل حين، وفي كل حال، فلو كانوا كذلك، لكان ذلك من علامات فلاحهم وفوزهم بما يصلحهم، كما جاء ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ اي المفلحون بهذا السمع وتلك الطاعة، لان الله تعالى هو الذي يدبر امرهم وينظم شئونهم ويشرع لهم ما يحقق لهم خير الدنيا والآخرة.

٨ – ويتعلم المسلمون والناس جميعا ان طاعة الله ورسوله، وخشية الله وتقواه هي الفوز:

والفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة.

تلك حقيقة يقررها القرآن الكريم، وهي منطقية على كل أحد بشرط ان تحقق فيه الصفات الثلاثة التي جاءت في الآية الكريمة وهي:

● طاعة الله ورسوله في كل أمر أمر به من الاحكام، أو الطاعة في الفرائض والنوافل - كما قال ذلك ابن عباس رضي الله عنهما.

● وخشية الله فيما مضى من ذنوبه.

● وتقوى الله فيما يستقبل من أيامه.

فإنه بهذه الصفات الثلاثة هو الفائز الظافر بالخير مع حصول السلامة.

إن ذلك هو أدب المسلم مع ربه، وهو أن يصون الإنسان قلبه عن الشك والارتياب ويصون جوارحه عن المعاصي، ويصون عقله عن الاشتطاط والجنوح، وبذلك يحفظ نفسه ويحفظ حدود ما أنزل الله على رسوله.

٩ – ويتعلم المسلمون وغيرهم من الآيات الكريمة أن المنافقين وإن أقسموا أغلظ الأيمان على الطاعة فهم غير صادقين ولا أمناء ولا أوفياء ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وقد شرحنا معنى الآية فيما سبق، ونتعلم منها أن لا عهد ولا أمان لمنافق مهما أغلظ من الأيمان إذ النفاق والكذب صنوان.

إن المنافقين في المجتمع وإن كانوا يظهرون خلاف ما يبطنون، إلا أن أعمالهم ومواقفهم قد تكشف نواياها وتعري ما يضمرون، وليس المجتمع المسلم بحاجة إلى أن يصنف الناس إلى منافقين وغير منافقين، وإنما للمجتمع حاسته التي يستشعر بها أنواع الناس من خلال مواقفهم. ولهم من الوحي ما يمكنهم من معرفة المنافق، وفرزه عن غيره، كما جاء في الحديث النبوي الشريف من علامات على النفاق ككذب الحديث وخلف الوعد وخيانة الأمانة والفجور في الخصومة، فإذا تبين للمسلمين هذه العلامات أو بعضها في بعض الناس، فإن المطلوب هو الحذر منهم وعدم الثقة فيهم. وليس المطلوب أن نعلمهم بأنهم منافقون، لأنا لا نملك الدّليل القاطع على نفاق المنافقين، وإنما هي مجرد علامات ودلائل، وماذا يجدي على المجتمع المسلم أن

يصنف المنافقين ويعزلهم؟

إن النتيجة المتوقعة هي أنهم يزدادون كيدا للإسلام والمسلمين ويزدادون قدرة على إخفاء نواياهم بما يموهون به من أقوال أو أعمال.

إنه مجرد الحذر... فمن يدري لعل أحدهم أن يعود إلى الحق وأن يندم على ما فعل، فيعود إلى صفوف المخلصين!!!

والقاعدة الأساسية في التعامل مع الناس كما علمنا ذلك رسولنا ﷺ: أن لنا الظاهر والله يتولى السرائر، وأننا لا نستطيع أن نشق قلب أحد لنعرف ما بداخله.

إنه ليس للمجتمع المسلم بالنسبة لمن ظهرت عليه علامات النفاق أكثر من الحذر منه.

١٠ – ويتعلم المسلمون من هذه الآيات أن الأصل هو طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ وأن من أعرض عن هذه الطاعة فإنه لا يضر الله ورسوله في شيء وإنما يضر نفسه، ويحمل عليها من الأوزار بالمعصية ما لا طاقة لها به.

إن العاصي لا يستطيع أن يضر الله شيئا بمعصيته، فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وروى الإمام مسلم بسنده عن أبي ذر رضي الله عنه: «... يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرّي فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني...».

والعاصي لا يستطيع أن يضر رسول الله ﷺ في شيء، فالله تبارك وتعالى قال في هذه الآية عن الرسول: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾.

ولا يستطيع العاصي بمعصيته أن يضر الحق نفسه في شيء لأن الله سبحانه أراد أن يحق الحق ويبطل الباطل، فقال تعالى:

﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٧]،

وقال جل شانه: ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الأنفال: ٨]

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩].

وكيف يضرون الحق، وقد روى أبو داود بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال.

وروى الإمام مسلم بسنده عن ثوبان[1] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ولا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك».

وبعد: فإن الطائع ينفع بطاعته نفسه، والعاصي المخالف لا يستطيع أن يضر الله ولا رسوله، ولا الحق نفسه، وإنما يضر العاصي بنفسه أو بغيره من الناس فيعاقب على هذا وذاك.

■ والمواقف التربوية في مجال الدعوة والحركة في الآيات الكريمة كثيرة نذكر منها ما يلي:

١ – أن النفاق ظاهرة إنسانية اجتماعية مرضية لها من الأسباب الخلقية والعقلية والاجتماعية ما يؤدي إليها، وأن مجتمعا ما قلما يخلو من النفاق والمنافقين.

وإن الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية قد يجدون في المدعوين عددا من المنافقين ممن هم مصابون بهذا المرض الاجتماعي الخطير، وإن على الدعاة

---

(١) هو ثوبان بن بجدد - وقيل جحدد - أبو عبد الله (... – ٥٤هـ) أصله من أهل السراة - بين مكة واليمن - اشتراه رسول الله ﷺ ثم أعتقه، فهو مولى رسول الله ﷺ، ولم يزل يخدم رسول الله إلى أن توفي، فخرج ثوبان إلى الشام فنزل الرملة في فلسطين ثم انتقل إلى حمص فابتنى فيها دارا وتوفي بحمص. فله في كتب السنة ١٢٨ حديثا نبويا شريفا.

ممن هم مصابون بهذا المرض الاجتماعي الخطير، وإن على الدعاة والحركيين ان يستعملوا الحكمة في التعامل مع هؤلاء الناس لانهم مرضى القلوب، وهم بحاجة إلى العلاج أكثر مما هم بحاجة إلى التاديب أو العقاب.

وهنا سؤالان كبيران هما:

– كيف يتعرف الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية على هؤلاء المنافقين؟

– وكيف يتعاملون معهم وفق احكام الشريعة الإسلامية واخلاقها؟

● كيف يتعرف الدعاة على المنافقين؟

● أما الإجابة على هذا السؤال فهي كما قال العلماء:

● اتفق علماء المسلمين على ان النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر، وإذا كان في مجال الاعمال فهو معصية.

فقد روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع مَنْ كُنّ فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

قال بعض العلماء في شرحه: إنما ذلك لمن يحدث بحديث يعلم أنه كذب، ويعهد عهداً لا يعتقد الوفاء به، وينتظر الأمانة للخيانة فيها.

وقالت طائفة من العلماء: ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله ﷺ، وتعلق هؤلاء العلماء في تفسيرهم هذا بما رواه مقاتل بن حيّان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهم، قالا: اتينا رسول الله ﷺ في أناس من أصحابنا فقلنا يا رسول الله، إنك قلت: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان، ومن كانت فيه خصلة منهن ففيه ثلث النفاق» فظننا أننا لم نسلم منهن أو من بعضهن، ولم يسلم منهن كثير من الناس، قال: فضحك رسول الله ﷺ وقال: ما لكم ولهن،

إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله في كتابه، أما قولي إذا حدث كذب: فذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] افأنتم كذلك؟ فقلنا: لا، قال لا عليكم، أنتم من ذلك براء.

وأما قولي: إذا وعد اخلف، فذلك فيما أنزل الله عليّ:

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٧] أفأنتم كذلك؟ فقلنا: لا، والله لو عاهدنا الله على شيء أوفينا به، قال: لا عليكم أنتم من ذلك براء».

وأما قولي: وإذا اؤتمن خان، فذلك فيما أنزل الله عليّ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الاحزاب: ٧٢ - ٧٣]، فكل إنسان مؤتمن على دينه، فالمؤمن يغتسل من الجنابة في السر والعلانية، والمنافق لا يفعل ذلك إلا في العلانية - أفأنتم كذلك؟ قلنا: لا، قال: لا عليكم أنتم من ذلك براء»[1].

وإلى هذا الشرح اتجه كثير من التابعين والأئمة.

وقالت: طائفة من العلماء: هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال.

ويظهر من مذهب الإمام البخاري وغيره من العلماء، أنّ مَنْ اتصف بهذه الخلال الذميمة فهو منافق إلى يوم القيامة.

---

(١) القرطبي: الجامع لاحكام القرآن: ٨/٢١٣ - ٢١٤ مرجع سابق.

وقال ابن العربي[١]: والذي عندي أنه لو غلبتْ عليه المعاصي وما كان بها كافرا ما لم يؤثّر ذلك في الاعتقاد.

وقال الحسن البصري:

النفاق نفاقان: نفاق الكذب، ونفاق العمل، فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله ﷺ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة.

وروي عن الحسن البصري أنه روي له حديث: أربع من كن فيه كان منافقا خالصا... الحديث، فقال: إن بني يعقوب حدثوا فكذبوا ووعدوا فأخلفوا، وائتمنوا فخانوا، وإنما هذا القول من النبي ﷺ على سبيل الإنذار للمسلمين، والتحذير لهم أن يعتادوا هذه الخصال من غير اختيار واعتياد أنه منافق»[٢].

هكذا ينبغي أن تعرف خصال المنافقين والله أعلم.

– وأما الإجابة على السؤال الثاني وهو:

● كيف يتعامل الدعاة مع المنافقين؟

فيما قدّمنا من الأحاديث النبوية وشرح العلماء لها يتبين لنا أن المنافق من أهل المعصية إذا كان لا يتعمد النفاق، فإن تعمده فهو من أهل الكفر.

ومعاملة المسلمين لأهل المعاصي وأهل الكفر يمكن أن نلخصها في الكلمات الوجيزة التالية:

● أما أهل المعصية: فإن الدعاة إلى الله يحاولون تنفيرهم من المعاصي، وتحبيبهم في الطاعات، وطريقهم إلى ذلك الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والدعوة الفردية والحلقة الخاصة فضلا عن الدعوة العامة لمن أتيحت له الدعوة العامة في خطبة في المسجد أو درس فيه، أو محاضرة عامة، مع حرص الدعاة على أن

(١) هو أبو بكر بن العربي تقدمت ترجمته في هذا الكتاب.
(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: ٨/٢١٤ مرجع سابق.

يحببوهم في الطاعة بتحين كل الفرص التي تؤدي إلى ذلك، نظريا وعمليا، ومهما كانت التضحيات بالوقت أو الجهد والمال، فهذا واجب الدعاة إلى الله.

ومهما أنفق الدعاة في ذلك من وقت أو جهد أو مال فإن الله يخلفه وهو خير الرازقين، وحسب الداعية أجرا أن يتسبب في نقل مسلم من النفاق إلى الإخلاص.

ومعنى ذلك أنه ليس للدعاة أن ينفضوا أيديهم من التعامل مع المنافقين أو ييأسوا من نقلهم عما هم فيه إلى ما يرضي الله ورسوله ﷺ (١).

إن على الدعاة أن يتذكروا دائما أن عملهم هو امتداد لعلم الرسول ﷺ، وقد كان المنافقون يسعون أمامه وقد كشف الله له شرهم، ومع ذلك ما توقف عن دعوتهم ونصيحتهم وتحبيبهم في الإيمان والإخلاص والتخلي عن كل ما يغضب الله تبارك وتعالى وهو ﷺ الأسوة الحسنة في كل ما كان يقول أو يعمل.

● وأما أهل الكفر والعناد والإصرار على الباطل، فلهم من الدعاة معاملة أخرى نلخصها في كلمات أيضا كما يلي:

أولا: دعوتهم إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة فلعل الله أن يهديهم على أيديهم فيكون للدعاة خيرا من حمر النَّعَم.

ثانيا: الجدال بالتي هي أحسن، حتى يتبين لهم الحق، فإن لم يجدوا لديهم استجابة، لم ييأس الدعاة وإنما عليهم أن يواصلوا العمل، ويلتمسوا الأسباب دون ملل أو يأس، محتسبين عند الله هذا الجهد وهذا العناء.

ثالثا: إذا أصبح الكفار عقبات في طريق الدعوة وقاوموا وتحدوا فإن مقاومتهم واجبة.

وعلى الدولة المسلمة أن تأخذ منهم موقفا يحول بينهم وبين اعتراض قافلة الدعوة وموكب الدعاة.

---

(١) للمتوسع في ذلك أنظر لنا: فقه الدعوة إلى الله نشر دار الوفاء ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

ومن آداب التعامل مع العصاة من أهل النفاق ما نسوقه فيما يلي:

● من فقه الدعوة إلى الله عدم تركهم مهما كانت معاصيهم، فربما كانوا من أعوان الدعوة بعد قليل من الزمان.

● ولا يجوز أن يعيِّر أحد منهم بمعصية، فقد روى الترمذي بسنده عن معاذ ابن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله».

● ولا يجوز أن يظهر أحد الشماتة فيه لمعصيته، فقد روى الترمذي أيضا بسنده عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه[1].

قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك».

٢ – ويتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من الآيات الكريمة أن أمر المؤمنين يجب أن يكون طاعة لله ولرسوله، أي سمع وطاعة. والطاعة وآدابها.

غير أن لهذه الطاعة شروطا وآدابا وأنها ليست طاعة من باب النوافل وإنما هي من باب الفرائض، لأن الله تبارك وتعالى أمر بها في هذه الآيات: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾ وأمر بها في آيات أخرى كثيرة فهي فرض مكتوب.

● غير أن هذه الطاعة إذا كانت لله ولرسوله كانت مطلقة من كل قيد وواجبة دون تردد، وكل ما يشترط فيها أن تكون في وسع الإنسان وطاقته ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

● أما الطاعة لغير الله ورسوله، من حاكم مسلم أو ولي أمر فلها شروط وآداب نذكرها فيما يلي:

---

(١) هو واثلة بن الأسقع بن عبد ياليل الليثي الكناني (٢٢ق. هـ – ٨٣هـ) صحابي من أهل الصفة خدم رسول الله ثلاث سنوات وبعد وفاة رسول الله ﷺ نزل البصرة، وشهد فتح دمشق وحضر المغازي في البلاد الشامية وتحول إلى بيت المقدس فأقام بها، وهو آخر الصحابة موتا في دمشق له ٧٦ حديثا نبويا شريفا.

● شروط الطاعة:

أ – أن تكون الطاعة في غير معصية، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى لو كان الآمر خليفة المسلمين جميعا.

ب – وأن تكون على وفق ما شرع الله، فلا يطيع أحد أحدا في أن يتعبد إليه بغير ما شرع حتى وإن كان المأمور به معقولا، كمن أمر بالمنع مما أحل الله أو بتحريم ما أباح الله.

جـ – وأن ينفذ المؤمن الطاعة ويخلي نفسه من إعجابه بطاعته أو رضاه عنها، فإن رضا الإنسان عن طاعته دليل على حسن ظنه بنفسه، وذلك جهل منه بمقامه من العبودية لله سبحانه وتعالى.

د – وأن تكون الطاعات بالفرائض في العلن، في حين تكون الطاعات بالنوافل في السر والكتمان، إذ المعروف لدَى علماء المسلمين أنه لا غمة في فرائض الله، والأصل في النافلة في الصدقة ـ مثلا ـ ألا تعلم الشمال ما أعطت اليمين، كما جاء ذلك في حديث المعصوم ﷺ.

أما آداب الطاعة فكثيرة

● نذكر منها بعض ما ذكره أسلافنا من العلماء فيما يلي:

أ – أن يكون في عقب كل طاعة استغفار لله تبارك وتعالى، مخافة أن تكون قد أُدِّيَتْ على نحو لا يليق بجلال الله لما فيها من قصور، فيجبر هذا النقص بالاستغفار، وقد كان ذلك شأن رسول الله ﷺ، إذ كان يستغفر بعد الصلاة ثلاث مرات، ويستغفر في اليوم والليلة مائة مرة أو نحوها، ليعلمنا جبر النقص وعلاج القصور.

ب – وألا يشق على نفسه بالطاعة، وإنما يقتصد فيها ويتوسط ويختار الأيسر، تأسيا برسول الله ﷺ، فإن شق على نفسه بالطاعة فقد خالف سنة رسول الله ﷺ.

والدليل على ذلك ما يلي:

● روى البخاري ومسلم بسنديهما عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة، تذكر من صلاتها، قال: «مَهْ عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا».

● وروى مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا والمتنطعون: المتعمقون المتشددون في غير موضع التشدد.

روى البخاري ومسلم بسنديهما عن أنس رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ المسجد، فإذا حَبْل ممدود بين الساريتين، فقال: ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا حبل لزينب إذا فترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ: «حلوه، ليصلِّ أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد».

جـ - وأن تكون هذه الطاعات جميعا قد قصد بها وجه الله تبارك وتعالى، وذلك هو الإخلاص، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وقال جل شانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

[الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]

والآيات في ذلك كثيرة وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة.

ومن أجمع ما قال الأسلاف الصالحون في الإخلاص.

«ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما».

٣ - ويتعلم الدعاة من هذه الآيات أن وظيفتهم هي امتداد لعمل رسول الله ﷺ، وهي البلاغ عن الله، وإخبار الناس بأنهم إن أطاعوا الله ورسوله أصابوا الحق ورشدوا في أمورهم كلها، وتلك هي الهداية، وإن تطيعوا تهتدوا» وإن أعرضوا وتولَّوْا عما أمر الله ورسوله وعما نهيا عنه فإن ذلك لن يضر الله شيئاً، وإنما يوبق

أصحابه ويورطهم ويجعلهم محل العقاب، لان عمل الرسول والدعاة من بعده هو البلاغ، وذلك هو ما حُمله رسول الله ﷺ وكل داعية من بعده، وقد فعلوا. فعلى الناس أن يقوموا بما حُملوا به وهو طاعة الله ورسوله.

إن الدعاة إلى الله والعاملين في الحركة الإسلامية ليسوا مطالبين بأكثر من البلاغ والتبليغ في ظل الأصول العامة والشروط والآداب لهذا التبليغ أو للدعوة إلى الله، ويمكن إجمال ذلك كله في كلمات قرآنية حكيمة هي:

- التعامل مع الناس بالحكمة: أي القول الحكيم الملائم لهم.
- والموعظة الحسنة: أي ضرب الأمثال التي توجه الناس إلى الحق وتدعوهم إليهم وتحببهم فيه.
- والجدال بالتي هي أحسن: أي بالطريقة التي لا عنف فيها ولا تشديد وإنما هي المنطق والعقل والإقناع.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

[النحل: ١٢٥]

الآيات من الخامسة والخمسين إلى السابعة والخمسين

في: وعد الله للمؤمنين بالتمكين، وفي تهديد ووعيده للكافرين

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

● هذه الآيات الكريمة تتضمن أمورا على درجة هامة في بناء المجتمع المسلم الآمن، وهذه الأمور هي:

● الاستخلاف في الأرض.

● والتمكين لدين الإسلام في البلاد والعباد.

● والعيش في أمان بعد الحرب والخوف.

● وتعليل لهذه العدات بأن السبب في منحها هو: عبادة الله وحده. دون أن يُشرك به شيءٌ.

● وتقرير أن من يكفر بعد هذا الإيمان وبعد تلك العدات فهو من الفاسقين الكاملي الفسق.

● وتأكيد أن عبادة الله سبحانه، ورفض الشرك به إنما يكون بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول وأن هذه العبادة هي التي تؤدي إلى الرحمة في الدنيا بالأمن والتمكين في الدنيا، وبالدرجات العلى يوم القيامة.

● وتهديد ووعيد من الله تعالى للذين كفروا، بأنهم لن يفوتوا عذاب الله أو يهربوا منه، ولن يفروا يوم القيامة من مصير محتوم لهما هو أن تكون جهنم مأواهم وهي أسوء مصير.

● وقد تضمنت الآيات الكريمة أكثر من خبر، واشتملت على أسلوب شرط، وعددا من الأوامر ونهيا.

ولبيان ذلك نقول والله الموفق:

– أما الخبر الأول فهو:

إخبار الله تبارك وتعالى بوعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بثلاث عدات عظيمة في الدنيا وهي:

● أولى هذه العدات: هي الاستخلاف في الأرض أي جعلهم خلفاء الأرض وأئمة الناس، والولاة عليهم، بحيث تصلح بهم البلاد ويستقيم بخلافتهم حال العباد.

والأرض في هذه الآية هي الأرض في عمومها مشارقها ومغاربها الأرض كلها التي هي مأوى رسول الله ﷺ.

فقد روى الإمام مسلم بسنده عن ثوبان رضي الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها».

وقد جاءت هذه العدة الأولى خبرا مؤكدا بأداتي توكيدهما: اللام ونون التوكيد المشددة في قوله سبحانه: «ليستخلفنَّهم».

وتلك سنة الله في المؤمنين الذين يعملون الصالحات من قبل، فقد استخلف الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من بني إسرائيل في الشام بعد إهلاك الجبابرة.

● وثاني هذه العدات: هي: تمكينهم وتمكين دينهم الذي ارتضى لهم، وأصل

التمكين هو: جعل الشيء مكانا لآخر، والتعبير عن ذلك بالتمكين للدلالة على ثبات الدين ورصانة أحكامه وسلامته من التغيير والتبديل لابتنائه على تشبيهه بالأرض في الثبات والاستقرار.

ولقد كان هذا التمكين في الماضي حتى امتدت الخلافة الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك حيث الأندلس مشتملة على قبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر، ووصلت من ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين...

ولا يزال ذلك ممكنا اليوم وفي كل يوم من المستقبل لأنها عدة الله تبارك وتعالى، ولن يخلف الله وعده، وثمن ذلك كله هو الإيمان والعمل الصالح كما قال رب العالمين!!!

● وثالث هذه العدات: هي: أن يبدلهم من بعد خوفهم أمناً وطمأنينة وسلاما ووئاما.

«روى الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ...﴾ قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحوا من عشر سنين يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته وحده لا شريك له سرّاً، وهم خائفون، لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بالهجرة إلى المدينة فقدموها فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله، ثم إن رجلا من الصحابة قال: يا رسول الله أبَدَ الدهر نحن خائفون هكذا؟

أما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله: «لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة» وأنزل الله هذه الآية فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فآمنوا ووضعوا السلاح، ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان، حتى

وقعوا فيما وقعوا فيه فادخل عليهم الخوف، فاتخذوا الحَجَزة والشرط، وغيروا فغير بهم».

وروى الحاكم في صحيحه بسنده عن أُبيّ بن كعب قال: لما قدم النبي ﷺ واصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبتيون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا في لأمتهم، فقالوا: ترون أننا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل، فانزل الله تعالى لنبيه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وروى البخاري بسنده عن عدي بن حاتم رضي الله عنه(١) قال:

بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: يا عديّ: هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم ارها وقد أنبئت عنها قال: فإن طالت بك حياة لترَيَنَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدا إلا الله ـ قلت فيما بيني وبين نفسي فاين دُعَّار طيء الذين قد سعروا البلاد ـ ولئن طالب بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى ابن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترَيَنَّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدا يقبله منه، ولَيَلْقَيَنَّ الله أحدُكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولنَّ: الم أبعث إليك رسولا فيبلغك؟ فيقول بلى، فيقول: الم اعطك مالا وافضل عليك، فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر على يساره فلا يرى إلا جهنم. قال عديّ: سمعت النبي ﷺ يقول: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة، قال عدي: فرأيت

---

(١) هو عدي بن حاتم بن عبد الله الطائي ابو وهب وأبو طريف (٠٠٠ – ٦٨هـ) أمير صحابي من الأجواد والعقلاء كان رئيس طيء في الجاهلية وفي الإسلام، قام في حروب الردة بأعمال جليلة، أسلم سنة تسع من الهجر وشهد فتح العراق، ثم سكن الكوفة وشهد الجمل وصفين والنهروان مع علي رضي الله عنه مات بالكوفة وقد عاش أكثر من مائة سنة، وهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الجود.

الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترونّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة...».

وبعد فهذه كلها بشارات نبوية كريمة للذين آمنوا وعملوا الصالحات بهذه العدات الثلاث الاستخلاف والتمكين والأمن بعد الخوف.

– وإخبار من الله تعالى بأن الذين استحقوا هذه العدات الثلاث إنما استحقوها بما عبدوا الله وحده لا يشركون به شيئا، والعبادة لله سبحانه هي الإيمان به والعمل الصالح الذي يترجم عن هذا الإيمان.

بل إن هؤلاء الذين عبدوا الله لا يشركون به شيئا لهم نعمة أخرى أعظم من جميع النعم الدنيوية هي نعمة رضا الله تعالى عنهم وإدخالهم الجنة، وليس بعد دخول الجنة غاية.

روى البخاري ومسلم بسنديهما عن قتادة، ورواه أحمد بسنده عن أنس رضي الله عنه، أن معاذ بن جبل رضي الله حدثه قال: بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل قال: يا معاذ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً». قال ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: فهل تدري ما حق العباد على الله! إذا فعلوا ذلك؟ قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم».

إنه الهدي النبوي الذي يبسط الحقوق والواجبات ويوضح الأهداف والوسائل، ويعرف بالزاد الحقيقي في الطريق إلى الله عز وجل.

إن فوز المؤمن الذي يعمل الصالحات في الدنيا بتلك العدات الإلهية لا يتم إلا

برضا الله سبحانه في الآخرة.

– وأما أسلوب الشرط: ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وبيانه كالتالي:

مَنْ: أداة الشرط.

وكفر: فعل الشرط.

وجملة فأولئك هم الفاسقون: جواب الشرط.

والمعنى والله أعلم:

من خرج بعد ذلك البيان عن طاعتي فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبا عظيما، والفسق هو الخروج عن السمت.

قال ابن كثير: فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب وأيدهم تأييدا عظيما، وحكموا في سائر العباد والبلاد، ولما قصر بعض الناس في بعض الأوامر نَقَص ظهورهم بحسبهم.

ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة ـ وفي رواية ـ حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ـ وفي رواية ـ حتى يقاتلوا الرجال ـ وفي رواية حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون».

وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها»(1).

وكلمة: كفر: تحتمل معنى الكفر الذي هو نفي الإيمان أي كفروا بعد أن آمنوا.

وتحتمل معنى: كفر النعمة التي أنعم الله بها إذ وعد المؤمنين بهذه العدات الثلاثة.

---

(1) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٠٢ ط الحلبي القاهرة ١٣٦٧هـ – ١٩٤٨م.

وتحتمل: «كَفَر أي اتصف بالكفر بأن ثبت واستمر عليه، ولم يتأثر بما مَرَّ من الترهيب والترغيب، فإن الإصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد هو كفر مستأنف زائد على الأصل.

وقوله تعالى: «بعد ذلك» أي بعد الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعي الجميل في حيازتها، فأولئك البعداء عن الحق التائهون في تيه الغواية والضلال هم الفاسقون الكاملون في الفسق والخروج إلى الكفر والطغيان.

وجملة: «من كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» تحذير بعد البشارة على عادة القرآن الكريم في تعقيب البشارة بالنذارة والعكس دَفْعاً للاتكال والتواكل.

– وأما ما ورد في الآيات الكريمة من أوامر فهي ثلاثة:

● الأمر بإقامة الصلاة: وإقامة الصلاة يعني عبادة الله وحده لا شريك له، لأن الصلاة عمود الدين وعماده، وهي وقوف بين يدي الله تبارك وتعالى يؤكد توحيده والتوجه إليه بهذه العبادة التي تتكرر في اليوم والليلة خمس مرات.

● والأمر بإيتاء الزكاة: يعني الاستجابة لله سبحانه الذي فرض الزكاة، كما يعني الإحسان إلى المخلوقين فقرائهم وضعفائهم، وهذا دليل إيمان ودليل تجاوب مع أحكام الإسلام في تأمين المجتمع ودعم التكافل بين أفراده.

● والأمر بطاعة الرسول ﷺ في جميع الأحكام الشرعية المشتملة على الأخلاق والآداب، وتأمين الحياة الاجتماعية من كافة جوانبها، تلزم جميع الأفراد بأداء واجبهم والتمتع بما كفلت لهم الشريعة من حقوق.

● وهذه الأوامر الثلاثة موجهة إلى المؤمنين خاصة، بعد أن كان الأمر في آية: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا ... الآية﴾ موجها إلى الناس عموما مؤمنين وغير مؤمنين وهم أمة الدعوة، أي كانت تلك دعوة للمعرضين، وهذه دعوة للمؤمنين ليزدادوا إيمانا.

● وجملة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: تعني افعلوا ذلك من إيمان وصلاة وزكاة وطاعة للرسول ﷺ في كل ما أمر به، افعلوا ذلك لعلكم ترحمون، أي لكي يرحمكم ربكم فينجيكم من عذابه.

– وأما النهي ففي قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

الله سبحانه وتعالى ينهى نبيه وينهى المؤمنين في كل حين، عن أن يظنوا أن الكفار - بأي معنى من معاني الكفر التي قدمنا آنفا - يعجزون الله تبارك وتعالى عن أن يدركهم فيعذبهم على كفرهم، بل الحق أنه سوف يدركهم ويعذبهم ويجعل مأواهم النار وهي بئس المصير للإنسان.

وبهذا يكون الكفار قد خسروا الدنيا والآخرة، خسروا الدنيا لأن الله سبحانه سوف يستخلف المؤمنين ويمكنهم من الأرض ومن عليها من الكافرين - وخسروا الآخرة بأن وجدوا مأواهم جهنم بعد أن كانوا يتصورون مخطئين أنهم قد يعجزون الله تعالى عن أن يعذبهم بكفرهم.

وهذا النهي عن هذا الظن أو الحسبان الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ﴾ ليس عطفا على ما سبقه، إنما هو استئناف ابتدائي لتحقيق ما اقتضاه الوعد الإلهي للمؤمنين من استخلاف وتمكين وأمن بعد خوف، على الرغم من أن المشركين والكفار في ذلك الوقت كانوا في كثرة وقوة وأن المسلمين كانوا في قلة وخوف..

ومع ذلك فما ينبغي أن يكون تأكيد قدرة الله على الكافرين موضع عجب أو دهشة أو استبطاء لوعد الله سبحانه، أو يظن معه. والمشركون بهذه القوة - أن الله لا يحقق ما وعد، أو أن الكفار مهما أوتوا يستطيعون أن يفوتوا الله تبارك وتعالى.

وهذا النهي عن ذلك الظن إنما هو طمأنة للمسلمين وتأكيد لوعد الله سبحانه وتعالى.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ﴾ أي تاء الخطاب في الفعل لمخاطبة من يخامره التعجب أو الدهشة أو الاستبطاء وليس بالضرورة مقصور على خطاب النبي ﷺ وحده.

وكلمة «في الأرض» تعني - كما قال بذلك المفسرون: «انه ما من كائن في الأرض إلا وهو في متناول قدرة الله تعالى إن شاء أخذه، أي لا ملجأ لهم في الأرض كلها»[1].

والأرض هي أرض الدنيا أي هم غير غالبين في الدنيا كما حسبوا أنه ليس هناك عالم آخر، بل سينهزمون في الدنيا على أيدي المؤمنين المستخلفين الممكنين، ثم هم يوم القيامة يصلون عذاب الله وناره وبئس المصير مصيرهم.

■ المواقف التربوية العامة في الآيات الكريمة، وهي كثيرة تذكر منها ما يفتح الله به فيما يلي:

١ - نتعلم من الآيات الكريمة ان الأصول العامة لإصلاح الأمة المسلمة هي: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والعمل الصالح أو عمل الصالحات.

● والإيمان كما نعلم إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، ولكل ركن من أركان الإيمان تفصيل ليس هنا مجال تفصيله[2].

● والعمل الصالح ذو تفاريع لا يحصيها العدُّ، وحسبنا ان نقول فيه: إنه كل عمل يقوم به الإنسان مما أمر الله به أو ندب إليه أو حبب فيه، بل كل قول من هذا هو عمل صالح، بل تتسع الدائرة في العمل الصالح لتشمل كل استجابة لما نهى الله عنه أو كرّهَه أو بغّض فيه ومن هنا ندرك إلى أي مدى يتسع مجال العمل الصالح.

---

(١) الزمخشري: الكشاف: تفسير الآية ٢ ط ٣٩٤ ط الحلبي القاهرة ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م.

(٢) لهذا التفصيل كتب ولكن من احسنها واهمها وادقها كتاب:
شعب الإيمان للبيهقي، وكتاب مختصر شعب الإيمان لابي جعفر عمر القزويني المتوفى ٦٩٩هـ. وهو أيسر تناولا.

وإذا تسلح الناس بالإيمان والعمل الصالح كان ذلك قواما لصلاح أمور الأمة وسببا من أسباب نجاحها وخلاصها. بل كان مبررا لأن تكون الأمة أهلاً لأن يستخلفها الله في الأرض، ويمكن لها دينها الذي ارتضى لها، ويملأ قلوبها أمنا وطمأنينة، بل إن الإيمان والعمل الصالح بهما يجلب كل خير ويدفع كل شر، على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع والأمة المسلمة كلها.

وآيات القرآن الكريم التي تؤكد هذه الحقائق التي قدمنا كثيرة نذكر منها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥ – ١٠٧] وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

تلك سنة من سنن الله تبارك وتعالى التي لا تتغير، حتى لو أن قوما من غير المسلمين ممن لا إيمان لهم، عملوا الصالحات في شئونهم وشئون رعيتهم من صلات الأرحام والعدل ونحو ذلك مما أمر الله به المؤمنين، هؤلاء القوم وإن كان ذلك العمل الصالح لا ينفعهم في الآخرة يقينا لأنه ليس بعد الكفر ذنب ولا أكبر من الكفر ذنب إلا أنهم قد يصيبون من وراء هذه الأعمال الصالحة خيرا دنيويا، فربما تدين لهم الأرض التي يحكمون، وربما تتم على أيديهم بعض مظاهر التحضر والعمران، ثم يبقى حسابهم على كفرهم حسابا أخرويا يوم القيامة.

ولعل ما استطاع أهل الغرب تحقيقه من السلطان والعمران إنما جاء نتيجة لأخذهم ببعض قوانين الإسلام ونظمه التي وصلت إليهم خلال معابر الحضارة الإسلامية إلى الغرب وهي الأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط والحروب الصليبية والامتداد الحضاري الإسلامي في أوربا على دولة الخلافة العثمانية.

ولعل فكرة الاستشراق تستهدف في الأصل نقل علوم الشرق ومعارفه، ودينه ومظاهر حضارته إلى الغرب، حيث نقلوا علم المسلمين، بل نقلوا الإسلام نفسه

قوانينه ونظمه إلى لغاتهم الغربية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها.

وليس مخالفا لسنن الله في شيء أن يتخلى المسلمون عن قوانينهم وأحكامهم التي جاءت بها شريعة الإسلام فيضعفوا ويهونوا ويتحكم فيهم الغرب يحتل بلادهم ويستولي على خبراتهم ويتحكم في مواردهم ومصادرهم وقرارات حكوماتهم، ويتحول المسلمون نتيجة لذلك إلى دويلات بائسة تدور كل واحدة منها أو مجموعة منها في فلك الغرب وحضارته وقيمه الثقافية، حتى يتولد من المسلمين أجيال تقول بفصل الدين عن الدولة، وتنادي بأن الدين مسألة شخصية، وأن اليوم الآخر وما سوف يجري فيه من الآيات التي لا يصدقها عقل، ويتفاخر بعض الغافلين من المسلمين بأنهم علمانيون أو تنويريون!!!

أقول تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته تبديلا، ففي الماضي كفرت يهود بما جاءها من عند الله وغيروا وبدلوا في كتابهم التوراة الذي وصفه الله تبارك وتعالى بأن فيه هدى ونور ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾ [المائدة: ٤٤] وبدلوا وآمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه فسلط الله عليهم الآشوريين وهم مشركون، فأذاقوهم الويلات، ثم سلط عليهم من شاء من عدو استباحهم... تلك سنة الله في خلقه.

إن الإيمان والعمل الصالح يؤديان إلى الاستخلاف في الأرض وإلى التمكين لدين الله في الأرض والأمن والأمان.

ومع العمل الصالح وحده دون إيمان يمكن أن يكون سلطان وجاه وتقدم عمران مادي موقوت!!!

هذه سنة الله في خلقه في الذين خلوا وفي الذين يعيشون الحاضر وفي الذين يعيشون مستقبل الأيام.

٢ – ونتعلم من الآيات الكريمة أن العمل الصالح المعبِّر عن الإيمان جاء في الآية الكريمة عاما عموما مطلقا، ليشمل كل الصالحات وفق مراجعها الإسلامية وأهدافها

الإنسانية، لينتج عن ذلك تحقيق كليات الشريعة التي تكفل استقامة الأمة على الحق والخير، وهذا التعميم أفضل من التفصيل وذكر جميع المفردات في الأعمال الصالحة، لأن أمر التفصيلات يطول.

وهذه الأعمال الصالحة في عمومها لها مجالات ثلاثة:

- السلوك الشخصي.
- والسلوك الاجتماعي.
- والسلوك الدولي.

وكل هذه المجالات محكومة بأحكام شرعية وبقيم خلقية ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ومن أجل هذا عممت الأعمال الصالحة ولم تخصص وكان التمسك بها سببا في سعادة الدارين.

ومن أبرز الأصول التي تكفل تلك السعادة ما جاء في القرآن الكريم من أحكام وأخلاق عامة، كتلك التي نجدها في الآيات الكريمة التالية:

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

- وقال جل شانه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١- ١٥٣].

- وقال جل شانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا

ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣١ – ٣٣].

● وقال عز من قائل: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (٣٩) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٣٦ – ٣٩].

● وقال عز من قائل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا (٢٨) وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ

بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً (٣٣) وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيٍّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الإسراء: ٢٣ – ٣٩].

وغير هذه الآيات الجامعة في القرآن الكريم كثيرة وجامعة أيضا لكننا نكتفي بالشاهد والمثال.

وهذه الآيات الكريمة لو أخذ الناس بما فيها لكانت أعمالهم نماذج للعمل الصالح الذي يرضي الله تبارك وتعالى، فإذا كانت هذه الأعمال نابعة عن الإيمان، كانت العدات الثلاثة قاب قوس أو أدنى: الاستخلاف والتمكين والأمن والطمأنينة..

٣ – ونتعلم من الآيات الكريمة أن البرنامج التفصيلي اليومي الحياتي للإيمان هو العمل الصالح، وعلى قمة العمل الصالح كما جاء في الآيات الكريمة ثلاثة أعمال هي:

إقام الصلاة.

وإيتاء الزكاة.

وطاعة الرسول ﷺ.

وعند التأمل في هذه الثلاثة نجد التمسك بها وعملها هو مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة، وسبب نجاح الإنسان في حياته الاجتماعية كلها.

وبيان ذلك ما يلي:

● أما الصلاة:

فهي الفرض الذي يتكرر في اليوم والليلة خمس مرات ومهما قال القائلون في فوائدها وأهميتها فلن يبلغوا ما ينبغي أن يقال فيها، ونحن هنا نذكر نتفا لعلها تغني بعض الغناء.

فالصلاة على مستوى المصلي تغسل عنه الذنوب كما يغسل الماء الدرن، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمْر بباب أحدكم، يقتحم فيه كل يوم خمس مرات، فما ترون ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا شيء قال: فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن».

ورواه البخاري بسنده عن أبي هريرة بنحو ذلك.

والصلاة تكفر الذنوب وتطهر صاحبها منها، روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

والصلاة على مستوى المجتمع كله إذا التزم بها الناس تطهر المجتمع عن الفحشاء والمنكر، قال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهما: في الصلاة منتهىً ومزدجر عن معاصي الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى إلا بعدا.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] قال: «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له».

تلك هي الصلوات المكتوبة.

وقد شرع الله لنا من صلوات النوافل ما نتقرب به إليه وذلك كالسنن الرواتب وغيرها من النوافل كقيام الليل والتهجد وصلوات الشكر والتسابيح والتراويح، وصلاة الحاجة وصلاة الاستسقاء والخسوف والكسوف وغيرها.

وكل ذلك يزيد المتعبد قربا من الله حتى يحظى بحب الله تبارك وتعالى وحب الله لعبده من أحسن المنازل وأعظمها، روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبد بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه».

وبعد فمما قلته في الصلاة قطرة من بحر مما قاله العلماء السابقون رحمهم الله ونفع بعلمهم، ولكنها قطرة كان لا بد أن تسيل على القرطاس، نسأل الله نفع المسلمين بها إنه على ما يشاء قدير، وحسب الصلاة فضلا أنها عمود الإسلام أو عماده.

● وأما الزكاة:

فهي الركن التالي للصلاة المرادف لها في كثير من آيات القرآن الكريم، كقوله تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقوله سبحانه: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقوله جل شانه: ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ ﴾.

[الحج: ٧٨]

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

[المزمل: ٢٠]

كما ورد هذا الترادف بين الصلاة والزكاة في أحاديث النبي ﷺ مرات عديدة ما روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة....».

وإذا كانت الصلاة عماد الدين أو عموده، وهي شرف للإنسان يقف بها بين يدي ربه سبحانه وتعالى خمس مرات في اليوم والليلة ومناجاة لله سبحانه ودعاء، على طهارة بدن وثوب ومكان، وعلى خشوع قلب وانتهاء عن الفحشاء والمنكر...».

إذا كانت الصلاة كذلك فإن الزكاة التزام أمام الله بأداء حق الفقراء والمساكين وغيرهما في المال الذي هو في الأصل منحة من الله تبارك وتعالى، وبما أن المال محبوب ـ ومن عادة النفس أن تضن به، لذلك كانت الزكاة تطهيرا للنفس من الشح والبخل، ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] ومن المعروف في شريعة الإسلام أن الشح والبخل من المهلكات أو الموبقات، فقد روى الطبراني في الأوسط بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «... وثلاث مهلكات: هوى متبَّع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه».

والزكاة شكر لنعمة الله على عبده، فمن لم يزك فقد كفر النعمة. والزكاة المفروضة في الأموال وما في حكمها غير الصدقات التي يتقرب بها العبد إلى ربه على سبيل النافلة دون تقيد بنصاب ولا حول يحول ولا نسبة معينة من الأموال.

وإذا كانت الزكاة قد فرضها الله تعالى، فإن الصدقة قد حبب فيها الله ورسوله.

روى الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تصدق أحد بصدقة من طيِّب ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها

الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمة حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربّي أحدكم فُلُوَّه أو فصيله».

وروى الحاكم بسنده عن عقبة بن عامر رضي الله عنه ـ وصححه الحاكم على شرط مسلم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يُقْضى بين الناس».

ولمكانة الصلاة والزكاة في العبادة والتقرب إلى الله سبحانه كان التنبيه عليهما بشكل مباشر وصريح ومتكرر، وجاء بعدهما في الأهمية الأمر العام بطاعة الرسول، مع أن طاعة الرسول ﷺ يدخل فيها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

● وأما طاعة الرسول ﷺ:

فإنها تعني اتباع كل ما جاء به، وقد جاء بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فكان الأخذ بكل ما في الكتاب والسنة داخلا في طاعة الرسول ﷺ.

وطاعة الرسول ﷺ تعني الالتزام بأصول كبيرة يتدرج تحت كل أصل فروع كثيرة.

ومن هذه الأصول:

● الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

● والإسلام لله بالنطق بالشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا.

● والعدل فيما بين العبد وربه وفيما بين العبد ونفسه وفيما بين العبد وغيره من الناس أقرباء أو جيران أو من ملل أخرى.

● والإحسان بمعنى مراقبة الله تعالى، وبمعنى الإتقان والتجويد لكل عمل يقوم به الإنسان.

● والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال عند الحاجة إليه بالتي هي

أحسن، والدعوة إلى الله واجب كل مسلم ومسلمة ما دام على بصيرة بما يدعو إليه.

وللدعوة إلى الله منهج وشروط وآداب ومراحل وطبيعة لكل مرحلة وأهداف ووسائل معروفة[١].

● والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ أو الحسبة ـ وقد فرض الله سبحانه ذلك على كل مسلم ومسلمة وفق شروط بعينها وآداب معينة، ونص على أمم سابقة لم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، بل لعنهم سبحانه وتعالى[٢].

● والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، الجهاد بكل أنواعه الأصغر والأكبر، وجهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد العدو، فرض العين وفرض الكفاية.

تلك هي أصول طاعة رسول الله ﷺ وتحت كل أصل فروع وتفصيلات كثيرة، مما يقطع بأن شريعة الإسلام ما تركت من شيء يعود على الناس بالنفع في دينهم ودنياهم إلا شرعته وأمرت به، وما تركت من شيء يضرهم في معاشهم أو معادهم إلا نهت عنه، وذلك من فضل الله على الأمة الإسلامية أمة خاتم الأديان، وخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام.

٣ – ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة ألا ينخدعوا بالكفر وأهله مهما بدا الكفر عاتيا وذا سلطان وقهر، مهما بدا الكفار أصحاب أموال ومكانة دنيوية، بل مهما استطاع الكفار أن ينتصروا على المؤمنين في جولة أو جولات لأن الكفر والكفار غثاء وزبد والإيمان والمؤمنين حق ينفع الناس في دنياهم وأخراهم، وقانون الله وسننه أن الزبد والغثاء إلى زوال وأن الحق إلى بقاء ورسوخ ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) للتوسع في فقه الدعوة: انظر للمؤلف فقه الدعوة إلى الله نشر دار الوفاء: ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

(٢) انظر للتوسع: المرجع السابق: فقه الدعوة إلى الله.

إن الآية الكريمة تحذر المؤمنين من مجرد الظن بأن الكفر والكفار يمكن أن يعجزوا الله، لأن هذا محال ومعنى ذلك ألا تضعف نفوس المؤمنين إن رأوا الكفر والكفار في رواج وازدهار وتحكم في البلاد والعباد، وإنما عليهم ألا يظنوا ذلك أبدا، ثقة في سنة الله وناموسه.

إن شعار المؤمنين دائما عندما يروا للكفار سطوة أن يتذكروا قول الله تبارك وتعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ﴾. إن هذا الحُسْبان لو حدث يعد نقصا في الإيمان وفقدا للثقة في سنة الله، فضلا عما يدل عليه من انهزام المسلمين من داخل أنفسهم، مما لا يجعل لديهم قدرة على مواجهة الكفر والكفار في الجولات التالية.

إن الصراع بين الحق والباطل بين الإيمان والكفر صراع سوف يستمر إلى أن تقوم الساعة أو إلى أن تحارب أمة الإسلام أو طائفة منها المسيح الدجال. والسعيد من عباد الله من اختاره الله ليشارك في هذا الصراع، لينال إحدى الحسنيين إما انتصاره على الباطل وإما نيله الشهادة ليغفر له ما تقدم من ذنبه ويحشر يوم القيامة مع الأنبياء والصديقين وأي سعادة أكبر من ذلك؟

■ والمواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة في الآيات كثيرة نذكر منها بتوفيق من الله ما يلي:

١ ـ يتعلم الدعاة والحركيون من الآية الأولى أن الهدف الكبير الذي يسعون إلى تحقيقه ـ وهو التمكين لدين الله في الأرض ـ ويحشدون له كل ما يستطيعون من طاقات، ليس بينهم وبين تحقيقه ـ بعد الأخذ بالأسباب ـ إلا أن يكون إيمانهم راسخا بالله وبنصره وتأييده، مع اليقين بأن الإيمان ليس مجرد عمران القلب به وإنما هو أعمال صالحة تعبر عن هذا الإيمان.

ـ ولا يمكن ذلك بغير الأخذ بالأسباب؛ وأدلة ذلك:

● الأخذ بالأسباب مطلب شرعي أوجبه الله تبارك وتعالى على عباده المؤمنين.

والأدلة على وجوب الأخذ بالأسباب كثيرة منها ما هو نقلي ومنها ما هو عقلي منطقي، وسوف نشير إلى بعض هذه الأدلة فيما يلي:

● من الأدلة النقلية: في القرآن الكريم:

● قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

فإن الله تبارك وتعالى في هذه الآية قد أمر المؤمنين ـ في مجال الجهاد والقتال ـ أن يأخذوا حذرهم، وأخذ الحذر هو من أهم قواعد القتال لاتقاء كيد العدو وخداعه، أو هجومه.

والحذر هو: توقي المكروه، إذ الأصل في العدو أن يتربص بعدوه الدوائر ـ والحرب خدعة ـ وكان أعداء المسلمين من المشركين كانوا أهل غدر وخيانة مهما عاهدوا، فطولب المسلمون بأن يكونوا منهم على حذر.

وعلى المسلمين بهذا الحذر أن يتخيروا أساليب القتال المناسبة للعدو، ما بين جماعات صغيرة ـ سرايا ـ أو نفير عام يحشدون له المجاهدين جميعا.

ذلك أخذ بالأسباب أمر به الله تعالى إذ جاء على صيغة الأمر: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]. قال الفخر الرازي: «ولقائل أن يقول: ذلك الذي أمر الله تعالى بالحذر عنه إن كان مقتضى الوجود لم ينفع الحذر، وإن كان مقتضى العدم لا حاجة إلى الحذر، فعلى التقديرين الأمر بالحذر عبث، وعنه ﷺ أنه قال: المقدور كائن والهم فضل» وقال: أيضا: «الحذر لا يغني من القدر».

فنقول: إن صح هذا الكلام بَطَل القول بالشرائع، فإنه يقال: الإنسان من أهل السعادة في قضاء الله وقدره فلا حاجة إلى الإيمان وإن كان من أهل الشقاوة لم ينفعه الإيمان والطاعة، فهذا يفضي إلى سقوط التكليف بالكلية.

والتحقيق في الجواب أنه لما كان الكل بقدر، كان الأمر بالحذر أيضا داخلا في القدر، فكان قول القائل: أي فائدة في الحذر؟ كلاما متناقضا، لأنه لما كان هذا

الحذر مقدرا، فاي فائدة في هذا السؤال الطاعن في الحذر(1)؟

● وقول الله تعالى في صلاة الحرب او صلاة الخوف: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] ومعنى هذه الآية ان الله تعالى جعل الحذر وهو التحذر والتيقظ آلة يستعملها المغازي، فلذلك جمع بينه وبين الأسلحة في الأخذ، وجعلا مأخوذين.

● وقوله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الانفال: ٦٠] ومعنى الآية - والله أعلم - ان الله تعالى يأمر المؤمنين ان يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة دعوة وقوة.

والمراد بالقوة هنا: ما يكون سببا لحصول القوة، وذكروا في القوة وجوها منها:

● المراد من القوة أنواع الأسلحة.

● أو المراد بها الرمي كما جاء ذلك في قول النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثا.

● أو المراد بها الحصون.

● أو المراد بها ما هو عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة.

«ومن رباط الخيل» أي ربطها للجهاد ولا شك أنها من أقوى آلات الجهاد في ذلك الوقت.

وإعداد القوة ورباط الخيل لإرهاب العدو الحاضر والعدو المحتمل في المستقبل الذي لا يعلم المسلمون عنه شيئا الآن.

إن هذا يعد في قمة مبدأ الأخذ بالأسباب.

---

(١) الفخر الرازي: التفسير الكبير: ١٠/١٤١ مرجع سابق.

– ومن الأدلة النقلية : في السنة النبوية :

● ما روى الترمذي بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رجل: يـا رسول الله : أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل؟ قال : اعقلها وتوكل».

وفي رواية لابن عساكر بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما: «قيدها وتوكل».

وفي رواية للبيهقي بسنده عن عمرو بن أمية الضمري[١] قال : قال رسول الله ﷺ : «قيد وتوكل».

وهذه الأحاديث النبوية نص في وجوب الأخذ بالأسباب.

– وروى ابن ماجة بسنده عن أسامة بن شريك[٢] رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء».

● وروى ابن ماجة بسنده عن أم المنذر رضي الله عنها [٣] قالت :

قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وكان رمد العين ـ: «لا تأكل من هذا يعني الرطب، وكل من هذا فإنه أوفق لك» يعني سلقا قد طبخ بدقيق الشعير.

وقد رأى جمهور العلماء أن القائلين بترك الأخذ بالأسباب ليسوا على صواب، وليسوا على فهم للتوكل على الله، فلا مناقضة بين التوكل والأخذ بالأسباب كما

---

(١) هو عمرو بن أمية بن خويلد بن عبد الله الضمري (٠٠٠ – ٥٥هـ) صحابي اشتهر بالشجاعة أسلم وشهد بئر معونة فأسرته بنو عامر وأطلقه عامر بن الطفيل عاش طيلة أيام الخلفاء الراشدين له ٢٠ عشرون حديثا نبويا.

(٢) هو أسامة بن شريك الثعلبي العامري أحد بني ثعلبة بن سعد سكن الكوفة، وروى عنه أهل الكوفة.

(٣) هي أم المنذر بنت قيس بن عمرو بن عبيد بن عامر أنصارية نجارية وأمها رعينة بنت زرارة ابن عبيد بن عدي النجارية تزوجها قيس بن صعصعة بن وهب.

في حديث النبي ﷺ: «اعقلها وتوكل» وعقلها أو تقييدها هو الأخذ بالأسباب ومعه ذلك أمره بالتوكل أيضا.

ولو لم يكن ذلك كذلك لكان من التوكل وترك الأخذ بالأسباب ما يلي:

- رفض شرب الماء عند العطش!!!
- ورفض تناول الطعام لدفع الجوع!!!
- ورفض لبس الملابس لدفع البرد!!!

ولا قائل بشيء من ذلك.

- وأما الأدلة العقلية على وجوب الأخذ بالأسباب فأوضح من أن نفصل القول فيها أو نوصله إذ المنطقي أن المتهيئ لأمر لا بد أن يأخذ بالأسباب التي توصله إليه وإلا فشل فيما يريد.

والحصيلة التي نخلص إليها من هذه النصوص الإسلامية في وجوب الأخذ بالأسباب هو أن على الدعاة والحركيين أن يعلموا المدعوين من ارتباطهم بالعمل من أجل الإسلام ضرورة الحذر والتوقي واتخاذ كل الأسباب المؤدية إلى النجاح في كل عمل من الأعمال وأن يحرروا في أنفسهم وعقولهم الفهم الصحيح للتوكل على الله وكيف يجتمع مع الأخذ بالأسباب.

إن كثيرا من الشاردين في حقل الدعوة والحركة قد تغيم أمامهم الرؤى فَيَدَعون الأخذ بالأسباب متخيلين أن السماء قد تمطر عليهم ذهبا وفضة!!! وهم في ذلك واهمون إذ لا بد من العمل ومن الأخذ بكل الأسباب المتاحة، وكم ضاعت فرص بسبب هذا الفهم الخاطئ والتخيل الجانح!!!

إن على الدعاة أن يؤكدوا لكل عامل في حقل الدعوة الإسلامية أن التوكل على الله والأخذ بالأسباب والإعداد لكل أمر يقبلون عليه بينهما تلازم ولا يغني الأخذ بالأسباب عن التوكل على الله.

إن الخبثاء المتربصين بالحركة الإسلامية يترصدون لبعض الغافلين من العاملين في الحركة الإسلامية تركهم الأخذ بالأسباب، ليأخذوا هم بها، فإذا هم أكثر استعدادا وأجود إعدادا وأدق في الوصول إلى الأهداف!!! وإذا هم يسخرون من الذين تركوا الأخذ بالأسباب، وحق لهم أن يسخروا، لأن ترك الأخذ بالأسباب ترك واجب أوجبه الله تعالى كما أسلفنا.

٢ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات الكريمة، ويجب أن يعلموا الناس أن المؤمن الذي يعمل الصالحات مقيما الصلاة مؤديا الزكاة مطيعا للرسولﷺ، إنما ينفع نفسه في حاضره ومستقبله أولاً ثم ينفع المجتمع الذي يعيش فيه في حاضره ومستقبله أيضا من بعد ذلك.

إن طاعة الرسول ﷺ تؤمن للمطيع حياته الدنيوية والأخروية وتجعله موضع رضا الله تبارك وتعالى مع تحرير معنى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] لأن تحرير هذا المعنى يرشد العمل ويحول بين بعض الأفراد وبين تصورهم أن أعمالهم الصالحة تعود بالنفع على من كلفهم بالعمل الصالح!!!

ليس بالله سبحانه حاجة إلى أن يؤمن الناس ويعملوا الصالحات وإنما الحاجة حاجة المكلفين، حتى ينالوا ثواب الطاعة، والله سبحانه من قبل أن يكلف الناس ومن بعد ما كلفهم غني عن العالمين.

● وأن بعض الشُداة في الدعوة إلى الله، قد يقومون ببعض الجهد ويبذلون ما لا يبذل سواهم، ثم ينفردون بأنفسهم فيقول أحدهم لنفسه: لقد فعلتُ وفعلتُ، ويرى نفسه في بعض الأحيان قطبا انجذب إليه المدعوون، وشيخا تحلق حوله المريدون وبما هز عطفيه فرحا بما قدم، ولا يدري أنه بهذه المشاعر وتلك الأحاسيس قد يعوق المسيرة، وقد يكون أحد أسباب تأخر النصر، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم الذي يلقى في روع هذا الداعية تلك المشاعر والأحاسيس.

وعلى المجربين المحنكين من الدعاة أن يتنبهوا لهذه الظواهر وأن يولوها من اهتمامهم ما يحول بين الشداة من الدعاة وبين أن تحبط أعمالهم.

إن كل هذه المعاني في مجالي الدعوة والحركة من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إذ كيف يكون الطمع في رحمة الله مع إعجاب المرء بنفسه أو عمله؟

إن مهمة الدعاة إلى الله جليلة محفوفة بالمخاطر من بين يديها ومن خلفها، لكن أجرها عند الله عظيم لمن استقام على طريقها وألقى على جانبي الطريق ما يعلق بالنفس من الإعجاب بالعمل أو التفكير في رصد وجمع ما قدم الإنسان في طريق الدعوة من أعمال.

إن الأمل الكبير للحركة الإسلامية في هذا العصر الذي نعيشه أن يكون الدعاة والمدعوون على مستوى الإيمان والعمل الصالح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الرسول ﷺ في كل ما جاء به، ليكونوا أهلا لأن يستخلفهم الله في الأرض ويمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ويبدلهم من خوفهم أمنا.

ـ عقبات في طريق التمكين:

● وإن الحذر كل الحذر والخوف كل الخوف والخطر كل الخطر على الدعوة والحركة من بعض الدعاة الذين يقطعون شوطا في الطريق ثم إذا أصابهم نصب أو وصب تراجعوا أو آثروا ما عند الناس على ما عند الله تبارك وتعالى.

ونفس الخطر على الدعوة والحركة من بعض الدعاة الذين تتقدم بهم السنّ في الدعوة ويرون من رصيدهم ما يسمح لهم بأن يكونوا بأشخاصهم موازين للدعوة والحركة، أو يستبد بهم الخطأ في الحساب فيرون أنفسهم أكبر من الدعوة وأن الصواب في جانبهم على كل حال.

إن ذلك عندما يحدث فإن له دلالات عميقة، لعل أولى دلالاتها أنهم لم يفقهوا مكان الفرد في الجماعة، أو مكانة الفرد ومكانة الجماعة، وكان بينهم وبين

الشورى سوء فهم شديد، إذ كيف يغيب عنه وهو الداعية أن البركة في الجماعة وأن يد الله مع الجماعة، وأن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد.

● ألا ما أكثر المحاذير في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية المحاذير النابعة من داخل الحركة!!! كأن المحاذير من خارجها ومن أعدائها الألداء لا تكفي لأن تجعل الحليم حيران!!!

● إن الصهيونية تقف للحركة الإسلامية بالمرصاد،

● وإن الصليبية تقعد لها بكل صراط تصد وتتحدى،

● وإن الإلحاد والعلمانية يتناوبان توجيه الضربات لها.

● وإن النظام العالمي الجديد يجند لها الجنود ويوزع قواعد العتاد على العالم الإسلامي لينطلق ضد الحركة الإسلامية من أقرب مكان هي فيه!!!

● وإن كثيرا من المسلمين حاكمين ومحكومين يترصدون الحركة الإسلامية كأنها داء أو وباء، غافلين عن أنهم يحاربون المعارك لحساب عدوهم عدو دينهم الذي سريعا ما ينقض عليهم بعد أن يؤدوا ما كلفهم به، وفي تاريخنا عشرات الشواهد على صدق ما نقول.

أقول: كأن كل هذه الأخطار المحدقة بالحركة الإسلامية من خارجها تعطي فرصة للتفكير في محاذير من داخل الحركة الإسلامية نفسها!!! ألا حسبنا الله ونعم الوكيل.

٣ – وعلى الدعاة والحركيين أن يتعلموا ويعلموا الناس أن رحمة الله للدعاة والمدعوين، وما يمنحهم من توفيق في العمل، وتحقيق بعض النجاح، وإتاحة الفرص التي بلغت بالحركة الإسلامية حدودا وأمداء ما كان أكثر الدعاة تفاؤلا يؤمها في هذا المدى الزمني القصير نسبيا، حيث أصبح للحركة الإسلامية حضور في كثير من بلدان العالم الإسلامي على الرغم من الحرب الضروس التي تشن عليها من المسلمين ومن غير المسلمين....

عليهم أن يتعلموا ويعلموا غيرهم أن هذه الرحمة وذلك التوفيق مشروط دائما بأن يحقق الناس في أنفسهم الإيمان والعمل الصالح وطاعة الرسول ﷺ.

وعلى قد ما تتحقق الشروط يتحقق المشروط!!! فهل يستوفي العاملون في الحركة الإسلامية تلك الشروط؟ إن دون ذلك كثير من فهم الإسلام والإخلاص في العمل له، والعمل والجهاد والتضحية والتجرد والثبات والأخوة الحقة في هذا الدين.

● إن على الذين يستبطئون نصر الله أن ينظروا في أنفسهم أولا ويتساءلوا قائلين: هل نحن أهل للنصر؟ هل حققنا الشروط؟ هل نحن الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات وأطاعوا الرسول ﷺ في كل ما جاء به؟

● وإن على الدعاة إلى الله أن ينبهوا الناس إلى أن واقع العالم الإسلامي اليوم في العقد الثاني من القرن الخامس عشر الهجري، ما بلغ هذا الحد من السوء، ولا بلغ هذا القدر من التراجع الحضاري إلا ومن بين الأسباب أن المسلمين أهملوا أو قصروا في تحقيق الإيمان والعمل الصالح وطاعة الرسول ﷺ، وأن طريق التخلص من هذا التراجع الحضاري[1] هي تحقيق شروط النهضة الحضارية التي ينتظر أن يحققها المسلمون في العصر الذي تعيشه بحكم أنهم بحوزتهم أكمل منهج وأتم نظام، وأطراف عديدة لحركة إسلامية جياشة في الشرق والغرب على السواء.

٤ – وعلى الدعاة والحركيين أن يتعلموا من الآيات القرآنية الكريمة وأن يعلموا المدعوين والمشاركين في الحركة الإسلامية، حقيقتين باهرتين باهيتين هما:

– أن الكفر وأهله والظالمين جميعا والصهاينة والصليبيين والنظام العالمي الجديد، وكل ما يحشدون للحركات الإسلامية من قض وقضيض، لن يستطيعوا أن يوقفوا الحركة الإسلامية فضلا عن أن يقضوا عليها، ولا أن يطفئوا وهجها الذي أخذ يسطع في العالم، لأن الله تبارك وتعالى أكد عجزهم عن ذلك، وعلى فرض أن

---

(١) انظر للتعرف على هذا التراجع الحضاري: للمؤلف: التراجع الحضاري في العالم الإسلامي المعاصر وطريق التغلب عليه. نشر دار الوفاء ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

أخذوا جولة أو جولات فإن مصيرهم إلى فشل وضياع، فقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

● قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ⑫ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

[آل عمران: ١٢]

● وقال جل شأنه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ⑰⑦ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٧، ١٧٨].

● وقال جل شأنه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

[الأنفال: ٣٦]

● وقال عز من قائل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢].

– وإن الحق وأهله منصورون ومؤيدون، مهما تطاول بهم زمن الانتظار إذا ما توفرت فيهم الشروط من إيمان وعمل صالح وطاعة لرسول الله ﷺ في كل ما جاء به.

لقد بشر الله سبحانه وتعالى بهذه الحقيقة في كتابه الكريم.

* قال الله تعالى:

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

● وقال جل وعلا:

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

[البقرة: ٢٤٩]

● وقال عز وجل:

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧].

● وقال سبحانه وتعالى:

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

افبعد تأكيد هاتين الحقيقتين بآيات القرآن الكريم تأكيد؟

إن ما على الدعاة في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية هو تثبيت هذه الحقائق في قلوب الذين آمنوا، ليواصلوا عملهم في الحركة الإسلامية ويخوضوا معاركهم واثقين في نصر الله لهم وفي كبت الذين كفروا ولو بعد حين.

إن هذه هي التربية التي تولد في الجنود إصرارا على المضي في طريق الحق، محتسبين عند الله ما يلقون من متاعب وأوصاب وهذا هو الذي يحقق النصر بإذن الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

* * *

الآيات من الثامنة والخمسين إلى الآية الستين

في: حكم استئذان الأقارب بعضهم على بعض

وفي حكم القواعد من النساء في الملبس والزينة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

■ توضح هذه الآيات الكريمة أحكام الاستئذان بالنسبة إلى الأقارب ـ بعد أن أوضحت آيات سابقة في السورة حكم الاستئذان على الأجانب(١).

فقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بأن يستأذن عليهم خدمهم مما ملكت أيمانهم، ويستأذنهم أطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم، في ثلاثة أوقات أو أحوال: من قبل صلاة الفجر لأن الناس حينئذ نيام في فرشهم، وفي وقت القيلولة، لأن الناس في العادة يضعون ـ أي يخلعون ـ ثيابهم في هذا الوقت، ومن بعد صلاة العشاء، لأن هذا وقت النوم.

فيجب أن يؤمر الأطفال دون الحلم والخدم ومن في حكمهم ألا يهجموا على

---

(١) وهي الآية السابعة والعشرون من هذه السورة الكريمة.

أهل البيت في هذه الأوقات أو الأحوال لما يخشى أن يكون الرجل على أهله أو نحو ذلك من الأمور التي لا يجوز شرعا أن يطلع عليها أحد حتى وإن كان الأطفال أو الخدم المماليك.

هذه الأوقات الثلاث عورات وحدها في هذا المجال، أما غير تلك الأوقات فلا حرج على الأطفال دون الحلم والخدم أن يدخلوا، لأنهم لا يتوقع أن يروا ما لا ينبغي أن يروه من حال الزوجين، ومنعهم من الدخول في سائر الأوقات فيه حرج ومشقة، لأن هؤلاء الأطفال والخدم طوافون بالبيت يغفر لهم ما لا يغفر لسواهم في الاستئذان.

أما إذا بلغ الأطفال الحلم فليستأذنوا حتى في الأوقات الأخرى غير الثلاثة الأوقات التي حددتها الآية الكريمة، فهم في هذا الاستئذان حكمهم كحكم الأجانب ولو كانوا يستأذنون على أبويهم.

وفي الآيات أحكام تخص المتقدمات في السن من النساء، وهن اللاتي لم تعد بهن حاجة إلى الرجال ولم يعد للرجال فيهن رغبة، هؤلاء النساء شرع الله لهن نوعا من التوسعة في لبس الملابس وفي إبداء الزينة أو مواضع الزينة كما بينا ذلك فيما سلف من الآيات - (1) حيث رخص الله لهن ألا يضربن بخمرهن على جيوبهن ، وألا يدنين عليهم من جلابيبهن كما هو حال الشواب من النساء، أي لهن أن يخلعن الثياب الظاهرة التي لا يؤدي خلعها إلى كشف عورة المرأة.

على أنهن إذا لم يخلعن تلك الثياب الظاهرة مع الاستمرار في ضرب الخمار وإدناء الجلباب، فذلك خير لهن وأكثر عفة لهن ولمن يراهن من الرجال لبعد ذلك عن التهمة والشبهة ولبعده كذلك عن مظنة التبرج.

---

(1) هي الآية الحادية والثلاثون من سورة النور.

● وفي الآيات الكريمة أكثر من أمر وأكثر من خبر، وأسلوب شرط تسهم كلها في توضيح الأحكام الشرعية الخاصة باستئذان الأبناء والخدم، وبالقواعد من النساء، ولبيان ذلك نقول والله ولي التوفيق.

– ينادي الله على المؤمنين فيأمرهم ـ وهذا هو الأمر الأول ـ بوجوب أن يستأذن عليهم أطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم بعد، والخدم مما ملكت أيمانهم في ثلاثة أوقات هي:

● قبل صلاة الفجر.

● وعند القيلولة.

● ومن بعد صلاة العشاء.

وذلك لأن هذه الأوقات يميل فيها الإنسان إلى أن يتخفف من ملابسه، وأن يختلي بأهله ـ زوجته ـ فوجب ألا يدخل على الزوجين أحد من أولئك في هذه الأوقات.

قال الواحدي في أسباب النزول كما ردد ذلك غيره من علماء التفسير: قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ بعث غلاما من الأنصار إلى عمر رضي الله عنه، ليدعوه، فوجده نائما في البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ عمر رضي الله عنه، فعاد وردّ الباب وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ، فقال الغلام: اللهم أيقظه لي، ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس، ودخل الغلام فانكشف من عمر شيء، وعرف عمر أن الغلام رأى ذلك منه فقال: وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق معه إلى رسول الله ﷺ فوجده قد نزل عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ...﴾ الآية.

فحمد الله تعالى عمر عند ذلك، فقال رسول الله: وما ذاك يا عمر؟ فأخبره بما فعل الغلام، فتعجب رسول الله ﷺ من صنعه، وتعرّف اسمه ومدحه، وقال:

إن الله يحب الحليم الحيي العفيف المتعفف ويبغض البذيء الجريء السائل الملحف[1].

فهذه الآية إحدى الآيات المنزلة بسبب عمر رضي الله عنه.

وفي رواية أخرى للواحدي أيضا وغيره من المفسرين: نزلت في أسماء بنت أبي مرثد، قالت: إنا لندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان في لحاف واحد.

وقيل: دخل عليهما غلام كبير في وقت كرهت دخوله فيه فاتت رسول الله ﷺ فقالت: إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حال نكرهها. فنزلت الآية.

وقال السُّدّي[2]: كان أناس من الصحابة رضي الله عنهم يحبون أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعات، ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة، فأمرهم الله تعالى أن يأمروا المملوكين والغلمان أن لا يدخلوا عليهم في تلك الساعات إلا بإذن.

«وقال الأوزاعي[3]: عن يحيى بن أبي كثير[4]: إذا كان الغلام رُباعياً - أي سقطت أربعة أسنانه اللبنية ونبت مكانها أسنانه الدائمة، فإنه يستأذن في العورات الثلاث على أبويه، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال، وهكذا قال سعيد بن

---

(١) جزء من حديث صحيح رواه البيهقي بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه. والحديث بتمامه: «إن الله تعالى إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه، ويكره البؤس والتباؤس، ويبغض السائل الملحف ويحب الحيي العفيف المتعفف».

(٢) السدّي هو: إسماعيل بن عبد الرحمن تابعي جليل من أهل الحجاز سكن الكوفة، وهو عالم بالتفسير ،والمغازي والسير، وكان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس توفي سنة ١٢٨هـ.

(٣) الأوزاعي هو عبد الرحمن بن عمرو (٨٨ – ١٥٧هـ) إمام الشام في الفقه والزهد، وكان مفتيا ومن كتبه: السنن في الفقه وكتاب المسائل في الفقه أيضا.

(٤) هو يحيى بن صالح بن أبي كثير الطائي بالولاء، عالم أهل اليمامة، أخذ من أعيان التابعين، وسكن اليمامة، وكان من ثقات أهل الحديث، وتوفي سنة ١٢٩هـ.

جبير[1][2]، وقد جاء ذلك في أسلوب شرط ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا...﴾ أداته: إذا. وفعله: بلغ. وجوابه: فليستأذنوا.

– وأما الخبر: فإن الله تبارك وتعالى يخبر المؤمنين بانه بين لهم آيات القرآن الكريم بعلمه وحكمته. ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

والمعنى - والله أعلم - أن الله تبارك وتعالى بيَّن فيما سلف من هذه السورة الكريمة أحكام استئذان الأجانب، وبيّن هنا أحكام استئذان الأبناء والخدم من المماليك.

وقد بيّن سبحانه هذا وذاك بيانا كاملا غاية الكمال، وهو سبحانه وتعالى عليم بما ينفع المؤمنين من تشريعات وأحكام، وهو سبحانه حكيم يضع كل حكم في موضعه الملائم الذي يحقق لمن التزم به صالح المعاش والمعاد.

– وخبر آخر: وهو بيان الله تعالى للمؤمنين حكم استئذان البالغين وهم في ذلك كالأجانب سواء بسواء أن يستأذنوا في سائر الأوقات وليس في تلك الأوقات الثلاثة فقط، بيّن الله تعالى هذا الحكم وختم بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وإضافة الآيات إليه سبحانه في قوله: ﴿آيَاتِهِ﴾ تشريف لما تضمنته من أحكام، وتأكيد لكونها منه سبحانه وتعالى، وختم الآيات بوصفه بالعلم والحكمة، لتأكيد أن هذه الأحكام نافعة لصدورها عن عليم وأنها ملائمة بل ضرورية لصدورها عن حكيم. كما أوضحنا ذلك في الآية الكريمة السابقة.

– وخبر ثالث: منه تعالى يخبر به المؤمنين بأحكام تخص القواعد من النساء تخفيفا عليهن وعلى من يحيط بهن، وهو الترخيص لهن بأمرين لم يكونا مباحين

(1) سعيد بن جبير تابعي. كان أعلمهم على الإطلاق وهو من أصل حبشي... تقدمت ترجمته في هامش هذا الكتاب.

(2) الإمام ابن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٠٣ مرجع سابق.

لهن أيام كنّ شوابّ وهما:

● الترخيص لهن في عدم ضرب الخمار على الجيب.

●والترخيص لهن بعدم إدناء الجلابيب.

وكلاهما من باب التيسير، وذلك أن شرع الله ونظامه ومنهجه يستحيل أن يحمل الناس مشقة أو يدخلهم في ضيق وحرج، بل هو دائما الذي يرفع الحرج والمشقة والضرر عن الناس، وهذا هو معنى الرخصة في كل أمر رخص فيه الشارع في حالة القواعد من النساء وغيرهن ممن لهم رخص.

غير أن هذه الرخصة للقواعد من النساء مشروطة بألا يصاحبها تبرج بزينة.

وهي رخصة مصحوبة بنصيحة غالية لدفع الشبهة وغيرها، وهي التصريح بأن الاستعفاف بضرب الخمر على الجيوب وإدناء الجلابيب خير وأفضل. فالاستعفاف عزيمة، والله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه، والعزائم دائما في جانب الأفضل والأخير من الأمور، ولكن الإنسان مخير في الاستفادة بالرخصة أو الأخذ بالعزيمة ولا لوم عليه في هذا ولا ذاك.

وختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يوحي بالتحذير من التوسع في استعمال هذه الرخصة أو اتخاذها ذريعة لما لا يحمد أو لا يليق. فهو سبحانه يسمع ما تحدثهن به أنفسهن من المقاصد، وهو سبحانه عليم بكل أحوالهن ودخائلهن في وضع الثياب المؤدي أحيانا إلى التبرج، وهو سبحانه محاسب على ذلك، لأن الأصل هو العفة والاستعفاف.

■ المواقف التربوية العامة في هذه الآيات الكريمة، وهي كثيرة نذكر منها ما يلي:

١ - يتعلم المسلمون من هذه الآيات الكريمة أن الإسلام بنظم حياة الناس في كل ظروفهم مع الأجانب عنهم من عموم الناس ومع الأقارب ممن يعيشون معهم من الأبناء والخدم والمملوكين.

ينظم الإسلام لهم كل هذه العلاقات، ويحدّد لهم ما يجب في مجال الاستئذان عليهم لدخول البيوت، كما أوضحت ذلك الآيات الكريمة التي شرحناها آنفا، سواء أكان الأبناء ممن بلغوا الحلم أو لا يزالون أطفالا.

ومعنى ذلك أن شريعة الإسلام تنظم للناس كل شئونهم حتى ما لم يشتمل عليه القوانين التي يضعها الناس بعضهم لبعض، إن ذلك يعلمنا أن الالتزام بكل تفاصيل الأحكام والأخلاق والآداب التي جاء بها الإسلام كما هو الأصل وهو السبب في أن يسعد الإنسان في دنياه وآخرته.

● وإن الدعاة إلى الله يجب أن يتنبهوا وينبهوا إلى أن الإخلال بأي من هذه التفصيلات الدقيقة في نظام الأسرة يؤدي إلى الإخلال بالمجتمع كله، بل يؤدي إلى التراجع الحضاري جملة، فضلا عن تعويقه للحركة الإسلامية في مجالات عملها العديدة.

● وإن المشاهد أن بعض الناس - إن لم أقل كثيرا منهم - ينظرون إلى هذه الأحكام التفصيلية في أدب الاستئذان على أنها كماليات أو ثانويات، وهذا خلل في فهم الإسلام ينم عن غفلة وضياع.

إن الإسلام كل لا يتجزأ وكل حكم من أحكامه أو خلق من أخلاقه له نفس الأهمية في بناء المجتمع والحضارة كلها، له نفس الأهمية التي لأي حكم آخر، وعلى سبيل المثال:

فإن حكم الزواج والطلاق والخلع والظهار واللعان والإيلاء لا يزيد كثيرا ولا قليلا عن حكم الاستئذان بالنسبة للأقارب أو الأجانب، وحكم الحرب والقتال للفئة الباغية حتى تفيء لأمر الله ليس أهم من حكم الغيبة والنميمة وقذف المحصنات من المؤمنات.

وحكم النهي عن الغش والتجسس والظلم والكذب ليس أهم من حكم غض البصر ونحوه من الأحكام.

إن من يفرق بين هذه الأحكام هو ممن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض أو يؤمنون وجه النهار ويكفرون آخره.

وإن معنى ذلك أن الإسلام كل لا يتجزأ، وأن فعاليته في إقامة المجتمع المسلم تقل أو تهبط ما لم يكن هناك التزام بكل التفصيلات في أحكام الإسلام.

● إن واجب الدعاة والعاملين في الحركة الإسلامية إزاء كل هذه التجاوزات كبير وخطير.

● ولا بد هنا من الإشارة إلى أن الحركة الإسلامية لا تخلو من هذه التجاوزات!!! وذلك مما يصعب مهمة الدعاة إلى الله مهمة أخرى.

٢ – ويتعلم المسلمون من الآيات الأسلوب الأمثل في النوم والراحة داخل البيوت، فلا بد من احترام أوقات الراحة فيها، وإذا كانت الآيات حددت أوقاتا يجب أن يستأذن فيها الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم على والديهم، وكذلك الخدم من المملوكين، فإن هذا يعد رمزا وإشارة إلى احترام أوقات النوم والراحة داخل البيوت.

● إن الآيات تعلمنا أن النوم بعد العشاء وإلى قبيل الفجر، ومعنى ذلك أن السهر فضلا عن الإسراف فيه مما يخالف شرع الله ونظامه، وحسب الساهر أو المفرط في السهر أنه لا يقوم لصلاة الفجر أو يقوم فاترا كسلان، وليس من شأننا هنا أن ننبه إلى فائدة النوم مبكرا والنوم في الليل الذي جعله الله سباتا، فإن ذلك من شأن الأطباء المسلمين أو العلماء المسلمين الذين يهتمون بصحة جسم الإنسان.

ولكننا نؤكد أن كل ما شرعه الله تعالى يحقق للإنسان صحته الجسمية والعقلية والنفسية.

● وكذلك شأن القيلولة، وهذا القسط من الراحة بعد عناء عمل امتد من ابتداء الصباح حتى صلاة الظهر أي ما يقرب من ست ساعات، تحوج العامل المخلص المنتج إلى أن يطلب الراحة فيقيل من بعد صلاة الظهر إلى ما يقرب من صلاة العصر،

وذلك هو ما يجب أن يكون نظام العمل في المجتمع المسلم، وإن تلك الساعات هي ساعات العمل والإنتاج ـ وقد أخذ الجسم حظه من النوم ليلا ـ وله أن يستروح بعد هذا العناء.

ولذلك فقد جاء على لسان المعصوم ﷺ ما رواه الطبراني[1] في الأوسط بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قيلوا فإن الشياطين لا تقيل» وما دام الرسول ﷺ قد قال ذلك فإن في القيلولة فائدة جسمية عقلية نفسية للإنسان.

٣ ـ ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة أن الشريعة الإسلامية فيها توسعة على عباد الله، فيما لا يغضب الله، فقد رفع الله الحرج والجناح عن الأطفال والخدم، والآباء المخدومين، فيما وراء هذه الأوقات الثلاثة، فلهم أن يهجموا على البيوت في غير هذه الأوقات دون أن يستأذنوا، لأن هؤلاء من شأنهم أن يطوفوا بتلك البيوت، لحاجتهم وحاجة البيوت، وتغتفر الشريعة في الطوافين، ما لا تغتفر في سواهم.

● ومن البلوى أن الناس لا يتقيدون بأحكام الاستئذان دائما كان ذلك وما يزال شأن كثير من الناس، لأسباب لا يمكن أن تكون مقبولة إلا عند ضرورة.

وربما تهاون الناس في أحكام الاستئذان داخل بيوتهم لأنهم لا يرون آثارا خطرة تترتب على التهاون فيها، وهذا وهم وخطأ فما دام الإسلام قد جعلها من أحكامه فلا بد أن تكون مخالفتها ذات خطر كبير.

وأبسط أخطارها في تصوري خطأ يقع في تربية الأطفال وهو عدم انضباطهم عندما يكبرون، لأنهم لم يعتادوا هذا الانضباط داخل بيوتهم وهم أطفال، وقد كان الأصل أن يتعلموا ذلك منذ نعومة أظفارهم.

---

(١) هو: سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي (٢٦٠ ـ ٣٦٠هـ) وقد تقدمت ترجمته في هذا الكتاب.

ولقد أنكر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على الناس في أيامه أيام الصحابة رضوان الله عليهم أنهم تركوا العمل بثلاث آيات كريمة، ونعى عليهم هذا الترك.

روى أبو حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن»:

● ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ...﴾.

● ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

● ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ..﴾ [النساء: ٨].

● وإن الشريعة الإسلامية ـ وإن كانت فيها توسعة على الناس ـ فإن من الواجب التقيد بكل ما جاءت به من تفصيلات، لأن الله تبارك وتعالى بيَّن للناس ما بيَّن على علم بما يصلحهم وعلى حكمة في اختيار ما يلائمهم.

٤ – ويتعلم المسلمون من الآيات الكريمة أن القواعد من النساء وإن سمحت الشريعة لهن بوضع الثياب وترك ضرب الخُمُر على الجيوب، وترك إدناء الجلابيب، إلا أن كل ذلك مشروط بعدم التبرج ـ أي إظهار ما لا يصح إظهاره من مواضع زينتهن.

فقد روى ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن الخضاب والصباغ والتمايم ـ وهي حقاق من فضة توضع فيها تمايم ومعاذات تعلقها المرأة ـ والقرطين والخلخال وخاتم الذهب ورقاق الثياب، فقالت: «أحل الله لكم الزينة غير متبرجات لمن لا يحل لكنّ أن يروا منكن محرما» فأحالت بقولها ـ هذا ـ الأمر على المعتاد والمعروف بين الناس.

ومعنى هذا، أن يتعامل القواعد من النساء مع هذه الرخصة التي منحتها لهن الشريعة بهذا الشرط «غير متبرجات» وهو شرط يُراقبه الإنسان بنفسه. وأن تتعامل القواعد من النساء مع الآية الكريمة: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

■ وأما المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة فكثيرة، نذكر منها ما يلي والله الموفق:

١ – أن يتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية، وأن يعلموا الناس أن التقيد الدقيق بشرع الله ونظامه هو الأصل وهو الصواب حتى في تلك الأمور التي يراها بعض الناس هينة وبسيطة، كوجوب استئذان الأبناء الذين لم يبلغوا الحلم والخدم من المملوكين على الآباء.

ومع أن التقيد الدقيق بأحكام الشريعة هو الأصل إلا أنه مع ذلك علاج ناجح لأدواء الناس وأمراضهم، ما خفي منها وما ظهر، وعلى سبيل المثال نقول:

● من تعوّد التقيد الدقيق بما أمرت به الشريعة، وما حبَّبتْ فيه، واجتنب ما نهت عنه في الطعام والشراب والنوم والراحة واليقظة عاش صحيحا دينيا وعقليا ونفسيا واجتماعيا بل عاش قويا في كل ذلك، وقادرا على أداء عبادته وعمله على أحسن الوجوه وأتمها وأرضاها لله.

● ومن تقيد بدقة بما شرع الله في العمل والكسب فالتزم فيه بما أحل الله واجتنب ما حرّم، أقبل على عمله بلذة وانشراح ورغبة في التجويد والإحسان ورغبة في زيادة الإنتاج، ونال من ذلك ربحا حلالا وعاش به هانئا قانعا ناعم البال شاعرا بالرضى والبركة في كل ما يحيط به من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وأهل وولد، وتلك أبسط نتائج الرزق الحلال وأما باقي نتائجه فرضا الله تبارك عنه.

● ومَنْ تقيّد بدقة بتفصيلات الشريعة الإسلامية في القيام بواجبات الدعوة إلى الله، هَدَى الله على يديه من شاء من عباده، وكان له من وراء ذلك الخير الكثير في الدنيا والآخرة، فقد روى أبو داود بسنده عن سهل بن سعد رضي الله عنه [1] قال:

---

(١) هو سهل بن سعد الخزرجي الانصاري من بني ساعدة (٠٠٠ – ٩١هـ) صحابي من مشاهير الصحابة من أهل المدينة كان اسمه حَزْنا فسماه الرسول: سهلا وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة رضوان الله عليهم، له في كتب الحديث ١٨٨ حديثا رضي الله عنه.

قال رسول الله ﷺ: «والله لان يهدى بهداك واحد خيرٌ لك من حمر النعم».

وروى الإمام مسلم بسنده عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور مَنْ تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا...».

● ومن تقيد بتفصيلات أحكام الشريعة بدقة في مجال الحركة الإسلامية، أدرك أنه محظوظ ماجور موفق عند الله تبارك وتعالى، لان الحركة تقوم على الاختلاط بالناس وحبهم وحب الخير لهم والصبر عليهم وعلى ما يبدر منهم، وتقديم العون لهم، وربطهم بادب هذا الدين وتشجيعهم على الالتزام بتلك الاحكام والآداب، وكل هذا العمل من أقرب القربات إلى الله تعالى، وجزاؤه من أحسن الجزاء وأوفاه عنده سبحانه وتعالى، فقد روى الترمذي بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على اذاهم، أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على اذاهم».

ورواه أحمد في مسنده، والبخاري في الأدب المفرد، وابن ماجة في سننه، وكلهم رواه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: «ثلاث عورات لكم، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم» ان الشريعة الإسلامية رحيمة بالناس، وانها باحكامها تقدر كل الظروف وتشرع للناس ما يلائمهم ويكون يسيرا عليهم.

– مرونة الدعاة وسماحتهم مع المدعوين:

● وعلى الدعاة والحركيين أن يتعلموا من ذلك أن تكون لديهم مرونة وسماحة وحسن تقدير لظروف الناس وهم يتعاملون مع المدعوين، وان يقتنعوا بان تقدير بعض الظروف والضرورات لدى المدعوين، أمر حيوي لتيسير العمل في الدعوة والحركة على الناس، وتسيير دولابه.

● إن بعض الدعاة قد يكون ممن منحهم الله مزيدا من القوة ومزيداً من الصبر على التحمل، ومزيدا من القدرة على العمل وهذا من فضل الله عليه وعلى الدعوة التي يدعو إليها.

لكن ليس لهذا الداعية المفضال أن يحمل المدعوين على أن يؤدوا للدعوة مثل ما يؤدي، لأن القاعدة الأساسية في العمل لله عبادة ودعوة وحركة هي: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها».

إن هؤلاء الدعاة عندما يحملون المدعوين على مثل ما يستطيعون هم من جهد وطاقة إنما يرتكبون أخطاء في مجالي الدعوة والحركة نذكر منها ما يلي:

■ أنهم يشقون على المدعوين وليس في ديننا ولا دعوتنا مشقة ولا حرج.

● وأنهم يلقون في روع المدعوين أن العمل في الدعوة إلى الله عناء وصبر لا استرواح معه، وليس هذا بصحيح وإنما الاسترواح مطلب لا يعاب صاحبه إلا إذا أسرف فيه.

● وأنهم قد ينفرون أصحاب الجهود المحدودة، إذ يرون أن ما يؤدونه أقل مما يجب فإذا هم نافرون أو واجفون، هذا ليس بصحيح أيضا لأن الإنسان لا يطالب بما لا يطيق، والله سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها ـ كما جاء ذلك في كتابه الكريم.

● وأنهم يربطون بسلوكهم هذا بين الدعوة والعناء، والاصل أن يمارس الناس الدعوة إلى الله كما لو كانوا يمارسون أبسط أعمالهم في الحياة، لأن ديننا يسر ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، ولأنّ المغالي في عمله سريعا ما يفتر لكثرة ما بذل.

● وأنهم يتجاهلون أو ينسون المبدأ النبوي الكريم الكامن في قوله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن قيس بن مسعود الانصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول، فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ، فقال: يا أيها

الناس إن منكم منفرين، فأيكم أم بالناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والضعيف وذا الحاجة» فهذا مبدأ رفيع القدر من أمّ بالناس فليخفف أو فليوجز من أجل الناس.

إن هذا لمن أعظم الدروس للدعاة إلى الله، فليخففوا عن المدعوين ولا يطالبوهم بمثل ما يطالبون به أنفسهم إذا كانوا من العزائم.

لكن ليس معنى ما نقول أن تفتر الهمم أو تتراخى العزائم أو يتهاون الناس بأمر الدين والدعوة كيلا يجهدوا أنفسهم!!!

إن المعيار الصحيح أن يعطي كل إنسان كل ما يستطيع مع ترك هذه الاستطاعة كمها ونوعها لعلاقة الإنسان بربه تبارك وتعالى الذي خلقه وأعطاه الطاقة ويعلم عنه ماذا يستطيع وماذا لا يستطيع.

٣ – ويتعلم الدعاة والحركيون من قوله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللاَّتِي لا يَرْجُونَ نِكَاحاً...﴾ الآية.

يتعلمون منها أن من رُفع عنه الحرج وسمح له أن يترخص، فإن ذلك حقه إن شاء استعمله ولا عليه من جناح، وإن شاء لم يستعمله فكان ذلك خيرا له عند الله، لأن ترك الترخص عزيمة وإحسان.

– بين الرخصة والعزيمة:

● والمعنى الذي يفيده الدعاة والحركيون من مبدأ الرخصة والعزيمة أمور كثيرة نافعة في مجال العمل من أجل الإسلام نرصد منها في هذه المناسبة ما يلي:

● أن يجدّوا ويشمروا في العمل من أجل الدعوة والحركة وأن يأخذوا بالعزيمة ما وسعهم فإن عظائم الأعمال تحتاج إلى عزائم الرجال، وأمر الدعوة والحركة من أعظم الأعمال التي يمارسها الدعاة، وحسبهما شرفا أنهما امتداد لعمل رسول الله ﷺ.

ولو لم يكن أهل الدعوة والحركة من أصحاب العزائم والإحسان لم يستطع العمل الإسلامي أن يثمر ثمرته المرجوة لينتقل المسلمون به من حال الغفلة والتراجع

التي يعيشون إلى حال اليقظة والجد، وإمساك الزمام والوصول بالعمل إلى أهدافه الكبرى وهي التمكين لدين الله في الارض.

● وأن لا يهرول الدعاة والحركيون إلى الترخص في العمل، والتخفيف من أعبائه وعنائه مستندين إلى ما يتاح لهم من الرخص، فإن تلك الهرولة إلى الترخص قد تصيب الإنسان بنوع من تبرير الهروب من الأعباء، أو تأجيلها أو تأجيل البت فيها، وهذا يعني أن تتوقف مواكب الدعاة وأن تصاب بما يشبه الشلل، وأن تبدو الأمور كما لو كانت قد أجلت إلى أن يزول الفتور والكسل، وما هناك فتور ولا كسل ولكنه الإسراع إلى الترخص المؤدي إلى تأجيل العمل.

● وأن يمتنع الدعاة والحركيون عن إلزام غيرهم بالعزائم فإن هذا الإلزام يجب أن يكون نابعا من داخل الإنسان لا مفروضا عليه من غيره، فإن اختل هذا في نفوس بعض الدعاة فاحتاجوا إلى من يذكرهم بالعزائم توقفت مواكب الدعاة عن قطع مراحلها بالتوقيت الزمني الملائم، بل ربما أصابها الترهل والعجز.

● وأن يتأمل الدعاة والحركيون في دقائق العمل من أجل الإسلام وتفاصيله وهي كثيرة كثرة بالغة، وأن يوازنوا في هذه المفردات بين ما يجوز أن يترخصوا فيه، وما يجب أن يأخذوا فيه بالعزائم، وألا يتركوا الأمور دون تمحيص وتحديد للأولويات.

الآيات من الحادية والستين إلى الرابعة والستين آخر السورة

في: رفع الحرج عن الزمنى عموما، ورفعه عن عموم الناس من الأكل في البيوت بشروط، وتوضيح لبعض صفات المؤمنين، وفي أدب مخاطبة الرسول، وفي تأكيد حساب الله تعالى لجميع خلقه

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

■ هذه الآيات الأربع الكريمة آخر سورة النور، اشتملت على أمور هي - والله أعلم -:

● توضيح بعض الأحكام الشرعية والقيم الخلقية في مجال العلاقات الاجتماعية.

● وبيان ما يميز المؤمنين من صفات وأخلاق.

● وتعليم لأدب مخاطبة النبي ﷺ ونداله ووجوب استئذانه، وطاعته والتحذير من مخالفة أمره.

● وتأكيد أن الله تبارك وتعالى إليه المرجع والمآب والحساب والجزاء.

● وتشتمل هذه الآيات الأربع الأخيرة من السورة الكريمة على:

أكثر من خبر، وأكثر من شرط، وعلى أكثر من أمر، وعلى نهي واضح صريح.

وبيان ذلك فيما يلي - والله المستعان:

- أما الخبر الأول: ففي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ....﴾ الآية.

فهو سبحانه يخبر في هذه الآية الكريمة أنه رفع الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض.

● والحرج في اللغة: الضيق، وفي الشريعة الإثم.

ورفع الضيق والإثم عن هؤلاء الثلاثة إنما هو في الأمور التي يحول عجزهم فيها بينهم وبين أدائها على وجهها الأكمل وبيان ذلك:

● أن الحرج مرفوع عن الأعمى في التكاليف التي يشترط فيها البصر.

● ومرفوع عن المريض في التكاليف التي يؤثر المرض في إسقاطها عنه كالصوم والجهاد ونحوها.

● وقد رفع الله عن هؤلاء الثلاثة الحرج في الجهاد، لأنهم لا يستطيعون القيام بأعبائه، ويؤيد ذلك ما جاء في الآيات الكريمة التي رفع الله بها الحرج عن أمثال هؤلاء في الجهاد، في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن

سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾.

[التوبة: ٩١، ٩٢]

● ويمكن أن يكون رفع الحرج عن المسلمين في الأكل مع هؤلاء الثلاثة في هذه الآيات من سورة النور.

وذلك أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات فربما سبقه غيره إلى ذلك، ومع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس، فيفتات عليه جليسه، ومع المريض لأنه لا يستوفي من الطعام كغيره، فكره المسلمون أن يؤاكلوا هذه الثلاثة حتى لا يظلموهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية رخصة لهم في مؤاكلة هؤلاء.

وهذا قول سعيد بن جبير وغيره من العلماء.

وقال الضحاك[(١)]: كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرا وتقززا، ولئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه الآية.

● وقال عبد الرزاق[(٢)]: رفع عنهم الحرج، لأن الرجل كان يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته أو بيت خالته،

---

(١) هو الضحّاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم (... - ١٠٥هـ) ولد ببلخ وكان يقيم بمرو حينا وببخارى حينا وبسمرقند حينا، وهو من تابعي التابعين بخراسان، كان ممن عنوا بعلم القرآن الكريم عناية شديدة مع لزوم الورع، وكان معلم كتّاب يعلم الصبيان بلا أجر لقي سعيد بن جبير في الري فأخذ عنه التفسير، وغلط من قال إنه لقي ابن عباس رضي الله عنهما وأخذ عنه.

(٢) هو: عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري مولاهم أبو بكر الصدفاني (١٢٦ - ٢١١هـ) من حفاظ الحديث الثقات، من أهل صنعاء، كان يحفظ نحوا من سبعة عشر ألف حديث. من مؤلفاته: الجامع الكبير في الحديث، وكتاب في تفسير القرآن الكريم لا يزال مخطوطا قال عنه الذهبي: وهو خزانة علم.

فكان الزمنىٰ يتحرجون من ذلك يقولون: إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم فنزلت هذه الآية رخصة لهم.

● وقال السُّدِّي[١]: كان الرجل يدخل بيت أبيه أو أخيه أو ابنه فتتحفه المرأة بشيء من الطعام، فلا ياكل من أجل أن رب البيت ليس ثَمَّ، فقال الله عز وجل: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ... ﴾ الآية.

● والبيوت التي رخص الله للمسلم ان ياكل فيها دون حرج ـ كما وردت في الآية الكريمة ـ هي:

● بيوت الأمهات والجدات.

● وبيوت الإخوان.

● وبيوت الأخوات.

● وبيوت الأعمام والعمات.

● وبيوت الأخوال والخالات.

● والبيوت التي في أيديهم مفاتحها، وهم قيِّمون عليها.

● وبيوت الأصدقاء.

■ وحكم الاكل من هذه البيوت الإباحة لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾.

قال قتادة[٢]: كان الحي من بني كنانة يرى أحدهم ان مَخْزاةً عليه ان ياكل وحده في الجاهلية، حتى إن كان الرجل يسوق الذَّود[٣] الحُفَّل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه، فانزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا

---

(١) السدي: سبقت ترجمته ص٤٠٢ من هذا الكتاب.

(٢) قتادة سبق ترجمته هذا الكتاب.

(٣) القطيع من الإبل من ثلاثة إلى عشرة. وحفل: ممتلئ ضرعها باللبن.

﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فهذه رخصة من الله تعالى في ان ياكل الرجل وحده ومع الجماعة، وإن كان الاكل مع الجماعة ابرك وافضل.

وفي بركة الاكل في جماعة ما رواه ابن ماجة[1] بسنده عن عمر رضي الله عنه ان قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا جميعا ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة».

– وأما أسلوب الشرط الذي اشتلمت عليه الآية ففي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ..﴾ الآية وتوضيح اركانه كالتالي:

إذا: أداة الشرط.

دخلتم: فعل الشرط.

فسلموا: جواب الشرط.

والمعنى - والله أعلم - ليسلم بعضكم على بعض، حتى لو دخل الإنسان على أهل بيته، أو دخل بيتا ليس فيه أحد، فليقل في كل حال: السلام عليكم أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

روى البزار[2] بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: أوصاني النبي ﷺ بخمس خصال قال: «يا أنس: أسبغ الوضوء يزد في عمرك، وسلم على من لقيك من أمتي تكثر حسناتك، وإذا دخلت - يعني بيتك - فسلم على أهلك يكثر خير بيتك، وصل صلاة الضحى، فإنها صلاة الأوابين قبلك - يا أنس ارحم الصغير، ووقر الكبير تكن من رفقائي يوم القيامة».

---

(١) هو محمد بن يزيد الربعي القزويني ابو عبد الله ابن ماجة (٢٠٩ – ٢٧٣هـ) احد ائمة علم الحديث من أهل قزوين رحل إلى البصرة وبغداد والشام ومصر والحجاز والري في طلب الحديث له كتاب: سنن ابن ماجة. وهو احد الكتب الستة المعتمدة في السنة، وله تفسير القرآن، وكتاب في تاريخ قزوين.

(٢) البزّار: سبقت ترجمته في هذا الكتاب.

■ وإخبار من الله تعالى للمؤمنين بانه يبين لهم الآيات والدلائل ليزدادوا فهما وتعقلا: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ حيث بيّن الله تعالى للناس آياته في الاستئذان وفي الرخصة في الطعام مع الزَّمْنَى، وفي الرخصة من الاكل في البيوت التي حددتها الآياة الكريمة، بيّن لهم ذلك على رجاء ان يحصل لهم فهم وتعقل لهذه الأحكام العظيمة التي ترفع عنهم الحرج، فإذا حدث هذا الفهم والتعقل تبعه عمل بهذه الأحكام فكانت مصلحة الدنيا والآخرة.

■ وإخبار من الله تعالى عن بعض صفات المؤمنين الصادقين في إيمانهم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ... الآية﴾ وهذه الصفات هي:

● الإيمان بالله، وما يستتبعه مما شرحناه آنفا.

● والإيمان برسوله محمد الخاتم ﷺ: وما يستتبعه من سمع له وطاعة في كل ما جاء به.

● وأنهم إذا كانوا عند الرسول ﷺ لم يقوموا من مجلسه حتى يستاذنوه، وهذا هو أدب الانصراف أو الخروج من المجلس، بعد أن عرفنا الله أدب الدخول إلى البيوت أو المجالس في آيات سابقة من هذه السورة الكريمة[1].

وأوجب ما يكون الاستئذان للانصراف من المجالس إذا كان المجلس مع رسول الله ﷺ، أما مع سائر مجالس المسلمين فهو واجب، كما يفهم من فحوى هذه الآية الكريمة.

تلك صفات المؤمنين كما ذكرتها هذه الآية الكريمة.

– ومن أدب الإسلام في الانصراف أن من استأذنه أحد من الناس في الانصراف من بيته أو من مجلسه أن يسمح له بالانصراف وأن يستغفر له، لأن ذلك

---

(١) هي الآية رقم ٢٧ وما بعدها من سورة النور.

أمر به النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ﴾.

وختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يوحي بان الله تبارك وتعالى سوف يقبل هذا الاستغفار ويغفر لهم.

وحول الآية الكريمة ظروف وملابسات نوضحها فيما يلي:

● كان من شأن المنافقين إذا كانوا مع رسول الله ﷺ في أمر جامع يهم المسلمين، ويحتاج فيه إلى استشارتهم، أن يتسللوا في مجلسه دون استئذان، تفاديا لأي تكاليف بعمل يكلفون بها في نهاية المجلس، فهو هروب من تحمل المسئولية في الحقيقة، فنعى الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك وأوضح أنه منافٍ للإيمان، وأنه من شعار المنافقين، وقد فهم ذلك من الآية لوصف الله تعالى للمؤمنين بأنهم لا يذهبون عن مجلس رسول الله ﷺ حتى يستأذنوه والمعنى أن المنافقين هم الذين يتسللون دون استئذان.

● والآية تعلمنا أن الاستئذان في الانصراف عن المجلس لا يكون إلا لشأن من الشئون الهامة في الحياة ما دام المجلس في انعقاد. فذلك شأن المؤمنين لا ينصرفون إلا في انتهاء المجلس أو يستأذنون إن كان لديهم شأن هام من شئونهم، وتقدير هذا الشأن الهام متروك لهم ولا افتيات على نياتهم وإنما أمرهم في ذلك كله إلى الله.

وعند الاستئذان فإن القرآن الكريم يعلمنا من خلال خطابه للنبي ﷺ: «فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فاذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله» ما يلي:

● أن نسمح لمن استأذن أن ينصرف.

● وأن ندعو له بالمغفرة، لأنه وقد استأذن وسمح له بالانصراف قد فاته عمل يقربه إلى الله وهو المشاركة في تدارس أمور المسلمين، ورجح عليه مصلحة مّا.

● وقال بعض المفسرين للقرآن الكريم:

هذه الآية الكريمة أصل في نظام الجماعات التي تتكون أو تنعقد لبحث مصالح المسلمين، وهي اجتماعات قد تكون واجبا أو واجبا كفائيا أو مندوبا إليها بالنظر إلى الموضوعات التي تبحث الظروف والملابسات التي تحيط بالمسلمين.

والأصل في كل تجمع للمسلمين على أي مستوى من مستوياته أن يكون له أمير أو رئيس يديره ويدبر أمره، لأن السنة النبوية المشرفة جاءت بذلك فقد طالبت أي ثلاثة في أمر هام أن يختاروا من بينهم أميرا، فقد روى أبو داود بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم» والذي يُختار يرأس الجمع يكون قائماً مقام ولي أمر المسلمين، وما ينبغي أن ينصرف أحد من مجلس يعقده هذا الآمر إلا إذا استأذنه وكان الاستئذان لسبب لبعض شأنه، كما ذكرت الآية الكريمة.

هذا أدب الإسلام في الانصراف من المجالس.

– وأما النهي الوارد في الآية ففي قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا... ﴾ الآية.

وهذه الآية الكريمة تنهى المسلمين أن ينادى الرسول باسمه كما ينادي بعض المسلمين بعضا، وإنما ينادى بما كرمه الله به من نبوة أو رسالة، فيقال له عند ندائه أو مخاطبته:

يا رسول الله أو يا نبي الله.

وهذا هو معنى الآية والله أعلم.

ولإتمام الصورة الصحيحة التي شرعها الله تبارك وتعالى للتعامل مع رسول الله ﷺ نذكر ما يلي:

● الالتزام بالحضور إلى الرسول ﷺ إذا وجّه الدعوة إلى أحد من المسلمين مهما كانت مشاغله، حتى لو كان في صلاة وناداه رسول الله كما ثبت ذلك في السنة النبوية.

ويفهم من الآية: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ...﴾ أن نداءه كما قلنا، أو دعوته لأحد المسلمين، ليست كدعوة أي مسلم لأخيه المسلم، وإنما لها ميزة تخصها.

– ولا يجوز لمسلم أن ينادي على رسول الله ﷺ من بعيد أو من وراء حجراته التي كان يسكنها، لأن ذلك قد نهي عنه بشكل مباشر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

ويفهم ذلك أيضا من الآية الكريمة: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا...﴾.

● ولا يجوز لأحد من المسلمين وهو ينادي رسول الله ﷺ بلفظ النبوية أو الرسالة أن يرفع صوته بحيث يكون أعلى من صوت النبي، لأن ذلك منهي عنه مباشرة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

ويفهم هذا أيضا من آية سورة النور: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا...﴾.

– ومما يفهم من هذه الآية الكريمة - كما يرى بعض المفسرين - النهي عن أن يعتقدوا أن دعاء النبي ﷺ على غيره، مثل دعاء غيره، فهذه المثلية غير واردة لأن دعاء النبي مستجاب.

والمعنى - والله أعلم - احذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا، حكى ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا أيضا يفهم من قوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا...﴾.

– ويحتمل أن تكون الآية الكريمة: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ...﴾ تعريفا بالمنافقين الذين تمالئوا فيما بينهم واتفقوا على التخلف عن رسول الله ﷺ إذا

دعاهم، كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، والمعنى عندئذ هو: لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كما جعل المنافقون فيما بينهم وتواطئوا على ذلك.

● ومن الأخبار في الآية الكريمة: إخبار الله تعالى للنبي ﷺ وللمسلمين بانه جل شان يعلم الذين يتسلللون من مجلس رسول الله ميلاً عن كتاب الله وعن رسوله، أو خلافا لأمر الله ورسوله، وقد أكد القرآن الكريم هذا الخبر بكلمة «قد» التي تفيد التحقيق في قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾.

● ومن الأوامر الواردة في الآيات الكريمة: الأمر بتحذير المسلمين من مخالفة أمر الرسول ﷺ، أو هديه في أي أمر قول أو فعل، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

● وأمر الرسول ﷺ هو:

شرعه ومنهجه وطريقه وسنته وسبيله، وأمره ونهيه وكل ما جاء به.

والمعنى ـ والله أعلم ـ هو وجوب أن تُوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق منها ما جاء به الرسول ﷺ قبل، وما خالف ما جاء به رفض ورُدّ على قائله أو فاعله، كائنا من كان القائل أو الفاعل لأن ما جاء به النبي ﷺ هو الميزان الصحيح الذي توزن به أقوال المسلمين وأعمالهم، وليس ذلك لأحد إلا له لأنه المعصوم.

وقد روى الإمام أحمد والإمام مسلم بسنديهما عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رَدّ».

فالتحذير في الآية الكريمة من مخالفة شريعة الرسول ومنهجه ظاهرا كان هذا الخلاف أو باطنا، لأن من خالف الشريعة والمنهج وقع في أحد الأخطار التي تحدثت عنها الآية الكريمة وهي:

● أن تصيبه فتنة بالنفاق.

● أو يصبح كافرا بهذه المخالفة.

● أو يتعرض لعذاب اليم فيقتل بما فعل أو يعاقب.

وذلك يفهم من قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقد روى البخاري بسنده، وكذلك مسلم والترمذي واحمد، كلهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي كمثل رجل استوقد نارا، فلما اضاءت ما حولها، جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار، يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فذلك مثلي ومثلكم، انا آخذ بحجزكم عن النار: هَلُمَّ عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني فتقتحمون فيها».

وفي رواية للإمام مسلم بسنده عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا، فجعل الفراش والجنادب يقعن فيها وهو يذبهن عنها، وانا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلتون من يدي».

– ومن الاخبار في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ حيث يخبر سبحانه وتعالى بانه مالك السموات والأرض ، يعلم ما عليه خلقه من حال ظاهره أو باطنه، بحيث لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو سبحانه مالك يوم الدين وإليه المرجع فينبئ كل إنسان بما عمل ويحاسبه ويجازيه.

وحرف «ألا» في مستهل الآية يدل على التنبيه، أي تنبيه الناس على تلك الحقائق الهامة التي تضمنتها الآية الكريمة مما أوضحناه.

وهذه الآية الكريمة تؤكد عددا من الحقائق نشير إليها فيما يلي والله المستعان:

● ان محتوى الآية الكريمة هام للناس في معاشهم ومعادهم لانها قد افتتحت بأداة تنبيه هي: «ألا».

● وأن ما في السموات وما في الأرض لله وحده لا يشاركه فيه أحد، بما في ذلك الإنسان نفسه، فماذا ينبغي للمملوك أن يفعل مع المالك؟ أقل شيء هو الطاعة والإخلاص.

● وهذا المالك سبحانه وتعالى يعلم بكل تأكيد ما عليه حال الناس في ظاهرهم وباطنهم، وتأكيد العلم يؤكد أن هناك حسابا فجزاء على الخير خيرا وعلى الشر مثله.

● وهذا المالك سبحانه سوف يرجع إليه خلقه أجمعين يوم القيامة، ومقتضى ذلك الخوف والتحسب بالطاعة لما أمر وما نهى.

● وأنه سبحانه محيط بأعمال عباده ينبئهم بصحائفهم قبل جزائهم ليكونوا على يقين من عدله.

■ المواقف التربوية العامة في هذه الآيات كثيرة، نذكر منها ما يوفق الله إليه فيما يلي:

١ – نتعلم من الآيات الكريمة أن أصحاب الأعذار في ظل التشريع الإسلامي وأحكامه وآدابه مرفوع عنهم الحرج في كل أمر لا يستطيعون القيام به بسبب أعذارهم.

وهذا له دلالات هامة نذكر منها ما يلي:

● رحمة التشريع بالناس وبخاصة أصحاب الأعذار.

● وواقعية التشريع وأخذه ظروف الناس في الاعتبار.

● وتأكيد نفي المشقة والضرر والحرج عن التشريع كله.

● وهناك نصوص إسلامية كثيرة تؤكد نفي الحرج والمشقة عن الشريعة الإسلامية نذكر منها ما يلي:

● قول الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فقد

أجمع العلماء على أن التكليف بما ليس في الوسع لم يقع قط في شريعة الإسلام، فقد قالوا: «الله سبحانه بلطفه وإنعامه ـ وإن كان كلفنا بما يشق ويثقل كهجرة الإنسان وخروجه من وطنه ومفارقته أهله ووطنه وعادته، لكنه لم يكلفنا بالمشقات المثقلة، ولا بالأمور المؤلمة، كما كلَّف مَنْ قبلنا بقتل أنفسهم وقرض مواضع البول من ثيابهم وجلودهم، بل سهَّل ورفق، ووضع عنا الإصْر والأغلال التي وضعها على من كان قبلنا، فلله الحمد والمنة والفضل والنعمة»(١).

● وقوله جل شانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف: ٥٧].

وقد أوضحت هذه الآية الكريمة عمل الرسول ﷺ الخاتم وهي:

● الأمر بالمعروف.

● والنهي عن المنكر.

● وتحليل الطيبات.

● وتحريم الخبائث.

● ورفع الإصر أي المشقة والثقل.

● ورفع الأغلال وهي القيود أو الأثقال.

● وقوله عز من قائل: ﴿طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١، ٢].

قال الواحدي في أسباب النزول: «لما رأى أبو جهل، والنضر بن الحارث من النبي طول عبادته واجتهاده، قالوا له: إنك لتشقى بترك ديننا، فأنزل الله تعالى:

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن تفسير هذه الآية.

﴿ طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾(١).

وقال علماء التفسير في هذه الآية الكريمة:

لما نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ قام هو وأصحابه فصلوا، فقال كفار قريش: ما أنزل الله تعالى هذا القرآن على محمد إلا ليشقى به، فأنزل الله تعالى: ﴿ طه ① مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ اي ما جعله شقاءً ولكن جعله نورا ورحمة ودليلا إلى الجنة.

● وقوله سبحانه: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾.

[البقرة: ١٨٥]

والمعنى ـ والله أعلم ـ أن الله تبارك وتعالى يريد من التشريع التيسير على عباده، وليس التشديد أو الإعنات، وكيف يعنتهم وهو خالقهم؟ وكيف يعنتهم ثم يحاسبهم؟

● وروى البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله: «إن الدين يُسر، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة».

وفي رواية أخرى للبخاري: «سددوا وقاربوا واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، القَصْدَ القصدَ تبلغوا».

ومعنى هذا الحديث ـ والله أعلم ـ ان المسلم مطالب بالا يتشدد مع نفسه في التدين، وإنما عليه أن يسدد ويقارب ويتوسط ويعتدل في غير مبالغة.

● وروى الإمام مسلم بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا.

والمتنطعون هم المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد.

---

(١) الواحدي: أسباب النزول. مرجع سابق.

• وروى البخاري ومسلم بسنديهما عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها؛ قال: «مَهْ عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تَملُّوا».

٢ - ونتعلم من الآيات الكريمة أن الله سبحانه رفع الحرج عن المسلمين جميعا في الأكل من بيوتهم أو بيوت آبائهم.. إلى آخر ما ذكر في الآية الكريمة. لأنهم كانوا يتحرجون من الأكل في هذه البيوت كما أوضحنا آنفا، فرخص لهم في الأكل منها، ورخص لهم أن يأكل الرجل منهم وحده أو مع غيره، وكانوا من قبل لا يأكلون إلا أن يجدوا مؤاكلا.

وهذا تيسير يجعل حياة الناس أكثر سهولة، ويزيل عنها وعنهم المشقة والإعنات، ويشعرهم بعميق الروابط الاجتماعية التي يجب أن تربط بينهم، سواء أكانوا أقارب أم أرحاما أم أصدقاء. إنها أخوة الإسلام، وإنه يسر الإسلام.

٣ - ونتعلم من الآيات الكريمة أدب الاستئذان على الأقارب، كما علمتنا آيات سابقة (١) أدب الاستئذان على الأجانب فالآية الكريمة هنا أباحت للمسلمين الأكل في تلك البيوت ولكنها تذكرهم بضرورة الاستئذان على الأقارب لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب، إذ الأصل أن يلازم المسلم الآداب الإسلامية مع القريب والبعيد على السواء، لأن تلك الآداب قيم خلقية تعد من الثوابت التي لا تتغير بتغير العلاقات، أو الزمان أو المكان أو الأفراد.

٤ - ونتعلم من الآيات الكريمة كيف يكون أدب الانصراف عن المجالس، كما تعلمنا أدب دخول هذه المجالس. وذلك في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ...﴾ الآية. وبخاصة إذا كانت المجالس لمناقشة أمور فيها مصالح للمسلمين دنيوية أو أخروية.

---

(١) هذه الآية الكريمة رقم ٢٧ من سورة النور.

وقد نعت الآية الكريمة على الذين ينصرفون عن هذه المجالس دون استئذان متسللين، واعتبرت ذلك مخالفا للنظام وهروبا بغير إذن فرارا من تحمل تبعة التكليفات، بل أعطت الآية إيحاء بان هذه من صفات المنافقين كما أوضحنا آنفا.

وتعلمنا الآية ان اي مسلم يكون مع وعد أو اتفاق أو أمر جامع مع غيره من المسلمين، فليس له أن يسحب أو ينصرف عن هذا حتى يستأذن.

٥ – ونتعلم من الآيات الكريمة ان مخالفة الرسول ﷺ في أي أمر أو نهي تعرض المخالف إلى فساد القلب المفضي إلى النفاق، أو الكفر.

وتعرض المخالف إلى عذاب وتنكيل في الدنيا، فضلا عن عذاب الآخرة.

ومما أحب أن أنبه إليه هنا، أن مخالفة الرسول ﷺ وقد جاء بما جاء لخير الإنسان في معاشه ومعاده، إنما تدل دلالات خطيرة إذا كانت المخالفة متعمدة، وعلى سبيل المثال فإنها تدل على ما يلي:

أ – فساد العقل وخلل التفكير إذ المؤكد ان الرسول ﷺ لم يأت بشيء يضر بالإنسان أو يسيء إليه أو يحرمه نعمة أحلها الله له، فكيف يخالفه عاقل أو سليم الفكر مستقيم الإدراك؟

ب – والاستهانة بما جاء به ﷺ من أمر ونهي، لأن المخالف لإنسان يستهين به ولا يعبأ بما يقول، وهذا كفر بواح إذا كانت المخالفة عن عمد.

جـ – وتنطوي المخالفة المتعمدة على تكذيب له، إذ لو كان هناك تصديق به ولكان هناك تصديق بما جاء به، ولو كان ذلك قائما ما حدثت مخالفة له عن عمد، وهذا كفر صريح كذلك.

د – وتدل المخالفة للرسول ﷺ على ان المخالف قد تمكن منه الشيطان وعبث به وامتطاه وشجعه على أفدح الذنوب وأعظم الآثام، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا، فمخالف النبي ﷺ شيطان أو ولي للشيطان.

٦ – وتعلمنا الآيات أدب مخاطبة الرسول ﷺ ومنه نتعلم أدب مخاطبة أولياء الأمور، والآباء والشيوخ والمعلمين، وكل من لهم سلطة التوجيه والإرشاد وهذا هو أدب الإسلام الذي علمتنا إياه الآية الكريمة.

ويمكن تلخيص هذا الأدب فيما يلي ـ كما دلت عليه الآية الكريمة.

● لا ينادىٰ هؤلاء الكبار بأسمائهم المجردة ـ كما يفعل أهل البادية ـ وإنما يوقرون ويكنون أو يلقبون ببعض الألقاب التي تنم عن احترامهم وتقديرهم.

● ولا ينادون من بعيد حتى لا يشق عليهم المنادى،

● ويستأذنون عند زياتهم ودخول بيوتهم،

● ولا تعلو الأصوات فوق أصواتهم.

وهكذا يسعد المجتمع المسلم سعادة حقيقية بتوقير الكبار والعلماء وكل من ولاه أمرا للمسلمين، وهذا هو أدب الإسلام.

٧ – ونتعلم من الآيات الكريمة وبخاصة آخر آية في السورة الكريمة ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ...﴾ الآية.

أن كل أمورنا معشر الناس بل أمور السموات والأرض وما فيهن كل ذلك بيد الله سبحانه وهو مالكنا ومالكها ملكا حقيقيا، ومع ذلك أنعم علينا من هذه السموات والأرض نعما جليلة منها الماء الذي منه كل شيء حيّ، والأرض التي سخر لنا ما فيها جميعا، بل نحن البشر، نحن بهذا التكريم الذي كرمه الله لنا في عقولنا وقلوبنا وأسماعنا وأبصارنا وقوتنا كلها ملك له.

نتعلم من ذلك كله أن الله تبارك وتعالى يحبنا ويحب لنا الخير بدليل كل هذه النعم المحيطة بنا، وأنه سبحانه لا يريد منا في مقابل كل تلك النعم إلا أن نشكره عليها مؤمنين مسلمين أنفسنا لمنهجه ونظامه، وأنه سبحانه محاسبنا على شكر نعمه أو كفرها وعلى إيماننا به أو كفرنا، مجازينا على ذلك كله أعدل الجزاء، فالمفلح منا من أطاع والخاسر من عصى.

■ المواقف التربوية في مجالي الدعوة والحركة الإسلامية في الآيات الاخيرة من السورة الكريمة كثيرة، نذكر منها ما يفتح الله به فيما يلي:

١ – يتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من هذه الآيات الكريمة ان المدعوين يجب أن يكونوا موضع عناية ورعاية وحسن تقدير لظروفهم من الدعاة والحركيين، هذا حق المدعوين على الدعاة دائما، وذاك هو الفقه الحقيقي للدعوة وللمدعوين.

وإن ذلك ليستوجب على الدعاة نحو المدعوين أمورا نذكر منها ما يلي:

● التعرف على ظروفهم تعرفا دقيقا قبل تكليفهم بأي عمل.

● والتماس الأعذار لهم عند التقصير.

● وشحذ هممهم وإزالة المعوقات من طريق مشاركتهم في العمل والتعاون معهم.

● والتعامل معهم بالأخوة الحانية، متذكرين دائما قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

● والقرب منهم ومشاركتهم في أعمالهم، وتدريبهم على الأعمال الجديدة التي يكلفون بها.

● والتأكد من أنهم كلفوا بأعمال يستطيعون القيام بها، ويحبونها، وتلك راجعة إلى مهارة الداعية ونفاذ بصيرته في التعرف على قدرات المدعوين وما يحبون وما يكرهون ثم رعاية هذه القدرات وتنميتها.

٢ – ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه الآيات، ويعلمون الناس أن لكل عمل من أجل الدعوة والحركة أدباً يجب أن يُتَّبَع قد جاءت به شريعة الإسلام، بل لكل عمل اجتماعي عام أدب إسلامي جاءت به شريعة الإسلام، بل لكل عمل اجتماعي

عام أدب إسلامي يحكمه، وتكاد سورة النور من بين سور القرآن الكريم أن تكون قد اشتملت على كثير من الآداب الاجتماعية والقيم الخلقية التي تهم المسلمين عموما والمسلمات على وجه الخصوص.

ولعل هذا يبرر التوصية بأن يتعلم الرجال سورة المائدة وأن يتعلم النساء سورة النور.

– آداب تطبيق الحدود وأحكام عامة في السورة كلها:

ومن هذه الآداب الاجتماعية التي هي أحكامٌ وأخلاقٌ مما اشتملت عليها سورة النور ما نسوقه في الأمور التالية:

الأول:

الا تأخذ المسلمين - الحكام - رأفة بمن يقام عليه الحد، لأن الرأفة في هذا المقام لا تزجر الآثم ولا تردع غيره، وهو ملمح تربوي عميق يجعل من يفكر في ارتكاب جرم يعاقب عليه بإقامة الحد يتردد ويراجع نفسه مرات ومرات في الغالب يعدل عن هذا التفكير.

والثاني:

أن تقام الحدود على مشهد من المسلمين لأكثر من سبب منها:

- أن إقامة الحدود عبادة فرضها الله والأصل أن تعلن الفرائض ويجهر بها.
- وأن شهود الناس للمحدود يعينه على ألا يعود إلى هذه الغلطة أبدا، حتى لا يفضح نفسه مرة ثانية.
- وأن المشاهدين يحمدون الله على أن مكنهم من إقامة حدود الله على الخارجين على شرعه ونظامه.

والثالث:

أن تنقية المجتمع من التهم والبذاءات عمل عبادي كذلك، حيث يقام الحد على

من يقذف المحصنات دون أن يكون لديه شهود أربعة عدول يشهدون على صدقه فيما اتهم به غيره، وما دامت إقامة الحد عملا عبادياً فلا يجوز التهاون فيه ولا تأخيره ولا إقامته في الخفاء، ولا قبول شهادة من أقيم عليه الحد إلا إذا تاب.

والرابع:

أن من أخطأ فعوقب فتاب وأصلح فإن له مكانه في مجتمع المسلمين، وحسبه أن الله يغفر له إن خلصت توبته.

والخامس:

أن العلاقة الزوجية لها احترامها في نظام المجتمع المسلم، فإذا حدث أن زوجا اتهم زوجته بالزنا، فإن لم يأت بأربعة شهداء فقد شرع لهذين الزوجين أن يتلاعنا ثم يفرق بينهما حيث لا رجعة أبدا إلى أن يلقيا الله، لعظم ما رماها به من تهمة.

والسادس:

وأن قصة حديث الإفك التي جاءت في السورة ترسم للمجتمع حدوده الخلقية وتدين الراغبين في أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتؤكد وجوب حسن ظن المسلمين بعضهم ببعض.

والسابع:

أن ينتهي المسلمون عن اتباع خطوات الشيطان فإن مع الشيطان الفحشاء والمنكر وإغضاب الله، وما اتبع خطوات الشيطان أحد إلا وقد دخل في عقاب الله.

والثامن:

أن من كان يفعل الخير في أحد من المسلمين، ثم أساء إليه الذي هو يحسن إليه، فإن عليه أن يكظم غيظه، وأن يستمر في إسداء الخير لمن أساء إليه، إذا كان المحسن يحب أن يغفر الله له.

والتاسع:

ان يباعد المسلمون بين أنفسهم وبين الكلمة الخبيثة والفعلة الخبيثة والإنسان الخبيث، وذلك ان الله تبارك وتعالي طيب لا يقبل من العمل إلا ما كان طيبا.

والعاشر:

ان لا يدخل المسلم بيت أحد من المسلمين من غير أقاربه إلا إذا استانس وطلب الإذن فاذن له، وإن لم يؤذن عاد من حيث أتى دون أن يحمل في قلبه أدنى غضاضة، وان هناك بيوتا غير مسكونة يجوز للمسلمين ان يدخلوها دون إذن لما لهم فيها من مصلحة عامة.

والحادي عشر:

غض البصر عن كل ما حرم الله، وهذا الغض واجب على الرجال والنساء عموما.

والثاني عشر:

حفظ الفروج بالعفة والستر.

والثالث عشر:

الا تظهر المراة المسلمة مواضع زينتها إلا للزوج أو الأب أو الابن... إلى آخر ما جاء في الآية الكريمة، ويدخل في ذلك نهي المسلمة عن ان تلفت إلى نفسها انظار الرجال بحركة أو صوت أو ملبس أو نحو ذلك.

والرابع عشر:

الا يحول الفقر بين مسلم أو مسلمة وبين الزوج ممن هو أو هي من أهل الصلاح والتقوى، فليس الغنى وحده مرغبا في الزواج كما أنّ الفقر وحده ما ينبغي ان يكون منفرا من الزواج، لان الغنى والفقر بيد الله وكم من فقير أو فقيرة أغناهما الله من فضله.

والخامس عشر:

أن يتجنب كل مسلم مهر البغي، وأن يتعظ بما ساقه الخبيث المنافق عبد الله بن أبي بن سلول من حجج هازلة وهو يستسمح رسول الله أن يأذن للبغي بالزنا حتى تنفق من أجرها على أيتام!!!

والسادس عشر:

أن يتعظ المسلمون بما يضربه الله لهم من أمثال ففي هذه العظة حياة لهم في الدنيا والآخرة، وكيف بأمثال تهمل وقد أتى بها من هو بكل شيء عليم؟

والسابع عشر:

أن يكون من شأن المسلم ومن قيمه الخلقية أن يعمر بيوت الله بالعبادة والذكر والعمارة؛ لأن الله تعالى قد أمر للمساجد ولبيوت المسلمين أن يرفع قدرها بالذكر والعبادة والإعمار.

والثامن عشر:

ألا يغتر المسلمون ببعض أعمال الكفار التي قد تبدو صالحة كصلة الأرحام وأعمال البر؛ لأنه ليس بعد الكفر ذنب أعظم من ذنب الكفر، وذلك هو شأن أعمال الكافرين الظاهرة.

والتاسع عشر:

أن يتعظ المسلمون بنظرهم في أعمال الكفار القلبية الباطنة إذ هي كما وصفها الله ظلام في ظلام في ظلام، قد حرم صاحبها الهداية وخانه العقل.

والعشرون:

أن على المؤمن من أجل أن يصفو إيمانه أن يتدبر دائما في مخلوقات الله تبارك وتعالى التي تسبح بحمده، أفلا يليق بمن كرمه بالعقل، وشرفه بإرسال الرسول أن يسبح ربه ويقدسه؟

والحادي والعشرون:

أن على المؤمنين أن يتدبروا فيما خلق حولهم من سماء وسحاب وماء وبَرَد، وتقليب لليل على النهار فإن ذلك كله يقوي الإيمان وينقيه من الشوائب، وليس خلق الله للدواب كلها من ماء مع اختلافها في الحركة إلا دليل على وجوب التدبر والتأمل في عظيم خلق الله وكل هذا يقوي الإيمان ويعززه.

والثاني والعشرون:

أن يعرف المسلمون أن المجتمع المسلمين قد لا يخلو من النفاق والمنافقين وأن التعامل مع المنافقين محكوم بالقاعدة الإسلامية «لنا الظاهر والله يتولى السرائر» وليس لمسلم أن يتسرع في الحكم على أحد بالنفاق، وأن للنفاق علامات حددها الرسول ﷺ.

والثالث والعشرون:

أن يُشْرِب المسلمون قلوبهم حب الله والثقة فيه وطاعته وخشيته وتقواه، فإن تلك الصفات هي أحسن ما يتصف الإنسان به ليكون أهلا لرضا الله وحبه، وأهلا لان ينزل عليه نصره الذي وعد لعباده المؤمنين.

والرابع والعشرون:

أن يدرك الدعاة إلى الله والعاملون في الحركة الإسلامية أن عليهم البلاغ، وأن الهدى هدى الله، وأن الدعاة ليسوا مسئولين عن طاعة من أطاع ولا عن عصيان من عصى، وإنما يسألون عن إخلاصهم في الدعوة.

والخامس والعشرون:

أن يستيقن الدعاة من أن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن يستخلفهم الله في الأرض وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدلهم بعد خوفهم أمنا.

والسادس والعشرون:

أن يستيقن الدعاة والمسلمون عموما بأن أعداء الدعوة من الكفار وغيرهم لن يفوتوا الله سبحانه ولن يعجزوه في الدنيا ولا في الآخرة مهما بدا هؤلاء الأعداء أصحاب قوة ومنعة وسلطان.

والسابع والعشرون:

أن يتقيد المسلمون عموما والدعاة والحركيون على وجه الخصوص بأحكام الاستئذان على الأبوين والأقارب في الأوقات الثلاثة المعروفة وفي سائر الأوقات.

والثامن والعشرون:

أن تتعلم القواعد من النساء أن الله تعالى قد رخص لهن في وضع الثياب وغيرها ما لم يرخصه للشواب من النساء، لكن بشرط ألا يحدث من هذه الرخصة تبرج، وأن يكون رائدهن قوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

والتاسع والعشرون:

أن يتعلم المسلمون أن لأصحاب الأعذار أحكاما خاصة بهم رخص الله من أجل أعذارهم ما لم يرخص لغيرهم، ما دام ذلك في أعمال يحول بينهم وبين القيام بها ما بهم من أعذار.

والثلاثون:

أن يتقيد المسلمون بأحكام الاستئذان في دخول بيوت الأقارب وفي الأكل فيها، وفي الأكل مع الجماعة أو الأكل منفردا.

والحادي والثلاثون:

أن يتقيدوا بأدب الإسلام في الانصراف من المجالس عموما ومن المجالس التي تناقش فيها القضايا العامة للمسلمين، وهو أن يستأذنوا إن كان لهم عذر في الانصراف، وأن يلتزم أصحاب المجالس بأدب الإسلام في السماح لمن استأذن في

الانصراف وفي الدعاء له.

والثاني والثلاثون:

ان يعرف المسلمون عموما والدعاة على وجه الخصوص أدب التخاطب مع الرسول، ويتعلموا ذلك في التعامل مع الحكام والكبراء والشيوخ والمعلمين وأولياء الأمور بصفة عامة.

والثالث والثلاثون:

ان يوقن المسلمون بأن الله تعالى له ملك السموات والأرض وأنه بكل شيء عليم وأنه محاسب ومجازٍ كل إنسان بما قدم في حياته الدنيا من خير أو شر.

٣ - ويتعلم الدعاة والحركيون من هذه السورة الكريمة أمورا على جانب كبير في مجال الدعوة والحركة، وفي بناء المجتمع المسلم الراشد المؤمن الذي يعمل الصالحات.

ومن هذه الأمور ما نسوقه فيما يلي:

أولا: - في بناء المجتمع المسلم:

لا حياة لمجتمع مسلم ما لم يتقيد فيه الأفراد والعائلات والجماعات والحكام بشريعة الإسلام في كل ما جاءت به في شعب الحياة كلها:

- العقيدة الإيمانية.
- والإسلامية التعبدية.
- والاجتماعية،
- والسياسية،
- والاقتصادية،
- والتربوية،
- والخلقية،

● والجمالية،

● والجهادية، وغيرها.

ثانيا:

تطبيق أحكام الشريعة والالتزام بآدابها وقيمها هو وحده القادر على أن يمكن المسلمين من القيام من كبوة التراجع الحضاري الذي وقعوا فيه، بعد أن أهملوا الأخذ بأحكام الشريعة وآدابها.

ثالثا:

اليقين بأن منهج الإسلام ونظامه قد جاء بأحكام وآداب وأخلاق تكفي كل ما في الحياة من شعب ومجالات وتكفي ما يحتمل أن يحدث من متغيرات ومستجدات.

رابعا:

اليقين بأن هذه الأحكام والآداب والقيم الخلقية، وإن كانت واجب المسلمين أفرادا وبيوتا رجالا ونساء، إلا أنها أوجب ما تكون على الحكام والمسئولين وأولياء الأمور، وأن على الدعاة أن يعينوا الحكام وولاة الأمور على أن يتقيدوا بهذه الأحكام إذ لا استقرار لهم إلا بالتقيد بها، غير أن إعانتهم تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والتربية للمجتمع كله تربية إسلامية مستمرة لا تتوقف أبدا.

خامسا:

أن هذه الأحكام وتلك الآداب التي اشتملت عليها السورة الكريمة، وإن كانت هامة للمسلمين جميعا رجالا ونساء إلا أن كثيرا منها له علاقة مباشرة بالنساء، ومن هنا كان اهتمامي بشرحها تجاوبا مع الحديث الذي ذكرته في تصدير هذا الكتاب والكتاب الذي قبله في هذه السلسلة، الذي رواه مجاهد موقوفا: «علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور».

● تكريم الإسلام للمرأة:

٤ – ويتعلم الدعاة والعاملون في الحركة الإسلامية من هذه السورة الكريمة سورة النور أن المرأة المسلمة مُكَرَّمة في الإسلام أكبر تكريم، وأن من مظاهر تكريم الإسلام لها تلك الأحكام التي شرعها في حقها ومن أجلها وهي ما نذكره فيما يلي:

● حرم عليها الزنا وفرض عليها عقوبة دنيوية إن هي قارفته وفي هذا تكريم وصيانة لعرضها وشرفها إن كانت غير ذات زوج وحماية لزوجيتها وأسرتها إن كانت متزوجة.

● وأنه لا يجوز أن نقذفها بكلمة نابية تمس شرفها أو عرضها ومن قذفها عوقب بحد قدره الله سبحانه.

● وأن الزوج لو اتهم زوجته بزنا ثم لم يكن له شهداء إلا نفسه لاعنها ثم فرق بينهما.

● وأنه لا يجوز لأحد أن يحدث عنها بحديث لا يملك عليه دليلا وإلا كان كذابا، وأن على كل مَن سمع مثل الحديث أن يكذبه وأن يحسن الظن بها.

● ومن تكريم الإسلام لها أن طالبها بغض بصرها إعفافا لها عن الحرام، وطالبها بعدم إبداء زينتها للأجانب عنها، صيانة لها عن أعين المتطفلين الفساق وطالبها بألا تلفت نظر الرجال إليها.

● وبالغ في صيانتها بأن أمر الرجال أن يغضوا أبصارهم عنها.

● ومن تكريم الإسلام لها أن شجع على الزواج منها دامت ذات دين مهما كانت فقيرة.

● ومن تكريمه لها أن منع أولياءها من تزويجها بمن لا يُرضى عن دينه وأمانته.

● ومن تكريمه لها ـ وهي أمة فرضت عليها العبودية ـ أن طالب مولاها بعقتها

أو مكاتبتها ليسهل عليها الحصول على الحرية.

● ومن تكريمه لها - وهي في الرق - ألا يسمح لسيدها أن يكرهها على الزنا.

● ومن تكريمه لها عندما تتقدم بها السن أن يرخص لها في وضع الثياب ولكنه يشرط عليها ألا تتبرج، ويقول لها: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

إذا كان هذا التكريم كله في سورة واحدة من سور القرآن الكريم هو سورة النور، فما بالنا بتكريم الإسلام لها في سائر سور القرآن الكريم، وفي السنة النبوية المطهرة البحر الزاخر بالأحكام والآداب والقيم الخلقية الرفيعة؟

ومع ذلك كله نجد بعض الغافلين أو الجاهلين بالإسلام أو الحاقدين عليه يزعمون أن الإسلام لم يحترم المرأة!!!

لست أدري ما احترام المرأة عندهم - أقصد الغربيين أصحاب هذه الدعاوى الكاذبة - ؟

أمن احترام المرأة - كما هو الحال عندهم أن تتاح لها حرية الزنا، وأن تعمل راقصة، وبائعة هوى ومؤانسة على موائد الشراب وعشيقة من غير زوجية؟

أمن احترامها ألا تعرف والد ولدها، وألا تتمكن من إلحاقه بأبيه؟

أمن احترامها ألا يكون لها ولي ولا عائل، وألا تعرف أباها في معظم الحالات، وألا تعرف أمها التي تخلصت منها؟

إن كان هذا هو احترام المرأة فنحن بحاجة إلى أن نتعارف مع هؤلاء على بدهيات الأمور قبل أن نقول أو يقولون!!!

فضلا عن أن ندافع عن تهم تقوم على المغالطة والأكاذيب.

اقرأوا سورة النور وحدها لا القرآن الكريم كله إن كنتم ترغبون في معرفة احترام الإنسان للمرأة.

ولماذا لا يحترم الإسلام المرأة وهو خاتم الأديان وأتمها وأكملها وأرضاها لله تعالى؟

كيف لا يحترمها وقد شرح لها أحكاما وهي بنت صغيرة وحبب في تربيتها ورعايتها وجعل جزاء ذلك الجنة.

كيف لا يحترمها وقد شرع لها أختا وزوجة وأما وعمة وخالة وجدة وبنت أخ وبنت أخت تشريعات تحفظ لها من الحقوق ما لم يعرف له نظير في ظل حضارة سابقة، ولا عرف له نظير في ظل نظام غير الإسلام(١)؟

اللهم أزل الغشاوة عن عيون أصحابها ليروا الحق حقا والباطل باطلا، ويفيئوا إلى منهج الله ونظامه، إنك على ما تشاء قدير، والحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين.

* * *

---

(١) انظر للمؤلف: المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله. نشر دار الوفاء ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

الخاتمـــة

في ختام هذا الكتاب أحمد الله سبحانه وتعالى، على ما وفق وأعان وأصلي وأسلم على محمد نبي الهدى وعلى آله وصحبه والسائرين على دربه إلى يوم الدين.

وادعو الله تعالى أن يتجاوز عن سيئاتي ـ وهي كثيرة ـ وأن يسامحني فيما أكون قد وقعت فيه من خطأ أو قصور في هذا الكتاب أو غيره مما كتبت، إنه على ما يشاء قدير.

وأرجو قارئ كتابي هذا أن يدعو لي بالعفو والعافية في الدين والدنيا، دعوة بظهر الغيب أسأل الله أن تجاب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

القاهرة في ليلة التاسع والعشرين من شهر رمضان الكريم

١٤١٤هـ الموافق ١١/٣/١٩٩٤م

علي عبد الحليم محمود



ثبت موضوعات الكتاب

الآيتان الرابعة والخامسة

الآيات من السادسة إلى العاشرة

الآيات من الحادية عشرة إلى العشرين

الآيات من الحادية والعشرين إلى السادسة والعشرين

الآيات من السابعة والعشرين إلى التاسعة والعشرين

* * *



بسم الله الرحمن الرحيم

قائمة بأعمال المؤلف المنشورة

أولا: في الفكر الإسلامي وقضاياه:

١ – مع العقيدة والحركة والمنهج. نشر دار الوفاء بمصر

٢ – الغزو الفكري والمجتمع الإسلامي. نشر دار المنار بمصر

٣ – الغزو الصليبي والعالم الإسلامي. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بمصر

٤ – المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي. نشر دار المنار بمصر

٥ – التراجع الحضاري في العالم الإسلامي وطرق التغلب عليه. نشر دار الوفاء بمصر.

٦ – التعريف بسنة الرسول ﷺ.

أو علم الحديث دراية. نشر مطبعة السعادة بمصر

٧ – السلفية ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب. نشر دار عكاظ بالسعودية

٨ – نحو منهج بحوث إسلامي. نشر دار الوفاء بمصر

ثانيا: في التربية الإسلامية:

٩ – تربية الناشئ المسلم. نشر دار الوفاء بمصر

١٠ – فقه الأخوة في الإسلام. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بمصر

١١ – منهج التربية عند الإخوان المسلمين. نشر دار الوفاء بمصر

١٢ – وسائل التربية عند الإخوان المسلمين. نشر دار الوفاء بمصر

١٣ – التربية الإسلامية في سورة المائدة نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بمصر

١٤ – التربية الإسلامية في سورة النور نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية بمصر

رابعا : في فقه الدعوة الإسلامية.

١٥ – فقه الدعوة إلى الله. نشر دار الوفاء بمصر

١٦ – فقه الدعوة الفردية. نشر دار الوفاء بمصر

١٧ – المرأة المسلمة وفقه الدعوة إلى الله. نشر دار الوفاء بمصر

١٨ – التوثيق والتضعيف بين المحدثين والدعاة. نشر دار الوفاء بمصر

١٩– عالمية الدعوة الإسلامية. نشر دار الوفاء بمصر

خامسا : في فقه الإصلاح والتجديد عند الإمام حسن البنا :

٢٠ – فهم أصول الإسلام في رسالة التعاليم. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢١ – الإخلاص في مجال العمل الإسلامي. نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

٢٢ – ركن العمل أو منهج الإصلاحي الإسلامي. للفرد والمجتمع نشر دار التوزيع والنشر الإسلامية

سادسا : في الأدب الإسلامي :

٢٣ – مصطفى صادق الرافعي والاتجاهات الإسلامية في أدبه. نشر دار عكاظ السعودية.

٢٤ – جمال الدين الأفغاني والاتجاهات الإسلامية في أدبه. نشر دار عكاظ السعودية.

سابعا : في الدراسات الأدبية :

٢٥ – القصة العربية في العصر الجاهلي. نشر دار المعارف بمصر

٢٦ – النصوص الأدبية. تحليلها ونقدها. نشر دار عكاظ السعودية

ثامنا : كتب معدة للنشر : إذا أذن الله.

٢٧ – المدخل إلى التربية الإسلامية.

٢٨ – التربية الإسلامية في المدرسة.

٢٩ – التربية الإسلامية في المجتمع.

٣٠ – فقه المسئولية.

٣١– فقه العقيدة الإسلامية.

٣٢ – التربية الإسلامية في سورة آل عمران.

٣٣ – التربية الإسلامية في سورة النساء.

٣٤ – التربية الإسلامية في سورة الأنفال.

٣٥ – التربية الإسلامية في سورة الأحزاب.

٣٦ – العمل، والجهاد، والتضحية، والطاعة، والتجرد، والثبات، والأخوة، والثقة.
في رسالة التعاليم للإمام حسن البنا.

* * *

رقم الإيداع ٥٩٠٦ / ١٩٩٤م

الترقيم الدولي
I . S . B . N . 977 - 265 -102 - 5

دار الطباعة والنشر الإسلامية

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانىء الأندلسي ت ٦١٨١٣٧